فالانتين راسبوتين

الوداع الأخير

ترجمة: د. هاشم حمادي

الوداع الأخير

فالنتين راسبوتين
الوداع الأخير

دار الحصاد للطباعة والنشر
* سورية - دمشق
. . . . . .
ص ب : ٤٤٩٠فا:٢١٢٦٣٢٦
ها:٢٢٢٥٧٣٧
e-mail: jameh@mail.sy

* الطبعة الأولى: ٢٠٠٦
* الحقوق محفوظة للدار

فالانتين راسبوتين

الوداع الأخير

ترجمة: د. هاشم حمادي

- الكاتب -

الأرض السيبيرية هي التي أنجبت فالنتين راسبوتين، وهي التي جعل منها الكاتب الموضوع الرئيس للعديد من مؤلفاته الأدبية.

ولد فالنتين غريغوريفيتش راسبوتين في الخامس عشر من آذار من عام١٩٣٧، في أسرة فلاحية . وكانت قرية أوست – أودا، التابعة لمقاطعة اركوتسك، والواقعة على ضفة نهر انغارا، مسقط رأسه.

كانت طفولة راسبوتين قاسية، إذ اعتقل أبوه، وقضى نحبه بالسجن. وهكذا فقد ذاق مرارة اليتم والحرمان.

ومن ناحية أخرى أقبل راسبوتين الفتى على المطالعة بنهم، وتابع دراسته في جامعة اركوتسك ، وكتب في عدد من صحف الشبيبة. ومنذ عام ١٩٦١ بدأ ينشر قصصه القصيرة، ثم جاءت روايته الأولى "نقود لماريا" عام ١٩٦٧ التي جلبت له الشهرة، على نطاق الاتحاد السوفييتي آنذاك.

وفي عام ١٩٧٠ صدرت رواية "الوداع الأخير" التي تدور أحداثها في قرية سيبيرية نائية.

تبدأ الرواية: "كانت العجوز آنا ترقد على سرير حديدي ضيق، بجوار المدفأة الروسية، بانتظارأن يوافيها الموت..، " وتنتهي:"وفي الليل ماتت العجوز".

وبين هذين السطرين ، البداية والنهاية، تمتد قصة حياة العجوز . والكاتب لا يكتفي باستعراض التفاصيل الدقيقة للوحة المكونة لاحتضارها. بل وينبش من حياتها الكثير من الصور المعبرة، ثم يستخدمها في رسم بانوراما عريضة لهذه الحياة، بأفراحها وأتراحها، وما أقل الأولى وأكثر الثانية.

كانت حياة العجوز، التي امتدت قرابة ثمانين حولاً، حافلة بالأحداث المتشابهة، والمتكررة: إنجاب الأولاد، إطعامهم وسقيهم والعناية بهم، والعناية بأمور البيت والحاكورة والعمل في التعاونية .

وأثناء حياتها سرقت العجوز. سرقت مرة واحدة، أثناء سنوات المجاعة، لقد سرقت، كما جان فالجان، في رواية فيكتور هيكو المعروفة "البؤساء"، جان فالجان سرق الخبز ليأكل ، أما هي فسرقت الحليب لإطعام صغارها، الذين يتضورون جوعا. فقد كان لديها بقرة، وحين أُمّمت البقرة ، لم يعد لديها شيء. وكانت هذه البقرة، التي سموها "زوركا" تحن إلى بيت صاحبتها وتتردد عليه في الأماسي، فكانت العجوز تحلب ما بقي في ضرعها من حليب، ولم يكن بالكثير.

كان للعجوز صديقة واحدة، صديقة العمر، انها العجوز ميرونيخا، التي تزورها بين الفينة والأخرى، فتفضي كل منهما للأخرى بمكنونات نفسها، وتجد كل منهما متعة كبيرة في تجاذب أطراف الحديث. وبينما لم يكن أولاد العجوز يجدون ما يتحدثون به مع والدتهم، كانت ميرونيخا تبعث الدفء والحياة في نسغ العجوز، وتجعلها تفرح وتقلق وتنزعج وتغوص في بحر الذكريات، أي تجعلها حية بكل معنى الكلمة.

لم تكن العجوز تخشى الموت، لا بل إنها جاهزة لاستقباله، وترحب بقدومه، لكن مجيء أولادها لـ "دفنها" ورؤيتها لهم، وانتظارها بفارغ الصبر وصول ابنتها الصغرى، التي لم تأت لسبب ما، كل ذلك جعلها "تنبعث من بين الأموات"، وتعود إلى عالم الأحياء.

أنجبت العجوز الكثير من الأولاد، لكن الموت سلبها خمسة، وترك لها خمسة، وحتى هؤلاء لم يبقوا لديها. إذ انتزعت الغربة أربعة منهم، ولم تترك لها إلا واحدا.

لكن الأولاد لم يكونوا مثاليين في تعاملهم مع بعضهم، وفي معاملتهم لأمهم المحتضرة: بعضهم يسكر، والآخر منصرف إلى صغائر الأمور، بعضهم يأتي لوداعها، بعضهم الآخر لا يأتي، ثم أنهم يسافرون، تاركين أمهم على فراش الموت، وهي التي إنما عادت إلى الحياة بفضل قدومهم.

لم ينفصل هؤلاء الأولاد فقط عن أمهم آنا، بل انفصلوا عن أرضهم – سيبيريا – عن قريتهم، التي لااسم لها، انفصلوا عن مسقط رأسهم، عن وطنهم الأم، فأصبحوا غرباء في عقر دارهم.

لم يبق متمسكا بالقرية إلا ميخائيل. صحيح انه رجل سكير وسمج، لكنه هو بالذات، وزوجته ناديا، من يسهر على العجوز، ويعتني بها. ثم ان ميخائيل هو الذي يكذب على العجوز كذبة بيضاء، إذ يعلن أنه أرسل برقية لأخته الصغرى، كي تؤجل قدومها. كل ذلك بغية التخفيف عن أمه من عذاب الانتظار غير المجدي لابنتها الغالية.

في عام ١٩٧٤ كتب راسبوتين رواية "عش وتذكر"، ورواية "وداع ماتيورا" في عام ١٩٧٦، ثم رواية "الحريق" في عام ١٩٨٥. هذا بالإضافة إلى العديد من القصص القصيرة والمقالات والتحقيقات.

– المترجم–

كانت العجوز آنا ترقد على سرير حديدي ضيق، بجوار المدفأة الروسية، بانتظار أن يوافيها الموت، الذي يبدو أن أوانه قد حان: فالعجوز قاربت الثمانين من العمر. ولفترة طويلة ظلت تبذل قصارى جهدها، فتمكنت من البقاء على قدميها. لكنها، لثلاث سنوات خلت، استسلمت، ولزمت الفراش، بعد أن أصبحت عاجزة. وفي الصيف بدا وكأنها تحسنت، فكانت تخرج متثاقلة إلى فناء الدار، تتدفأ بأشعة الشمس، وتارة كانت تدب، فتقطع الشارع إلى العجوز ميرونيخا. لكن مع حلول فصل الخريف، وقبيل تساقط الثلج، أصبحت عاجزة تماما، حتى أنها لم تعد قادرة على تنظيف نونيتها، التي جاءتها من حفيدتها نينكا. وبعد أن وقعت العجوز مرتين، أو ثلاث مرات متوالية عند المدخل، أمرت بعدم النهوض بتاتا، وهكذا تحولت كل حياتها إلى مجرد قعود في السرير، أو الجلوس على حافته، والقدمان متدليتان، ومن ثم العودة إلى الاستلقاء والرقود.

خلال حياتها أنجبت العجوز كثيراً من الأولاد لكن لم يبق على قيد الحياة منهم سوى خمسة . وكان السبب في ذلك أن الموت دأب على التردد على أسرتهم، كما يتردد الظربان على قن الدجاج. ومن ثم اندلعت الحرب. لكن خمسة سلموا: ثلاث بنات وولدان . كانت إحدى البنات تعيش في الناحية، والأخرى في المدينة، بينما كانت الثالثة بعيدة جد في كييف. أما ابنها الأكبر فقد انتقل بعد الجيش من الشمال إلى المدينة ،

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

وعند الأصغر ميخائيل، الوحيد، الذي لم يهجر القرية، كانت العجوز تقيم، محاولة أن لا تثقل كاهل أسرته بشيخوختها.

وفي هذه المرة كان كل شيء يدل على أن العجوز لن تعيش لترى فصل الشتاء، منذ أن بدأ الصيف بالأفول، راحت العجوز تصاب بالإغماء، لكنها كانت تعود من العالم الآخر بفضل حقن الممرضة، التي كانت نينكا تجري لمناداتها . كانت وهي تسترد وعيها، تئن بصوت رقيق، ليس بصوتها. ومن عينيها كانت تنصب الدموع، فتبدأ النواح:

ــ كم مرة قلت لكم: لا تعيدوني، دعوني أذهب بنفسي إلى الراحة الأبدية، لولا ممرضتكم لكنت الآن في مكان آخر. كانت تعلم نينكا : – لا تذهبي بعد الآن إليها، لا تذهبي. وإذا قالت لك أمك أن تذهبي، فاختبئي في الحمام، وانتظري قليلاً، وبعد ذلك قولي لها: أنها ليست في البيت . ولسوف أعطيك سكرة مقابل ذلك – سكرة حلوة جدا.

في بداية أيلول حلت بالعجوز مصيبة أخرى، فقد بدأ النعاس يستولي عليها، ولم تعد تأكل، أو تشرب، بل تنام فقط، وإذا ما لامسوها فإنها تفتح عينيها، وتلقي نظرة زائغة، دون أن ترى أمامها شيئا، ثم تغفو من جديد. وكانوا كثيرا ما يتحسسوها، لكي يعرفوا: أحية هي أم لا. لقد جفت، واصفرت أخيرا، فأصبحت أشبه بالجثة الهامدة، لكن تنفسها لم يتوقف.

حين أصبح من الواضح تماماً أن العجوز سوف تسلم الروح، إن لم يكن اليوم ، فغدا ذهب ميخائيل إلى مركز البريد، وأبرق لأخيه وإخوانه كي يأتوا. بعد ذلك هز العجوز فأيقظها، وأبلغها :

– انتظري يا أماه عما قريب سيصل أخي وأخواتي، لابد أن يروك .

في صباح اليوم التالي كانت بربارة، الابنة الكبرى، أول الواصلين، لم يكن عليها، لكي تصل من الناحية، أن تقطع مسافة بعيدة، خمسين كيلو مترا فقط، ويكفيها لذلك أن توقف أية سيارة عابرة. فحطت بربارة البوابة، فلم تر أحدا في الفناء. وعلى الفور أطلقت لعويلها العنان:

– آخ يا ماتو شكا – أ – أ .

واندفع ميخائيل إلى المدخل:

– تريثي، فهي حية، انها نائمة . لا داعي للصراخ في الخارج، وإلا جمعت القرية كلها.

ودون أن تلتفت إليه، دخلت بربارة الغرفة، وعند سرير العجوز ركعت على ركبتيها، وعادت إلى العويل، وهي تلوح برأسها:

– آخ يا ماتوشكا – ا –ا.

لم تستيقظ العجوز، ولم تدب قطرة دم واحدة في وجهها.

لكن ما إن ربت ميخائيل على خدي أمه الغائرتين، حتى دبت الحركة في عينيها من الداخل، واهتزتا، ترومان الانفتاح، لكن عبثا.

ودمدم ميخائيل : أمي! لقد جاءت بربارة. انظري.

وحاولت بربارة بدورها: ماتوشكا. إنني أنا، ابنتك الكبرى . لقد أتيت لرؤيتك . أما أنت فلا تنظرين إلي. ماتوشكا – أ – أ .

ومن جديد اختلجت عينا العجوز، واهتزتا كأنهما كفتا ميزان ثم توقفتا وانغلقتا .

نهضت بربارة وتراجعت تبكي عند الطاولة، حيث المكان أنسب . ظلت تنتحب طويلا وهي تدق برأسها على الطاولة، وذرفت الكثير من الدمع، ولم تعد قادرة على التوقف. وبالقرب منها كانت تحوم نينكا، ذات الخمسة أعوام، وهي لا تكف عن الانحناء لكي ترى لماذا لا تنسكب دموع بربارة على الأرض . فكانوا يطردونها، لكنها كانت تراوغ، وتتسلل إلى الطاولة من جديد.

عند المساء وصل المدنيان – إيليا ولوسيا – على متن المركب، الذي يأتي مرتين في الأسبوع، ولحسن الحظ صادف موعد وصوله هذا اليوم. كان ميخائيل في استقبالهما على المرسى، ورافقهما إلى البيت، حيث ولدوا

جميعا وترعرعوا. كانوا يسيرون وقد خيم عليهم الصمت: لوسيا وإيلياعبر الممر الخشبي الضيق والمتقلقل، وميخائيل إلى جانبهما، عبر كتل الوحل الناشف. كان أبناء القرية يحيون لوسيا وإيليا، ودون أن يتوقفوا لتبادل الحديث، كانوا يتابعون سيرهم، ثم يتلفتون باهتمام. ومن النوافذ كانت العجائز والأولاد يحملقون بالقادمين، وترسم العجائز إشارة الصليب.

ما إن رأت بربارة أخاها وأختها، حتى فقدت السيطرة على نفسها:

– ماتوشكا ... آخ يا ماتوشكا – أ– أ .

– انتظري – أوقفها ميخائيل من جديد – سوف تلحقين .

التقى الجميع عند سرير العجوز، بمن فيهم ناديا، زوجة ميخائيل، ونينكا أيضاً. كانت العجوز ترقد دون حراك، وببرودة – كأنها إما في نهاية الحياة، أو في بداية الموت. وتأوهت بربارة:

– ليست حية .

لم ينهرها أحد، و تحرك الجميع بخوف . وسارعت لوسيا، فقربت راحتها من فم العجوز المفتوح، فلم تشعر بتنفسها، وصاحت: مرآة، أعطوني مرآة.

اندفعت ناديا نحو الطاولة، وهي تمسح شظية مرآة بطرف ثوبها، ثم ناولتها للوسيا، التي سارعت إلى وضع الشظية قرب شفتي العجوز الخاليتين من الدم، وتركتها قرابة دقيقة . لم تلبث المرآة أن تعرّقت قليلا.

فتنهدت بارتياح:

– انها حية. أمنا لا تزال على قيد الحياة .

وعادت بربارة إلى البكاء، كأن ما سمعته ليس هو المطلوب. وبدورها ذرفت لوسيا دمعة، ثم تراجعت . أما المرآة فقد وصلت إلى نينكا، التي راحت تنفخ عليها، وتتفحصها لترى ماذا سيجري بعد ذلك، ولما لم تر في ذلك أية متعة، فقد انتهزت الفرصة السانحة ودست المرآة قرب فم العجوز، كما فعلت لوسيا للتو. وما إن رآها ميخائيل،حتى

صفعها على مرأى من الجميع وطردها من الغرفة. طغى شهيق نينكا على بكاء بربارة فاضطرت إلى التوقف، وتنهدت بحسرة :

– آخ يا ماتوشكا، ماتوشكا.

وسألت ناديا إلى أين تجلب الطعام، إلى هنا، إلى الغرفة أم إلى المطبخ، واتفقوا على انه من الأفضل جلبه إلى المطبخ، كي لا يزعجوا أمهم. أحضر ميخائيل زجاجة فودكا وزجاجة بورتو، فصب الفودكا لنفسه ولإيليا، أما البورتو فلأخته وزوجته، ثم قال:

– لن تأتي تاتيانتنا اليوم، لن ننتظرها.

ووافق ايليا :

– لم تعد ثمة واسطة نقل لهذا اليوم – أجل . إذا كانت قد استلمت البرقية البارحة، اليوم تركب الطائرة. وبالمدينة تأخذ واسطة نقل أخرى، وربما تكون في الناحية الآن بانتظار سيارة تقلها إلى هنا، لكن السيارات لا تسير ليلا. أجل.

– وربما تكون في المدينة .

– غدا ستصل

– غدا من كل بد.

– إذا ما وصلت غداً ستدرك أمها.

وبصفته رب الدار، فقد كان ميخائيل أول من رفع الكأس:

دعونا نشرب نخب اللقاء.

وسألت بربارة بوجل:

– وهل يجوز قرع الكؤوس[1] ؟

---

[1] في التقليد الروسي لا يجوز قرع الكؤوس في المآتم . (الهوامش بقلم المترجم.)

– يجوز، يجوز، فنحن لسنا في حفل تأبين.

– لا تقل هذا.

– سيان الآن أن أقول أو لا أقول..

وفجأة قالت لوسيا بنوع من الأسى والانفعال :

– منذ عهد بعيد لم نجلس معا على هذا النحو . لكن تاتيانا غير موجودة . وحين تأتي سيبدو كأن أحدا منا لم يسافر. ففي الماضي كنا نجتمع أمام هذه المائدة دائما، ولم نكن نجهز المائدة في الغرفة إلا للضيوف، حتى إنني أجلس في المكان المخصص لي. أما بربارة فليست في مكانها، وكذلك أنت يا إيليا.

فرد ميخائيل بأسى:

– لم يسافر أحد – ما هذا الكلام ! لقد سافرتم وكفى. وحدها بربارة تظل في موسم البطاطا، أو إذا ما احتاجت إلى شيء آخر. أما أنتم، كأنكم لستم في هذه الدنيا.

– ان بربارة في الجوار.

وعلقت بربارة بلهجة لاذعة :

– أما انتم فكان عليكم القدوم من موسكو بالذات ، يكفي يوم واحد حتى تصلوا بالباخرة إلى هنا، على الأقل لو أنكم لم تتكلموا على هذا النحو، مادمتم لا تعترفون بنا أقرباء لكم. لقد أصبحتم مدنيين، وتترفعون عن معاشرة أبناء القرية.

فردت لوسيا بصوت مضطرب :

– ليس لك أي حق في أن تتكلمي على هذا النحو يا بربارة . فما دخل فما دخل أبناء المدينة والقرية هنا ؟ هلا فكرت في ما تقولين؟ .

– أجل، ليس لبربارة الحق، بربارة ليست بشرا، فما الداعي للحديث معها؟ انها لا شيء . ليست أختا لأختيها وأخويها، وإذا ما سألناك:

منذ متى لم تأت إلى هذا البيت؟ بربارة ليست إنسانا، لكن بربارة تزور أمنا، تتردد عليها عدة مرات في السنة، رغم أن أسرة بربارة أكبر من أسرتك. والآن أصبحت بربارة مذنبة. فقال ميخائيل مؤيدا بربارة:

– فعلاً، لم تأت منذ عهد بعيد . لقد جاءت قبل أن نُرزَق بنينكا . أما إيليا فكانت آخر زيارة له حين انتقل من الشمال.

كان ذلك عند فطام نينكا. ألا تذكر كيف كنا ندهن الحلمتين بالخردل. فرحت تضحك؟

كان إيليا يذكر ذلك، فهز برأسه موافقا.

فردت لوسيا بزعل:

– لم أستطع، فلم آت.

ولم تصدق بربارة :

– لو أردت إذن لاستطعت.

– ماذا تعنين بقولك – إذن لاستطعت، إذا كنت أقول إنني لم أستطع؟ إن صحتي ليست على ما يرام، وان لم أتعالج خلال الإجازة فسوف أمضي العام كله بالتنقل بين المستشفيات.

– إن جعبة المهذار لا تخلو من الأعذار.

– ما دخل المهذار والأعذار هنا؟

– لا دخل لها. لا يجوز أن أقول لك كلمة واحدة . فقد أصبحت مهمة.

وقال ميخائيل:

– كفاكما. دعونا نشرب كأسا أخرى، فلماذا نتركها تحمّض؟

فبادرته بربارة قائلة:

– ربما يكفي. لاهم لكم انتم معشر الرجال إلا السكر. أمنا تحتضر، وهما ينغمسان في اللذات . ثم إياكما وترديد الأغاني .

– لا أحد ينوي ترديد الأغاني. لكن الشرب مسموح، فنحن لسنا صغيرين، نعرف بأنفسنا متى يكون مسموحا، ومتى يكون ممنوعا.

– أوي، من الأفضل أن انفض يدي.

على هذا النحو كانوا جالسين، يتحدثون حول الطاولة الخشبية، التي ركبها المرحوم والدهم منذ حوالي خمسين عاما. ولم يعودوا، بعد أن عاشوا منفصلين، يشبهون بعضهم البعض. فإذا ما نظرت إلى بربارة ، ترى شكلها يوحي أنها تصلح لهم كأم، وعلى الرغم من أنها لم تدخل العقد السادس إلا العام الفائت، فإنها كانت تبدو أسوأ من ذلك بكثير، إذ كانت أشبه بالعجوز، وخلافا لأي من ذويها كانت بدينة وبطيئة. لكنها ورثت عن أمها شيئا واحدا: أنجبت الكثيرين، الواحد تلو الآخر، ولحسن الحظ كانوا، في الفترة التي بدأت فيها الإنجاب قد تعلموا حماية الصغار من الموت، كما لم تكن ثمة حرب بالنسبة لهم، ولذا فقد بقوا جميعا سليمين معافين، وإن كان أحدهم نزيل السجن. لكن بربارة لم تر في أولادها إلا القليل من السعادة: كانت تتعذب معهم، ولم تكف عن مشاجرتهم حين كانوا يترعرعون، وهاهي تتعذب الآن ولا تكف عن الشجار معهم، بعد أن شبوا. وهكذا شاخت بسببهم قبل الأوان.

وعلى رأس بربارة، جاء إيليا، ثم لوسيا، فميخائيل، وكانت الأخيرة تاتيانا، تلك التي ينتظرون وصولها من كييف.

قبل الجيش كان ايليا يلقب، بسبب قصر قامته، بإيليا القصير، وعلى الرغم من انه لم يكن ثمة في القرية ايليا الطويل، فقد ظل هذا اللقب ملتصقا به. ولما كان قد أمضى زهاء عشر سنوات في الشمال؛ فان شعره تساقط بكثافة، وتعرى رأسه، فأصبح كالبيضة، وفي الطقس الصحو تراه يلمع كالمقشور. وهناك، في الشمال، تزوج، لكن زواجه لم يكن موفقا تماما،

وغير قابل للإصلاح: وقع اختياره على زوجة عالية، من حيث طول القامة. وبعد أن عاشا بعض الوقت، أصبحت أسمن منه بمرة ونصف، مما زادها جسارة – فالإشاعات بأنها تسوم إيليا ألوان العذاب، وصلت حتى القرية.

وبدورها كانت ليوسا قد تجاوزت الأربعين، لكن يستحيل أن تعطيها هذا العمر، إذ تبدو نضرة بشكل غير مألوف فهي ذات وجه نقي وناعم كما في الصورة، ثم إنها ذواقة في اختيار لباسها. كانت ليوسا قد غادرت القرية حين وضعت الحرب أوزارها، ومن البديهي أنها تعلمت من سكان المدينة، خلال كل هذه السنوات، كيف تعتني بمظهرها، ثم أية هموم لديها، ما دامت بدون أولاد؟ إن الله لم يرزق ليوسا أطفالا.

أما ميخائيل فكان، على خلاف ايليا، ذا شعر كثيف ومجعد، كأنه غجري، وحتى لحيته كانت تتجعد وترتصف على شكل دوائر صغيرة . وكان ذا وجه اسود أيضاً، لكن هذا السواد كان بسبب الشمس والصقيع – فهو يقضي الصيف في التحميل عند النهر، ويقضي الشتاء في تقطيع الأشجار في الغابة – أي انه يقضي العام كله في الهواء الطلق.

على هذا النحو كانوا جالسين يتسامرون حول طاولة المطبخ الطويلة، لكي لا يزعجوا والدتهم المحتضرة، والتي من أجلها اجتمعوا لأول مرة، منذ سنوات طويلة في بيتهم، مسقط رأسهم. لم يكن ينقصهم سوى تاتيانا. كان لدى ميخائيل وايليا ما يمكن أن يشرب. وكان النسوة قد أبعدن كؤوسهن، لكنهن لم ينهضن، بل بقين جالسات، وقد استرخين بتأثير اللقاء والحديث، وكل ما صادفهن في ذلك اليوم، وهن في خشية مما سيصادفهن غدا.

وقال ميخائيل:

– كان يجب أن أرسل برقية لفولودكا حالا، ولو فعلت لكان يجلس الآن معنا. بودي أن أراه كيف أصبح.

– أين هو؟ – سأل ايليا.

– في الجيش. عما قريب سيكمل العامين. وكان قد وعد بزيارتنا في الصيف، لكن يبدو انه عوقب، وحرم من الإجازة. إذ كتب يقول إن أحد أفراد جماعته غادر مركز الحراسة، فعوقب هو باعتباره قائد المجموعة . وربما يكون هو نفسه قد ارتكب شيئا ما، فهذا ليس بالنادر هناك. ما رأيك هل يسمحون له بالقدوم لوداع جدته؟

ـ يجب أن يسمحوا له.

– كان عليّ أن أرسلها البارحة. يالي من غبي. لم أعرف كيف أكتب لكي يسمحوا له، فهو على كل حال حفيدها، وليس ابنها.

نصحته بربارة:

– لو انك كتبت له ما يلي: جدتك سيئة، تعال حالا.

توترت ناديا بكل كيانها من السعادة، التي لم تكتمل، في أن ترى ابنها الآن أمامها.

– لقد قلت له ذلك، لكن هل يصغي لكلامي؟

– هلا تريثتم قليلا– قالت ليوسا.

– التريث أفضل، أجل، وإلا أفسدنا كل شيء. فيما بعد نكتب كل شيء: كيت وكيت. لابد أن يسمحوا له بحضور الجنازة.

وتأوهت بربارة:

– آه يا حسرة، لم يكن هذا يخطر لنا ببال. ليس لنا جميعا سوى أم واحدة . وهاكم.

وعلق إيليا ساخرا: – وكم واحدة تريدين؟

غضبت بربارة:

- كأنك لست لي بقريب. لا تكف عن مضايقتي، وكل همك أن تجعلني أبدو حمقاء، لكنني لست أحمق منك. فالأفضل لك أن لا تضايقني.

- لست أعتقد انك حمقاء فلماذا هذا التوبيخ ؟

- أجل ، لا تعتقد.

وسألت ليوسا ناديا بصوت منخفض:

- هل لديكم ماكينة خياطة؟

- أجل لكنني لا أعرف ان كانت تعمل، أم لا، فمنذ عهد بعيد لم أفتحها.

وأوضحت ليوسا:

- اليوم رحت انظر، وللنكاية لم أجد لدي أي فستان أسود، فهرعت إلى المخزن، واشتريت قطعة قماش، لكن لم يكن ثمة وقت بالطبع للخياطة، وقد فصلته، وسأخيطه هنا.

- لن تنهيه اليوم.

- سأنهيه، فأنا سريعة في الخياطة. فيما بعد، وحين يرقد الجميع، سأجلس هنا في المطبخ.

- حسنا ، وسوف آتي بها، وترين.

قبيل الذهاب للنوم، التموا من جديد قرب سرير الأم، لكي يعرفوا مع أي خبر ينامون. حاولت ليوسا العثورعلى النبض، وبعد لأي استطاعت تلمسه - كان بالكاد ينبض. لكن ميخائيل لم يتمالك نفسه، فهز أمه من كتفها، وحينذاك سمعوا فجأة كيف تناهى من مكان ما من الداخل أنين، وما هو بالأنين، شخير، وما هو بالشخير، كأنه ليس صوت أمهم أبدا، فهو غريب. كان الموت، المشغول بعمله، يعرب عن تذمره، وشعر الجميع بالرهبة من هذا الصوت، حتى نينكا استكانت قرب ناديا.

- حبذا لو تعيش حتى حلول النهار - نشجت بربارة، ثم لاذت بالصمت.

بدأوا يستعدون للنوم. كانت العزبة كبيرة لكنها مقسومة، على الطريقة القروية إلى نصفين فقط: العجوز تنام في نصف بينما تنام أسرة ميخائيل في النصف الآخر.

فرشت ناديا لنفسها ولزوجها على الأرض، وأعطت السرير لليوسا. وعثروا لبربارة على سرير نقال، وضعوه في جناح العجوز، لكي تسهر على أمها. وهمّوا بأن يفرشوا لإيليا على الأرض هناك، لكن إيليا فضل النوم في الحمام. كان الحمام لدى ميخائيل نظيفا خاليا من السخام ومن رائحة العفونة، ومستقلا عن العزبة. أعطي ايليا معطف فرو وصدرية ليفرشها تحته، ولحافا قطنيا، ثم انصرف بعد أن طلب إيقاظه في حال حدوث شيء.

أطفأوا الكهرباء لدى العجوز، وأشعلوا المصباح. وكانوا قد قرروا ترك الضوء طول الليل، بعد أن خفضوا الفتيلة.

جلبت ناديا ماكينة الخياطة، ووضعتها على الطاولة نفسها، التي كانوا يجلسون إليها. جربتها ليوسا في البداية على قطعة قماش، فوجدتها تخيط بشكل جيد.

وقالت ليوسا لناديا:

- هيا نامي، مادام ذلك ممكنا، فلا أحد يعرف كيف ستكون هذه الليلة.

انصرفت ناديا. وسألها ميخائيل عن شيء ما، فردت عليه، كل ذلك همسا. طقطقت الماكينة، فارتعبت ليوسا نفسها، وأنزلت الذراع، إذا بدت لها الطقطقة قوية، كما إطلاق النار، وهرولت ببارة، وقد أصابها الهلع، لمعرفة جلية الأمر. لكنها هدأت قليلا، ما أن رأت ليوسا:

- الحمد لك يا رب! لقد تساءلت عما يكون هذا واقشعر بدني كله. أولا يمكن تأجيل ذلك؟

لم تحر ليوسا جوابا، بل تابعت الخياطة.

- هل تجهزين السواد للدفن؟

- إنني لا أفهم : أيعقل انه لابد من السؤال عن ذلك؟

- وأي ضير فيما قلته؟

- لاشيء

- خيطي، فأنا لن أقول لك شيئا. لسوف أجلس جنبك قليلا. ثم انصرف ولن أضايقك.

قربت بربارة كرسيا لا مسند له، وجلست على الطرف. لم تخلع ثيابها، بل اكتفت بربارة بفك الجوربين، فكانا يتأرجحان تحت الركبتين، كما الجلد المنزوع.

ومن مكان ما في النهر انطلق صفير باخرة بعيد ومكبوت، ثم تكرر ثانية وثالثة.

رفعت بربارة رأسها، وأصاخت السمع. ثم قطبت من التوتر:

– لماذا تزعق على هذا النحو؟

– لست أدري. إنها تعطي إشارات لأحد ما.

– ألم تجد مكاناً آخر تعطي فيه إشاراتها، فلقد تملكني الذعر.

وبعد أن جلست بربارة بعض الوقت، نهضت على غير رغبة منها:

– إنني ذاهبة. هل ستبقين هنا طويلا؟

– إلى أن أنجزه.

وقالت بربارة، وهي تهز رأسها:

– ما كان يجب أن ننام اليوم، أبداً ما كان يجب. لو أننا بقينا جالسين نتحدث، فذلك أمتع . قلبي يحدثني بالمصيبة.

ثم خرجت ولم تلبث أن عادت، واستندت إلى الجدار، مما أثار هلع ليوسا، فسألت:

– ماذا؟

– إما انه يخيل إلي، وإما انه حقيقة. تعالي انظري. تعالي.

لم تصدق ليوسا. لكنها لم تستطع أن تقول أنها لا تصدق.

فذهبت إلى أمها، وأمسكت يدها، فلم تسمع إلا تنفس بربارة الثقيل والمشوب بالصفير، يأتي من ورائها: إيء، إيء، إي . فاضطرت إلى إبعادها، وحينذاك فقط تناهت إليها ضربات خفيفة جدا، وشاردة، كأنها تبعد الكثير– الكثير من الكيلو مترات. وبدا لها أن هذه الضربات أصبحت أضعف من المرة السابقة، وأنها متقطعة، وليست منتظمة .

وقالت ليوسا. مشفقة على أختها:

– هلا آويت إلى فراشك. دعي الأمر لي، وأنا أخيط. سأوقظك إذا ما حدث شيء.

فتذمرت بربارة كأنها طفلة:

– وهل يمكن أن يجيئني النوم؟ يالَ إيليا من ماكر، فقد غادر العزبة، وتركنا. يصعب أن يأتيني النوم الآن؟ لسوف أكون نهبا للأفكار. من الأفضل أن أجلس قربك.

– اجلسي، إذا كنت تريدين.

– لن أحرك ساكنا.

ومن جديد جلست بالقرب منها، وراحت تراقب كيف تخيط ليوسا، وهي لا تكف عن إطلاق التنهدات، ثم لمست القماش، وسألت:

– هل ستأخذين هذا الفستان معك فيما بعد؟

– ولماذا تسألين؟

- أقصد أنني قد آخذه، إذا لم تأخذيه معك.

- وما حاجتك إليه؟ فهو ضيق عليك.

- ليس لي، إنما لبُنيّتي التي أصبحت بطولك. ولسوف يناسبها تماما.

- أوليس لدى بنيتك ما ترتديه؟

- يمكن القول انه لا شيء ترتديه. إن لديها فساتين، لكنها كلها رثة. والبُنيّة، كما هو معروف، تحب المباهاة.

- وأية مباهاة في الثوب الأسود؟

- إن ابنتي ليست أنيقة، سوف ترتديه حين تخرج في المطر، حيث لا يمكن ارتداء الفستان الملون.

- حسناً، سوف أعطيك إياه عندما أسافر.

ابتهجت بربارة، وقالت:

- سأقول لها: انه من خالتك.

- قولي لها ما يحلو لك.

حين لاذتا بالصمت، وأوقفت ليوسا المكنة، تناهى من جناح ميخائيل شخير أحدهم، فأرهفت بربارة السمع:

- من يمكن أن يكون؟

وحين ازداد الشخير قوة قالت بغضب:

- يا له من عديم الضمير، وجد الوقت المناسب. فعلا إن الناس بدون حياء وضمير، ويعتبر ابنها.

وبعد أن صمتت قليلا، طلبت من ليوسا فجأة:

- دعينا نذهب فنلقي نظرة أخرى على العجوز. أخاف أن أذهب وحدي.

كانت العجوز لا تزال على حالها: حية وما هي بالحية . كان كل شيء فيها قد مات. وحده قلبها، الذي أكسبته الحياة الطويلة سرعة الحركة، ظل يختلج. ومع هذا كان واضحاً ؛ انه لن يبقى صامدا إلا أقل من القليل . ربما حتى الصباح.

مادامت ليوسا تخيط لن تستطيع بربارة أن تغفو. ثم إن ليوسا اضطرت فيما بعد لان تتنازل عن سريرها، وان تنام في السرير النقال، وإلا لما تركتها بربارة تغفو.

- ٢ -

انبلج الفجر، وبدأ النور يغمر كل شيء، لكن قبل أن تشرق الشمس، اندفع من صوب النهر ضباب كثيف وحالك. إلى درجة أن كل شيء غرق فيه وضاع. وامتلأت القرية بخوار الأبقار وصياح الديكة، وتنامت أصوات الناس، القصيرة والخافتة، كأنها سمك يتخبط في الماء. كل شيء ملفع بضباب أبيض كثيف وندي لا ترى فيه إلا نفسك. فحتى بدون ذلك كان الفجر يتأخر في هذا الوقت، وكانت ثالثة الأثافي في هذا الضباب، انه سرق الصباح، وأرغم الناس على تلمس طريقهم.

كانت ناديا أول من نهض في عزبة العجوز. وحتى عهد قريب كانت حماتها توقظها باستمرار، ما إن تسمع خوار البقرة. ولم تكن ناديا، حتى ولو كانت غير نائمة، تبدأ صباحها إلا بعد أن تناديها العجوزمن سريرها. وهي اليوم أيضاً لم تنهض حالا، بل راحت، على عادتها، تنتظر صوت العجوز، وان كانت تعرف أنها لن تسمعه. صحيح أنها لم تسمعه، لكن البقرة غيرالمحلوبة لم تكف عن الخوارالمزعج، مما اضطر ناديا إلى النهوض. وراحت ناديا التي لاتكف عن التفكير بالعجوز، وتخشى ان تعرف ان كانت ماتت أم لم تمت، ترتدي ثيابها دون أن تصدر أي صوت، ثم تسللت من العزبة، وتناولت، لحلب البقرة، المحلاب المعلق بمسمار في المدخل.

وفي أعقابها نهضت بربارة، التي اعتادت النهوض باكراً. وقد اكتشفت غياب ناديا. ورأت أن الجميع مازالوا نياما، فتأوهت ما يقرب من خمس مرات على التوالي بصوت ثقيل ومسموع، مختتمة تأوهاتها بأنين ممطوط، بقصد إيقاظ ميخائيل النائم على الأرض. لكنه لم يستيقظ بل حتى لم

يتحرك. وحينذاك تأوهت بربارة لنفسها، من غير أن تنتبه لذلك . وبـدأت تشعر بالخوف في هذا البيت، حيث يبدو جميع الأحياء وكأنهم مسحورون بالنوم. وخوفاً من أن يكتشف أحد أمرها توجهت بهدوء وحذر إلى الجنـاح الثاني، حيث ترقد العجوز، ثم توقفت بالباب. لم يكن ثمة في العزبة بـاب آخر، باستثناء باب المدخل، بل كانت ثمة فتحة للباب، وفيها توقفت بربارة. وراحت تتفحص الغرفة شبه المعتمة . لم تر وجه العجوز، المختبئ خلف ظهر السرير، لكن كان ثمة شيئ ما – حي أو ميت – تحت اللحاف، ولم تجرؤ على التقدم لإلقاء نظرة، فتراجعت، وقد خطر لها أن عليها أن تذهب أولا إلى الفناء لكي لا تضطر إلى ذلك لاحقا، حين سيكون الوقـت غيـر مناسب.

عادت بربارة ونادیا من الخارج سوية. وبينما راحـت ناديـا تـصفي الحليب من خلال قطعة الشاش، كانت بربارة لا تفارقها، تدور من حولها، تارة من هنا، وأخرى من هناك. وكانت ماكينة الخياطة، التي تركتها ليوسا، لا تزال في مكانها على الطاولة. وسألت ناديا همسا:

– هل خاطت البارحة ؟

وردت بربارة بهمس أيضاً:

– نعم. لم يبق إلا القليل – ثم توسلت، وقد نفذ صـبرها – تعـالي نوقظها، فلم أعد احتمل.

– حسنا، سأخرج الحليب.

وكما لو أنها مربوطة بها، اقتفت بربارة أثر ناديا إلى المـدخل، ثـم تبعتها مرة أخرى، لأن علبة أخرى بقيت، ولم يخطر ببال بربارة أن تأخذها معها، فراحت تغدو جيئة وذهابا وهي تلوح بيديها.

أنهت ناديا أشغالها، وبعد أن نشفت يديها بخرقة، سبقت بربـارة فـي الدخول إلى جناح العجوز.

كانت ليوسا نائمة، وكان جلياً أنها نائمة، وهذا ما لم يكن بمقدور أحد أن يقوله عن العجوز . ألقت ناديا نظرة على حماتها، ثم حولت عينيها على

عجل، أما بربارة فقد خافت حتى مـن إلقـاء نظـرة. وراحـت تجـذب ليوسا.استيقظت ليوسا فورا. وقفزت على عجل، وسألت:

– ماذا ؟ ماذا؟

– استعدت بربارة للبكاء:

لست أدري . أنالا أعرف . هلا ألقيت نظرة.

– وراحت ليوسا، وهي تنفض عنها آثار النوم، تمسد شعرها بيديها، ثم لبست الروب، الملقى على الكرسي القريب، واقتربت من أمها. ولما كانت قد تعلمت طريقة اكتشاف معالم الحياة، فقد رفعت يد العجوز، ثم ألقت بهـا في الحال، وتراجعت ؛ وفجأة أصدرت العجوز انينا خافتا ومتوجعا، ثم همدت من جديد. وولولت بربارة:

– آخ يا ماتوشكا، يا ماتوشكا. هلا فتحت عينيك!.

– واندفع ميخائيل في لباسه الداخلي، ولما كان شبه نائم فإنه لم يفهم ما حدث:

– هل انتهى عذابها ؟ أوخ يا أمي... يجب أن أدق برقية لفولودكا.

وأوقفته ناديا:

– ماذا فعلت؟ لماذا أنت بهذا المظهر؟

وبعد أن جست نبض أمها، قالت ليوسا بارتياح:

– حية.

– حية؟ سأل ميخائيل، ثم التفت إلى بربارة، وزعق بها:

– إذن أية كوليرا تعوي هنا، كأنك تندبين ميتا؟ اخرجي مـن البيـت، وإلا أيقظتِ نينكا بأسطوانتك هذه.

طالبتهم ليوسا:

– لا ترفعوا أصواتكم. اخرجوا من هنا جميعا.

وقبل الغداء، وبينما كانت ناديا تقلي البطاطا، جلست ليوسا تخيط عُرى الثوب الجديد، وتركب الأزرار، التي جلبتها معها من المدينة أيضاً.

وذهبت بربارة دامعة العينين إلى الحمام، ثم راحت تهز إيليا:

– والدتنا حية. إنها حية.

فقال متذمرا:

– مادامت حية، فلماذا توقظينني؟

– أردت أن أخبرك، كي أفرحك.

– لو تركتني أشبع نوما، ثم تخبرينني، كان افضل من إيقاظي في مثل هذا الوقت المبكر.

– ليس مبكرا أبداً. انه الضباب.

استمر الضباب طويلا، حتى الساعة الحادية عشرة، إلى أن ظهرت قوة معينة، فرفعته عاليا. وعلى الفور ضربت الشمس قوية، ساطعة كما في عز الصيف، فامتلأ المكان بالمرح. كان شهر أيلول قد بدأ، لكن الخريف تأخر، حتى أوراق البطاطا في الحواكير كانت ما تزال خضراء، وفي النهاية، في بعض الأماكن فقط، كانت ترى بقع بنية، كأن الشمس لفحتها في يوم حار.

في السنوات الأخيرة بدا وكان الصيف والخريف تبادلا مكانيهما: ففي حزيران وتموز هطل المطر مدرارا، ومن ثم، وحتى عيد الشفاعة يستمر الدلو الأحمر[1]، وهذا شيء جيد، لكنه سيئ لأنه ليس في أوانه إذ يختلط الحابل بالنابل بالنسبة للنساء، فهن لا يعرفن متى يجب قلع البطاطا: فحسب المواعيد القديمة حان وقت قلعها، ومع هذا فمن الأنسب تركها تنضج، مادام الطقس ملائما، فهي ما كانت لتنضج في الصيف، لأنها كانت تسبح في الماء كما السمك. ولكن إذا ما انتظرن فربما عاد الطقس وساء فجأة،

---

[1] أحد الأعياد الهامة عند الروم الأرثوذكس . ويصادف ١٤ تشرين الأول . المقصود بالدلو هنا قرص الشمس.

حينذاك جرب أن تقتلعها من الوحل. جرب أن تحزر، لكن أحدا لا يعرف أين يجني وأين يخسر. والشيء نفسه عن حصاد العشب. أحدهم حصد العشب حسب المواعيد القديمة فتعفن تحت المطر. وآخر أمضى الوقت في السكر، ولم يحصد، فكان ذلك من حسن حظه. حتى الطقس أصيب بالبلبلة، كما العجوز، التي أصابها الخرف، ولم يعد يعرف أي فصل يأتي في أعقاب الآخر. ويقول الناس أن ذلك ناجم عن كثرة البحيراة، التي أقيمت على كل نهر تقريبا.

من أجل الفطور قلّت ناديا البطاطا الطازجة، المقتلعة توّا ووضعت إلى جانبها في صحن عميق الريجيك المملح[1]. الذي ما إن رآته ليوسا حتى شهقت:

– ريجيك! ريجيك حقيقي! لقد نسيت أنه لا يزال على قيد الحياة، فمنذ مئة عام لم أتناوله.أكاد لا أصدق .

وتلمظ إيليا:

– ريجيك، يا سلام! انه شيء ولا كل الأشياء. ولو أضفنا إلى الريجيك شيئا ما – أووُه يا سلام!

وقال ميخائيل معاتبا ناديا:

– لو قدّمته البارحة، مع المشروب لكان زيتا على زيتون، أما على هذا النحو، فانه يُهدر بلا فائدة.

وأوضحت ناديا، وقد احمر وجهها، وسُرّت لأنها أرضت ضيوفها:

- خطر لي البارحة أن أقدمه، لكنني اعتقدت انه لم يتملح بما فيه الكفاية، فأنا لم أملحه إلا منذ فترة قصيرة. واليوم تذوقته، فوجدته مناسباً، وهكذا خطر لي أن أقدمه لعله ينال إعجاب أحد. كلوا مادام يعجبكم.

– وهل بقي عندك؟

---

[1] الريجيك : نوع من الفطر .

- بقي القليل. فجمعه ليس بالأمر السهل، ثم انه ليس عندي من يقوم بذلك. أرى الناس يجمعونه، كل يوم أما أنا فغارقة في شغل البيت تارة هذا ، وتارة ذاك . وفي هذا الصيف لم أتمكن من الذهاب سوى مرتين، ولم أبتعد كثيرا.

وتذكرت ليوسا:

- في الماضي كانت تاتيانا تحب جمع الريجيك. كانت تعرف كل الأماكن. وقد حدث أن ذهبت معها ذات مرة، وكانت ما تزال صغيرة، وقبل أن يرتد إليّ طرفي، كانت قد جمعت نصف دلو . وسألتها : "من أين أخذت كل هذا؟

- "من هنا".

وقلت لها:

- "لابد انك قمت بجمعها من قبل، ثم خبأتها في مكان ما، لكي تظهري مهارتك".فغضبت، وابتعدت عني. وهكذا عدنا إلى البيت منفردين، وبينما كان دلوها طافحاً، لم يكن قعر دلوي قد تغطى إلا بالكاد.

وأوضح ميخائيل:

- لم تكن تجمع كل ما هبّ ودب، كانت تترك الفطر الصغير، وحين تأتي في اليوم التالي يكون قد أصبح كبيرا. كانت تذكر كل الأماكن. وكانت تصطحبني معها. فكنت اجمع كل ما أعثر عليه، وكل همي أن أعود إلى البيت بأسرع ما يمكن . أما هي فكانت تغضب مني إذا ما رأتني أقطف الفطر الصغير، حتى إننا تشاجرنا ذات مرة في الغابة. فقد كنت أحب جمع فطر الحور، فجمعه أسرع، لأنه ينمو بكثافة.

وقالت ليوسا ضاحكة:

ـ كان إيليا أفضلنا في جمع الفطر. يعبئ الدلو بالعشب، ثم يضع في أعلاه عدة فطور، فيبدو الدلو وكأنه طافح.

واعترف إيليا بارتياح:

- صحيح.

- ألا تذكرون كيف كانت أمنا ترسلنا إلى ما وراء النهر العلوي من أجل قلع البصل البري؟ كان ثمة مستنقع. وكان البصل ينمو على النتوآت. وكنا نتبلل ونتوحل قبل أن نقلع ما نريد فيبدو منظرنا مضحكا. كنا نضع الأكياس في مكان جاف، ونروح نقفز من نتوء إلى نتوء. حتى إننا كنا نتسابق، من يجمع كمية أكبر، لا بل كنا نسرق من بعضنا. ومن أجل الثوم كنا نسبح إلى الجزيرة، الواقعة هناك أيضاً، مقابل النهر العلوي...

وذكره ميخائيل:

- إلى غابة الشوح.

- نعم إلى غابة الشوح. وهناك، في التعاونية شاركنا في الحصاد. كانت القرية كلها تنتقل إلى هناك عند موسم حصاد الحشائش . ومازلت أذكر كيف كنت أجذف : فالجو حار والعناكب لا تكف عن اللدغ، ويتسلل التبن إلى الشعر وإلى ما تحت اللباس...

ودمدمت بربارة:

- الأرجح أنها ذباب وليست عناكب. فالعناكب تنسج شباكها في الزوايا، ولا تلدغ.

- ربما كانت ذبابا. ان لها على كل حال اسما آخر. إننا هنا نسميها هكذا. ومن أجل ماشيتنا حصدنا في جزيرة أخرى... لحظة وأتذكر إسمها، إسمها مرتبط بالأشجار أيضاً.

- غابة الأشجار الوارقة.

- نعم، غابة الأشجار الوارقة، وكم كان عنب الثعلب كثيرا هناك - كانت الأغصان ترقد على الأرض من كثرة ما عليها من الثمار. تأكل وتأكل حتى تشعر بالألم في لسانك وأسنانك. يا لها من ثمار كبيرة ولذيذة . إن هي إلا ساعة ويمتلئ الدلو. لابد أنها مازالت موجودة هناك بوفرة.

ولوحت ناديا بيدها:

– كلا انك على خطأ، إذ حتى تلك الشجيرات لم تعد موجودة . فمع ظهور مُنشأة قطع الأشجار قُضيَ على كل شيء، يمكنك فقط أن تجد بعض الثمار لتأكلها– ومع ذلك فان عليك أن تفتش وتفتش.

– يا له من شيء مؤسف!

– والثمار الزرقاء كم كانت كثيرة على البرج. لكنها لم تعد موجودة هي الأخرى. فقد داستها المواشي، ثم إن الناس لا يرحمون أبداً.

– ولماذا يتصرفون على هذا النحو؟

– ومن يعرف ! يأخذون كل ما يقع تحت أيديهم، كأنها المرة الأخيرة، مع الأغصان والأوراق.

– وماذا عن الريجيك، هل هو موجود، كما تقولون؟

– الريجيك موجود هذا العام، فالناس يأتون به.

– لابد من الذهاب لجمع الريجيك .

فغمزت بربارة من قناتها:

ـ كان يمكن القدوم إلى هنا والذهاب لجمع الريجيك، بدون برقية.

أثار هذا الكلام استياء ليوسا:

ـ لم يعد بالإمكان الحديث معك أبداً يا بربارة. كل ما يقال غير مناسب، غير مناسب، كل شيء لا يعجبك. إن كونك أكبرنا لا يخولك أن تعلقي بهذا الشكل على كل كلمة نقولها. ولا تنسي من فضلك أننا بدورنا راشدون بما فيه الكفاية، ولاشك أننا ندرك ماذا نفعل، فأي شيء هذا في نهاية الأمر ؟

ـ لم يقل أحد شيئا. ولا أعرف لماذا استشَطْتِ غضبا علي.

ـــ وتقولين أيضاً إنني استشطت غضبا!

ـــ ومن إذن، أهي أنا؟

وطلبت ناديا:

ـــ هلا أكلتم. وإلا ستبرد البطاطا تماما، وهي ليست طيبة حين تكون باردة . ثم انكم أطريتم الريجيك كثيرا، لكنكم لا تأكلونه. كلوا كل شـــيء. سيكون عليكم الانتظار حتى الغداء.

ـــ سنجتمع عند وصول تاتيانا.

- أجل، لابد أن تصل عند الغداء.

- إذا ما جاءت من الناحية فيمكن أن تصل قبل ذلك.

وراحت بربارة تشكو مسبقا:

- من المحتمل أنها باتت ليلتها في نزل، أو لدى أناس غربـــاء، ولـــم تأت إلينا، فهي من مرتبة أخرى.

وقال ميخائيل:

- أبداً، لسوف تأتي تاتيانا من كل بد. فهي بسيطة .

وأصرت بربارة على رأيها:

- كانت بسيطة، أما الآن فيجب أن نرى كيف أصبحت، فقد مـــضى على غيابها عن البيت وقت طويل.

- انها أبعد من الجميع، ولا يمكن أن تأتي من هناك باستمرار.

- ومن الذي أوعز لها بالسفر إلى هناك؟ وإذا كانت حاجتها إلى عسكري لا مناص منها فالعسكر في كل مكان، وكان بوسعها أن تعثر عليه في مكان أقرب، لكنها، اندفعت كما يتيمة كازان، لا تلوي على شيء.

هزت ليوسا رأسها بوهن:

- الأفضل أن لا يدخل أحد في نقاش مع بربارتنا، فهي دائما على صواب.

- انكم لا تحبون أن تقال لكم الحقيقة.

نهضت ليوسا من خلف المائدة، وقالت:
- شكرا يا ناديا. لقد أكلت الريجيك بمنتهى اللذة.

ـ لكنك لم تأكلي منه إلا القليل، لم تأكلي ما يستحق الشكر.

كلا، هذا ليس بالقليل بالنسبة لي. ان معدتي لم تعد تألف مثل هذا الطعام، ولذا أخاف أن أثقل عليها فورا.

وقالت بربارة بلهجة المصالحة :

- ان الريجيك لا يسبب الإسهال، وهو لا يضر بالكرش. إنني أعرف ذلك بالتجربة، وكذلك أولادي فان الفطر لم يكن يدفعهم للجري[1].

لم تفهم بربارة السبب الذي جعل ليوسا تتأفف وتخرج، فسألت أخويها:

---

[1] تقصد الجري للحمام، بسبب الإسهال .

- ماذا جرى لها؟

- ومن يعرف.

- يبدو أنه ينبغي ألاّ يقول المرء شيئا.

ونصحها إيليا ساخراً:

- تكلمي معها على طريقة أبناء المدينة، وبأسلوب المثقفين، وليس على هذا النحو.

- لست أتقن طريقة أبناء المدينة، فعلى مدى حياتي ذهبت إلى هناك مرة واحدة. لكنها هي من القرية خرجت، وكان بوسعها أن تحدثني على طريقة أبناء القرية.

- ربما نسيَتْ.

- هي نسيت، أما أنا فلم أتعلم، فماذا نفعل الآن؟ هل أصبح الكلام محظورا؟

بعد الفطور جلس ميخائيل وإيليا على الطنف يدخنان. كان النهار يزداد صحوا وكانت السماء تبتعد مع الضباب أعلى، فأعلى. وفي البقع الزرقاء المتقطعة في البعيد، يقف بصر الإنسان عاجزا، فهو يخشى هذا العمق الجميل، الذي لا قرار له، ويبحث عن شيء أقرب، يمكن أن يحط عليه، ويأخذ قسطا من الراحة. والغابة، التي داعبتها الشمس فشعّت بالخضرة، وازدادت اتساعا في ثلاث جهات عن القرية، تاركة الجهة الرابعة للنهر. وأمام عيني الرجلين كانت الدجاجات تقوقئ في الفناء، وتصفق بأجنحتها بكل همة ونشاط، والفراخ تصوصي وكان الخنزير، المستلقي في الحاكورة، لا يكف عن الزعيق بتأثير الدفء والمتعة .

خرجت نينكا، ولما كان الوسن لا يزال يداعب عينيها، فقد بهرتها الشمس، فغطت عينيها بكفها، ثم راحت تقطب، وحين اعتادت عيناها الضوء، انسلت إلى ما وراء كومة الحطب، وأقعت. ولكن الدجاجة راحت تزعجها، وتحاول أن تأتيها من الخلف. كشت نينكا الدجاجة، وراحت تتحرك من مكانها، فخرجت عن غير قصد، من خلف كومة الحطب، وصاح بها ميخائيل:

- نينكا! سوف تنالين نصيبك. كم مرة قلت لك أن تبتعدي.

اختبأت نينكا، وراحت تبرر فعلتها بزعل:

- الدجاجات ينقرنني.

- سوف أريك

خيم الهدوء على القرية بعد جلبة الصباح؛ فقد غادر من كان عليه الذهاب إلى العمل، وربات البيوت، اللواتي أنهين عملهن مع الماشية، انصرفن الآن إلى تدبير شؤون البيت بهدوء وسكينة، ولم يكن الصغار قد تدافعوا إلى الخارج بعد. فكان كل شيء هادئا، رتيبا، مع بعض الأصوات النادرة المألوفة؛ كأن يصرخ حيوان ما، أو تصر بوابة سياج، أو يتردد صوت بشري، كما لو انه عن غير قصد. لم يكن ذلك نداء ولا رداً، بل لكي لا يبدو كل ما حولك فارغا وميتا، وهذا الهدوء الذي كان يخيم في الفترة الفاصلة بين الصباح والظهيرة، كان يطوع الأصوات والحركات، ويتلاءم مع الدفء الصافي المشع، النازل من السماء المنفتحة، فيسمو بالقرية بهدوء، وبشكل غير مرئي، ويبث فيها الدفء.

وقال ميخائيل متأثرا بالهدوء اللطيف والأخاذ:

– لابد أن أمنا لم تكن سيئة، انظروا أي يوم كان مـــن حظهـــا، ان أمثاله لا تعطى لأي كان.

فرد إيليا:

– أجل لقد استقر الطقس.

– إليك ما علينا أن نفعله. مادامت البيضاء موجـــودة فـــي المخزن، فيجب أن نأخذ حاجتنا، وإلا لن يبقى منها شيئا إذا مـــا جلبوا النقود غدا، فجرب أن تعثر عليها بعد ذلك.

هل تقصد الفودكا؟

– طبعا، البيضاء. أما تلك الحمراء فلا أستـــسيغها، انهـــا عنـــدي، لاشيء، فهذه الكوليرا تجعل الرأس يدور في الصباح، و تبقى النهار كلـــه كالمصاب بالطاعون.

وتشنج ميخائيل حينما تذكر السكر.

– ومع هذا لابد من شرائها للنساء.

– يكفي القليل منها. وما الداعي لكثرتها؟ فالنساء لم يعـــدن يـــشربن الكثير منها، إنهن يفضلن بيضاءنا.

– ألا يطالبن بالمساواة في كل شيء؟

– أجل.

ابتسما بمكر، وقد فهم كل منهما الآخر، لكن لم يكن لديهما وقـــت الآن للحديث الممتع عن المساواة، فتركاه. وسأل إيليا:

ـ كم سنشتري من الفودكا؟

فهز ميخائيل كتفيه:

ـ لا أعلم، لكن لابد من صندوق على الأقل . نصف القرية سيأتي. لا أحد يريد الفضيحة، ثم ان أمنا لم تكن بالبخيلة على ما أظن.

ـ سنأخذ صندوقا، أجل.

– هل تحمل بعض النقود؟

– لدي خمسون روبلا .

– الآن سوف آخذ من ناديا . هذا يكفي.

– وهل سنأخذ من شقيقتينا؟

ـ لا يوجد لدى بربارة ما يؤخذ . يمكن أن أسأل ليوسا، فلديها الكثير من النقود، على الأرجح . دعها تدفع ، فهي ابنتها من لحمها ودمها، وليست بالتبني – فكيف نتجاهلها ؟ انها قد تزعل.

– وهل نذهب الآن فورا؟

- وما الداعي للتأجيل ؟الآن سأجد ناديا، ثم نذهب. يجب أخذها اليوم، وإلا فلن يبقى منها شيء غدا، إذا ما جلبوا الرواتب. إنني أعرف فالحال عندنا هكذا، يكفي أن تتأخر قليلا حتى يفوتك كل شيء، وتجد نفسك مضطرا لشرب الماء. في الظروف العادية يمكن أن يتحمل المرء بالطبع، لكن مادام لدينا مثل هذا الأمر، فلا داعي للفضيحة. يجب أن نودع أمنا بشكل لائق، فهي لم تترك لنا مجالا للشكوى منها.

كان ميخائيل أول من نهض، وأدلى برأيه، دون أن يقطع كلامه.

– دعنا نتصرف على هذا النحو ؛ سأذهب أنا إلى زوجتي، لابد انه بقي عندنا القليل. بينما تذهب أنت إلى أختك، أما أنا فأشعر بالحرج من

الطلب منها، باعتباري رب البيت. ومن ثم إلى هناك. لقد أحسنا، إذ فطنا لذلك، لابد من شرائها، لابد، و الآن لم يعد ثمة داع للانتظار.

لم يلبثا أن ذهبا، وقد استولى عليهما الانفعال، لأنهما في طريقهما لشراء المشروب، بكمية كبيرة، لا يستطيع أحدهما حملها بمفرده. لم يكن المخزن بعيدا، ولما كان الوقت عشية دفع الرواتب، فقد كان المخزن خاليا من الزبن، ولذا فلم يتأخرا هناك، وعادا يحملان صندوقا، ترن الزجاجات فيه، ثم وضعاه في الشونة.

قال ميخائيل:

– هكذا إذن.عندما تكون في مكانها يزداد الشعور بالطمأنينة. دعها هنا، فهي لن تصاب بالكوليرا. أما تلك البورتو، فيمكن أن تشتريها في أي وقت، إذ أنها ليست مرغوبة كثيرا.

وفجأة تردد صراخ نينكا، ففتح ميخائيل الباب وهمّ بالصباح بابنته . لكنه رأى أن النساء الثلاث قد حاصرنها، فأصاخ السمع.

– هي نفسها – قالت نينكا، وهي تمط الكلمات.

هزت ليوسا الصغيرة:

– ماذا هي؟ ماذا؟

– لست أنا- !. هي نفسها....

– ماذا تقصدين ؟ قولي. ألا تحسنين الكلام؟

– هي نفسها فتحت عينيها، ورأتني هي نفسها...

– وإذن ؟

وقلّدت ناديا ابنتها بلهجة ساخرة:

– هي نفسها رأتها. رأيتك أنا، وأنت تدسين يدك في صندوقها. من طلب منك ذلك؟ ماذا نسيت هناك؟

– هي نفسها أشارت لي– صرخت نينكا– لا تقولي، مادمت لم تري.

– لسوف أعلمك كيف تتحدثين مع أمك. يالها من موضة. ممن تعلمت ذلك؟

– مهلا يا ناديا – قاطعتها ليوسا، ثم انحنت على نينكا من جديد – إلى أين أشارت لك؟

– إلى أين.... إلى أين.... إلى تحت السرير.

وأوضحت ناديا:

– انها تحتفظ لها بالسكاكر هناك. في صندوقها.

واستمرت ليوسا في الاستفسار:

– وكيف أشارت لك؟ اخبرينا بالتفصيل. كيف حدث ذلك؟ هيا!

– كنت انظر إليها، أما هي فلم تكن تنظر إلي. ثم فتحت عينيها ونظرت إلي، وأشارت.

– ألم تقل لك شيئا؟

– لم تقل.

وتأوهت بربارة بألم؟

ـ أوي، يا إلهي، ما الذي يجري؟

وقال ميخائيل مدافعا عن نينكا:

ـ إنها إجمالا ليست خبيثة. لم يسبق أن لاحظنا ذلك. ربما تكون أمنا قد استردت وعيها قبيل الموت، وقد صدف أن نينكا كانت بجوارها.

أجبرهم ذكر الموت على التيقظ، والخشوع، حتى انهم راحوا يتنفسون بحذر، كأن الهواء أصبح مسموما بعفونة العالم الآخر الوخازة، التي لا يجوز للأحياء استنشاقها. ومن ثم

تحركوا بهدوء نحو سرير العجـوز، محـاولين أن يكتـشفوا التغيرات عند والدتهم، فلم يكتشفوها : الآن، وبعد أن أصبح الضوء أغنى مما كان عليه في الصباح، بدا وجه العجـوز أكثر موتا، بيد أن قلبهـا مـازال يـضرب، ويحـول دون انفصالها عن البشر.

خرج ميخائيل إلى الفناء، حيث كان إيليا مشغولا كل هذا الوقت في فتّ الخبز للدجاجات، وأخبره:

– تقول نينكا إن والدتنا فتحت عينيها.

– شيء غريب– دهش إيليا، و أضاف، وهو يحـاول إخافـة الـديك بحركة من رجله ــ ماذا جرى لها؟

– لست أدري.

– وهل هي حية أم لا؟

– حية، لقد فحصناها.

بدا النهار وكأنه توخىّ – من أجل العجوز – أن يكون لطيفـا ورقيقـا وحتى، خيمّ بسلاسة فوق القرية، لا بل فوق عزبة العجوز بالذات. وعلـى الرغم من أن الوقت بدأ يقترب من الظهيرة فان النهار لم يصطخب، بـل ظل يتابع مجراه بهدوء وسكينة، ساهراًعلى هدوء وطمأنينـة أحـد مـا. فالسماء انخفضت منذ الصباح قليلا، ثم بدت وكأنها غارقة فـي التفكيـر، وهي تنتظر، والنهارات في أيلول ليست فتية، فقد مر عليها الكثير، منذ أن انصرم الربيع. أما هذا النهار فكان يبدو وكأنه يعرف كل شيء، وانه يريد مد يد العون للعجوز في شيء ما لكي لا تبقى بعد الآن في مكان الحـساب القاسي. وما كان عليه إلا أن يحركها خلسة إلى الأمـام أو الخلـف، وان يدفعها قليلا من المكان، الذي توقفت فيه.

الآن، وبعد أن أحضر ميخائيل وإيليا الفودكا، لم يعودا يعرفـان مـاذا يفعلان، فالباقي كله، بالمقارنة مع هذا، كان يبدو لهما تافها، وكانت الدقائق تمر بطيئة، فتبدو لهما دهورا. لقد تحدثاعن سبب تأخر تاتيانا حتـى الآن،

على الرغم من انه كان لديها من الوقت عشرة أضعاف ما يلزم. وسأل إيليا ميخائيل متى عليه أن يذهب للعمل، فرد ميخائيل بقوله انه أخذ إذنا لهذه الأيام. كانت الكلمات تخرج جوفاء و لا حاجة لها. و لا تندرج في سياق الحديث . كان الأخوان يدركان أن المهم بالنسبة لهما الآن يكمن في الانتظار، لكن حتى الانتظار يمكن أن يكون على أنواع . وشيئا فشيئا بدأ القلق يتملكهما، هل انتظارهما في محله. أولا يضيعان الوقت عبثا. لم يكن التفكير بأمهما المحتضرة يتخلى عنهما، لكنه لم يكن يعذبهما كثيرا ؛ فقد قاما بما يجب عليهما القيام به، أحدهما أرسل الخبرللغائبين. والثاني جاء، ولقد جلبا الفودكا سوية، أما الباقي كله فيتوقف على الأم، أو على أحد آخر، لكن ليس عليهما فلا يمكن في الواقع حفر القبر لإنسان لم يمت. كان العمل موجودا لديهما باستمرار، وفجأة لم يعد موجودا، لأن القيام بعمل جانبي، والمنية توشك أن تنشب أظفارها، لم يكن بالأمر اللائق، والمنية نفسها لا تحرك ساكنا.

وعاد ميخائيل إلى الحديث :

– ومع هذا قل لي، أما كنا نعرف أنها لن تعمر إلى الأبد، وان الأمر وشيك؟ وعلى ما يبدو كان يجب أن نعتاد، ومع هذا فلست على بعضي.

وقال إيليا مؤكدا:

– وكيف لا، فهي أمنا.

– أمنا... هذا صحيح. ليس لدينا أب. والآن ستنتقل أمنا، فنبقى لوحدنا. صحيح أننا لسنا صغارا، لكننا وحيدون. لنقل إن أمنا أصبحت عديمة الفائدة منذ وقت طويل، ومع هذا كنا نعتبر أن الدور الأول سيأتي عليها، ثم يأتي دورنا نحن، كانت وكأنها تشكل حاجزا لحمايتنا، فكان بوسعنا أن نكون قريري العين، أما الآن فلا مناص من التفكير.

– و ما الداعي للتفكير؟ سواء فكرت أم لا...

– صحيح انه لا داعي، لكن ما باليد حيلة. كأنك خرجت إلى مكان مكشوف، حيث تبدو مرئيا – هز ميخائيل برأسه الأجعد. وأضاف بعد

صمت قصير : الشيء نفسه يمكن أن يقال عن أولادنا. فعندما تكون جدتهم على قيد الحياة يبدون وكأنهم صغار. وأنت نفسك تبدو شـــابا، أمـــا الآن ، وفي حال وفاتها، يبدأ الصغار بدفعك إلى الأمام، فهم، تباً لهم من الكوليرا، ينمون. ولا تستطيع لإيقافهم سبيلا.

لم يتمكن ميخائيل من إنهاء كلامه، فقد خرجت ناديا مندفعة، وناداتهمـــا بصوت لا يشبه صوتها:

– تعاليا، تعاليا بسرعة.

– ما الذي جرى هناك؟

– الأم...

ما إن وصلا حتى راحت في غيبوبة من جديد، لكنها قبيل ذلك نطقت فجأة بكلمة. لكن بأية كلمة .هذا ما لم يتمكنوا من تمييزه. حـــين هرعـــت ليوسا وبربارة، كانت لا تزال تنظر أمامها، ولكن عينيها كانتا تنغلقان. ثمة شيء ما كان يجري داخلها، وعلى الرغم من أنها لم تعد تتحرك، فان شيئا ما في الداخل قد دبت فيه الحياة – كان من الواضح أن العجوز لن تلبـــث أن تتحرك من المكان، الذي أوقفها، حتى وجهها بدت عليه التغيرات: فقـــد أصبح أعمق وأكثر جرأة. ومن هناك، من العمق، راح يختلج تحت تـــأثير ما بقي فيه من قوة، كأنه يغمز بعينيه المطبقتين.

وقفوا من حول أمهم، ينظرون بخوف، ولا يعرفون بماذا يفكرون، ولا على ماذا يعلقون الأمل. لم يكن خوفهم هذا يشبه البتة المخـــاوف الـــسابقة كلها، التي صادفوها في حياة المدينة والقرية، لأنه كـــان أكثرهـــا رهبـــة، وصادرا عن الموت . كان يبدو وكأنه رأى وجه كل منهم، ولن ينساه بعد الآن. وكان من المخيف أيضاً أن ترى كيف يجري ذلك كله؛ وفي وقت من الأوقات سوف يحل هذا بهم . كانوا يعتبرون أن هذا ما سيحدث لهم. فلـــم تكن بهم رغبة للنظر كي لا يبقى ماثلا في ذاكرتهم، ومع ذلك لـــم يكونـــوا بقادرين على الابتعاد، أو التحول عنه. ثم إن الابتعاد لـــم يكـــن واردا لأن

الموت، المشغول بأمهم، يمكن أن يستاء من ذلك، ولم يكن أي منهم يريد لفت انتباهه إليه، فظلوا واقفين، كأن على رؤوسهم الطير.

شيء ما بدأ يخفق في عيني العجوز، فيحركهما، وانفتحت العينان، ليس حالا، ولا بسهولة. جربتا أن تتشبثا بالضوء، فلم تتمكنا، وفشلتا. وفي غضون عدة دقائق بقيتا ترقدان هادئتين، ولم تلبث الحركة أن دبت فيهما من جديد، فانفتحتا. كانت القوى فيهما هذه المرة أكبر، فرأتا من خلال ضوئهما الخافت شيئا ما خافتا ومسربلا بالضباب، كما الشبح، وارتسم على وجه العجوز تعبير اليأس والألم . فرفت بجفنيها، محاولة طرد الشبح. وإذ فشلت في طرده أغمضت عينيها، ربما بإرادتها. لكن ماتراءى للعجوز لم يتخل عنها، وراح يدعوها للتأكد – يبدو أن الذكريات عما مر بها في حياتها قد جاءت إليها، فأرادت أن تعرف أين هي الآن. وهل مازالت في عقلها، وبكل هدوء فتحت جفنيها ، بعد أن رأتهم عن قرب، واعترفت – فهذا مالا تستطيع الصمت عليه، ومن صدرها تدفقت أصوات جافة ضعيفة، شبيهة بالقوقأة.

تأوهت بربارة، ولطمت بكفيها، ثم ضغطت بهما على حنجرتها، كي تمنع نفسها من الصراخ.

هدأت العجوز، كأنها فقدت البقية الباقية مما هو حي فيها، وعلى غير رغبة منها انغلقت عيناها، لكن تنفسها كان قويا، فكانت تختلج منه. لكن التنفس لم يلبث أن خفت، بيد أنه لم يختف، وكان تحرك اللحاف على العجوز أبلغ دليل على انه باق.

راحوا ينتظرون، وهم يزدادون شعورا انهم أبناء وبنات هذه العجوز. يشفقون عليها، ويشفقون على أنفسهم أكثر، لان وفاتها ستخلف لهم مصيبة، يفرضها عليهم الموت، وهي لن تنتهي بين ليلة وضحاها. كما كان كل منهم يشعر بارتياح من جديد، لاعهد له من قبل، ارتياح لأنه هنا، بجوار أمه في ساعتها الأخيرة، كما يجدر بالابن أو الابنة، وبذلك فقد استحق صفحها –

ذلك الصفح الآخر، غير البشري، الذي لا يمت للأم بصلة إلا قليلا، لكنه مع هذا ضروري في الحياة.

إنه الخوف والألم معا، وأكثر ما يخيفهم، انهم، وهم يتأملون أمهم، التي طال احتضارها، كانوا يرون ما كان يبدو انه لا يجوز للناس أن ينظروا إليه، دون أن يصدقوا ذواتهم، كانوا يودون أن ينتهي ذلك بأسرع وقت.

مازالت العجوز تتنفس.

وإذ فقد إيليا صبره، همس لميخائيل بشيء ما. وبغتة فتحت العجوز عينيها من جديد، كأنها استجابت لهذا الهمس، ولم تبعدهما، بل راحت تتمعن. همت بالبكاء، لكنها عجزت عنه، فلم يكن لديها من وسيلة لذلك. واندفعت بربارة تمد لها يد العون، إذ راحت تصرخ بسهولة وبصوت عال، وبفضل دعم هذا الصوت الضروري، صمدت العجوز، ولم تعد إلى غيبوبتها. لقد فارقتها الكلمات، لكن تلك الألفاظ الحبيبة، التي كانت أبدا على لسانها، لم تلبث أن طفت على سطح ذاكرتها، فتلفظت، وهي تبذل قصارى جهدها:

- ليوسا. إيليا . بربارة.

فأوقفتها ليوسا:

- نحن هنا يا ماما، هنا. ارقدي، فنحن هنا.

- وولولت بربارة:

- ماتوشكا- أ .

صدقت العجوز نفسها والأصوات، فهدأت في آخر فرحة ومعاناة لها. كانت تبدو وهي تنظر إليهم، كأنها تغوص إلى مكان ما أعمق فأعمق. وعلى حين غرة أوقفها شيء ما. فعادت، وتجعد وجهها، وراحت عيناها تبحثان عن أحدهم.

كان بكاء بربارة يضايقها، وقد فطنوا وأوقفوه.

بصوت مخنوق فاهت العجوز:

- تانتشورا.

تبادلوا النظرات، انهم يذكرون أن أمهم كانت تنادي تاتيانـــا هكـــذا، فردوا بصوت واحد:

- لم تصل بعد.

- لن تلبث أن تصل.

- سوف تصل قريبا .

فهمت العجوز، فأومأت برأسها قليلا، وخيمت الطمأنينة على وجههـــا، وانغمضت عيناها، وراحت في غيبوبة من جديد.

انسحبوا من هناك، فقد كانوا بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة، وحدها بربارة بقيت بجوار العجوز، وراحت تبكي بهدوء، ولم يكن بكاؤها يزعج أحدا، ولو أنها توقفت، إذن لضايقهم ذلك.

- ٣ -

أهي معجزة، أم لا؟ هذا مالا يعرفه أحد. لكن العجوز بدأت تعود إلى الحياة، حالما رأت أولادها. صحيح أنها غابت عن الوعي بعد ذلك مـــرتين أو ثلاثا، كأنها سقطت في حفرة من تحتها، عميقة مظلمة، لكنها في كل مرة كانت تسترد وعيها، و تفتح عينيها، مطلقة أنينا خائفا، لتتحقق، إن كـــانوا حقاً هنا، أم انهم تراءوا لها في الحلم. لابد أن أحـــدهم كـــان بجوارهـــا، ونادى الباقين – لقد تعرفت عليهم، وراحت تحاول البكاء، وهـــي تـــسترد طمأنينتها. ولقد تمكنت من ذلك في المرة الأخيرة، فسمعت بأذنيها صـــوتها الواهن المكبوت، الذي بدا انه لم يكن ينوي الخروج بعد الآن، ولذا فقد كان خروجه محفوفا بالعذاب.

رويدا رويدا بدأت العجوز تتحسن. وكل ما كان لديها وكل ما كـــان يجب أن يخضع لها، كان متوفرا، الواحد إثر الآخر، وبدا وكأنـــه مناســـب للحياة. وقبيل المساء تحسنت حالتها إلى درجة أنها نادت ناديـــا، وطلبـــت منها:

– لو انك تطبخين لي عصيدة... تلك، التي كنـــت تطبخينهـــا لنينكـــا الصغيرة ، من الجريش، عصيدة سائلة.

– هل تقصدين عصيدة السميد ؟

– نعم، إياها، السميد. لأبل حلقي. سائلة.

وتراكضوا في البيت، وانشغلوا. حمداً لله أن السميد كان موجودا لدى ناديا، لكن المدفأة كانت قد بردت تماما بعد الغداء، فقرروا طبخ العصيدة على السخانة الكهربائية، وبعد أن بحثوا عنها طويلا، وجدوها. لكن تبين أن الكهرباء مقطوعة، فأرسلوا ميخائيل لإشعال الموقد في الفناء. وراحت بربارة وليوسا تتجادلان حول اختيار الوعاء الأنسب لطبخ العصيدة، لان بربارة كانت على استعداد لأن تقدم لأمها قدرا بسعة دلو كامل، بينما أصرت ليوسا على انه لا يجوز لها أن تأكل الكثير، وانه من الأفضل الطبخ من جديد ، فيما بعد. أما إيليا فكان يدور قرب ميخائيل، وهو يقول:

– ماذا جرى لأمنا ؟ أرأيت؟

وأيده ميخائيل :

– انها أمنا، ليس حشر أمنا في التابوت بالأمر السهل.

– تقول انها تريد العصيدة . أجل. أرأيت؟ أما أنا فالحق أقول إنني لم أصدق، وأعتقد أنها النهاية. أما هي فتقول: أريد العصيدة، اطبخوا لي العصيدة.

– إذن لقد تضورت من الجوع. يا سلام.

– ان العجائز على العموم يعمرن طويلا. لاحظ انه كلما كانت العجوز أكثر هرما كلما امتد بها العمر. تصبح جلدا على عظم، ولا يبقى للروح ما تتشبث به، و مع هذا فهي تتحرك، فمن أين يأتي هذا كله؟

وأصر إيليا بحيرة:

– لكن أمنا، أمنا، من كان يخطر له؟ أنا وإياك نشتري الفودكا لتأبينها، أما هي فتقول: "انتظروا أيها الناس الطيبون، يا بناتي وأبنائي، فأنا لم أشبع من العصيدة بعد" – وراح يكرر، وهو يضحك: " إذن فأنا لم أشبع من العصيدة. وبدون عصيدة لا أعرف شيئا".

فرد ميخائيل بلهجة أكثر تحفظا:

– أصبحت ضعيفة. وهذا طبيعي، فلأيام لم تضع لقمة واحدة في فمها. ان ذلك من شانه أن يضعف أيا كان .

تراكضت النسوة وهن يحملن العلب والزجاجات، وانشغلن حول الموقد وكأنهن أردن، بأيديهن الست، أن يجهزن طبخة مستوردة، لا عهد لهن بها من قبل، وليست عصيدة عادية من السميد من طنجرة صغيرة. وهنا أيضاً كانت نينكا تلف وتدور، وقد حاولت ناديا طردها، لكنها لم تتمكن؛ كانت نينكا تدرك أن شيئا هاما وغير عادي قد حدث ، وكانت تخشى أن تفوت ما سيحدث لاحقا. كانت بربارة تتصبب عرقا، فهي لم تكن تكف عن الجري من عند الموقد إلى العجوز، وهي في جريها تسند بطنها، كما الحامل، و كانت تشجع أمها:

– اصبري يا ماتوشكا، اصبري، سننتهي من طبخها عما قريب.

كانت ليوسا هي التي قدمت العصيدة للعجوز، وهي ممسكة بالفنجان كي لا توقعه الأم على نفسها. كانت العجوز تشرب جرعات صغيرة وحذرة ؛ ترشف مرتين، وترتاح قليلا، وترشف من جديد، ثم تعود فترتاح. ولكن كل ما شربته لا يتجاوز ما يشربه الطفل الرضيع. ثم استلقت إلى الوراء، منهوكة القوى، ولوحت بيدها ناحية الفنجان، لكي يبعدوه، ولفترة طويلة ظلت عاجزة عن التقاط أنفاسها:

– أوْيْ لقد اختنقت تماما. الأسوأ من ذلك، مُعَيدَتي التفت على شكل عقدة، فكيف يمكن أن أفكها؟

وقالت ليوسا:

– لا بأس يا ماما، لا بأس. هذا طبيعي. لا يجوز الآن تحميل المعدة فوق طاقتها دفعة واحدة، فمن يدري ماذا يمكن أن يحدث . دعيها تهضم هذا أولا، وبعد ذلك يمكن أن تشربي المزيد.

– وكررت العجوز بسرور مرير:

– لكن مُعَيدَتي التفت على شكل عقدة، وقالت لي: هيا بنا يا آنا ستيبانا إلى سكة جديدة . فلنذهب حاملين الجوز.

كانت، وهي تلتقط أنفاسها، تنظر دون أن ترى، إلى مكان مـا عالياً، ولهذا كانت تبدو وكأنها تهذي – أما أنا، عديمة الحيـاء، فقـد خـدعتها، وعدت أدراجي، وها أنا الآن أسخر منها، فأحشوها بالعصيدة، لكن مـاذا تفعل بطعامي، كان الأجدر بي أن أفكر في ذلك.

لم يكفها الهواء فبدأت تسعل، وقالت ليوسا على عجل:

– لا يجوز لك يا ماما أن تكثري من الكلام على هذا النحـو، فأنـت مازلت في غاية الضعف.

فردت العجوز بتعال:

– وهل عليّ أن ألوذ بالصمت؟ وكيف أسكت، وأنا أرى أولادي بعـد طول غياب؟ – انهم جميعا هنا، بالقرب منها، فشملتهم بنظـرة مترنحـة، لكنها فخورة، ثم تابعت بلهجة أكثر اطمئنانا ونشاطا: – كأن أحدا دفعنـي في خاصرتي وقال: لقد وصل الأولاد، فناجيت نفسي بأن ألقي نظرة على أولادي أولا، ومن ثم أموت، فلست بحاجة إلى أي شيء آخر.

– كان الكلام عليها صعبا، فكانت تضطر للسكوت. لكن الفرح برؤية أولادها أمامها أقض مضجعها، فكان ينبض في وجهها، ويحـرك يـديها، وصدرها، ويسد حلقها. كانوا جميعا بجوار أمهم، ولكي لا تـرد علـيهم، ظلوا صامتين، حرصا عليها. حاولت العجوز البكاء عدة مرات، وراحت تنظر إليهم بقلق وفراغ صبر، هازة رأسها الصغير، وهي تنقل نظرهـا من هذا إلى ذاك، ولم تتعرف عليهم إلا للتو: هذا إيليا، هـذه بربـارة، وتلك ليوسا، لكنها لم تستطع تأملهم كما يجب، إما بسبب الدموع، وإما لان عينيها لم تكونا تعملان بشكل جيد، مما أثار حنقها من نفسها. و من جديد خطر لها أن كل ما حولها ليس حقيقة، بل هو حلـم أو وهـم، والـذكرى الأخيرة عن الحياة السالفة– ومن هنا، هذا الضباب، الماثل أمام عينيها.

جمدت، وهمدت، وهي تحاول حل هذا اللغز. كانت الغرفة تسبح في ذلك الضوء الخافت و الصافي الذي يحدث في نهار صاف قبيل الغروب. كانت العجوز ترقد ووجهها إلى النافذة، بينما أشعة الشمس تنفـرش علـى

قدميها، ومااِن بردت بحذر على الجدار المقابل، حتى راحت تدفئها من الجهة الأخرى . الآن فقط رأت العجوز الشمس، وفرحت . إذ تعرفت عليها . وبعد سيل طويل من العتمة والغياب عن الوعي، شعرت في الحال بدفئها، وقد تسرب هذا الدفء، إلى جسمها بالتنفس الحذر، دافعا الدم فيه. لم يكن ذلك حلما: ففي الحلم لا الشمس تدفئ ولا الصقيع يبرد . وفي أذنيها تردد بخفة رنين بعيد عذب، وكما ظهر هذا الرنين بغتة، كذلك توقف على حين غرة وراحت العجوز تتذكر من أين يمكن أن يكون قد جاء، حينذاك كانت غالبا ما تسمعه، وقد انحفر في ذاكرتها مدى الحياة . ولم يكن ليخدعها، فقد كان حيا.

وتمتمت العجوز :

- يا إلهي، يا إلهي .

تشجعت العجوز، ورفعت عينيها . انهم هنا، ينتظرون في المكان السابق، لكن خيل للعجوز انهم ازدادوا اقترابا، فصارت تراهم الآن بشكل أوضح.

فعلى الطرف، بجوار الباب تماما، تقف ناديا، كالغريبة. وإلى جانبها إيليا.

لم تستطع العجوز التعود على إيليا منذ المرة الماضية، حينما عرج على البيت، بعد عودته من الشمال . وكان وجهه إلى جانب رأسه العاري يبدو مزيفا، مرسوما، كأنه باع وجهه الأصلي، أو خسره في لعبة ورق مع إنسان آخر. ثم انه تغير تماما، وأصبح لا يقر له قرار، على الرغم من انه بلغ ذلك العمر، الذي يجدر فيه أن تبرد همته. لكن يبدو أن ذلك المكان، حيث عاش، لا يمت لذلك بصلة، ولا يستطيع إلى نسيانه سبيلا .

تأملت العجوز ايليا طويلا، إلى درجة التعب المحرج . كانت تبحث فيه عن إلياسها، ذاك، الذي أنجبت وربت، واحتفظت به في ذاكرتها. تارة كانت تعثر عليه في هذا، وتارة تفقده من جديد. كان موجودا، لكنه بعيد. كم من اللحم الجديد نما عليه، وكم من أناس رافقوه في غيابها، مما

جعلها تصدق ولا تصدق انه هو. كأنه سمكة صغيرة ابتلعتها سمكة عملاقة، أكبر حجما وانشط حركة، وهما الآن تعيشان في جسد واحد. وإذا ما ناديته فربما يبقى ساكتا . لن يستجيب فورا، وسوف يتلفت يمنة ويسرة، هل هو المنادى أم لا، ومن الذي يناديه؛ ومن أين. كانت العجوز على ثقة، أن حياته هناك، حيث سافر، لم تكن أفضل. لو انه ظل يعيش في القرية... أما فيما يخص ليوسا، فلا يمكن التفكير على هذا النحو فهي ابنة مدينة تماما، من قدميها حتى رأسها. صحيح أن العجوز هي التي أنجبتها، وليس امرأة أخرى من المدينة، ربما عن طريق الخطأ، لكنها لم تلبث أن عثرت على قسمتها. أما إيليا فلا ينسحب عليه هذا، إذ لم يكن يشبه لا المدني ولا القروي، لا الغريب ولا ذاته. كان ذا وجه مرح، لكن العجوز، كانت وهي تتأمله، تشعر نحوه بالشفقة. أما لماذا كانت تشفق عليه، فهي نفسها لم تكن تعرف كما لم تكن قادرة على فهم ذلك.

كان وجه إيليا مرحا فعلا. كما لم يكن قد تمكن بعد من تمالك نفسه الدّهشَة بان العجوز حية، وبكل غبطة راح يضحك من نفسه، ومن مِخائيل وشقيقتيه: "كيف ضحكت علينا، كيف؟ يالها من أم، يالها من ماهرة!" ، فقبل الغداء، كانوا جميعا واثقين من أن العجوز تعاني من سكرات الموت، لكن تبين أنها كانت تعاني من سكرات الحياة، وكان إيليا يضحك على نفسه، فالبارحة، حين استأذن بالانصراف من العمل، أبلغهم في المرآب: إنني مسافر لدفن أمي، دون أن يخامره أدنى شك في ذلك. فما الذي سيقوله لهم الآن؟ إنها لعبة تماما . كان إيليا مستعدا لان يصدق أن أمه احتالت عليهم، وتظاهرت بالاحتضار عمدا، لكي يلتمّ شملهم من حولها، وعلى الرغم من انه كان يعرف أن ذلك كلام فارغ، هو من اختلقه، فانه لم يكن على عجل للتخلص منه، بل راح يدحرجه في داخله. ويداعبه ويلعب به لعبة القط والفأر. و لما كانت العجوز هي من طلب العصيدة، وكما الطفل، راحت تتعلم أكلها، لكن بدون بزازة، فان ذلك كان مسليا ومؤثرا حتى الفخر بالنسبة لإيليا، وراح يتطلع إلى أمه بفضول، ويتساءل: ما الذي تخبئه أيضا يا ترى؟

تركت العجوز عينيها ترتاحان قليلا، ثم عثرت على بربـــابرة، التـــي كانت تجلس عند قدميها، والتي سارعت إلى الانحناء نحو الأمـــام للقـــاء نظرة أمها."ماتوشكا" . هذه أنا، ابنتك الكبرى. لقد أتيت لرؤيتك، لكنك لا تنظرين إلي.

على هذا النحو كانت بربارة تصرخ البارحة كالضائعة. وها قـــد رأت العجوز ابنتها الكبرى، ولم يذهب انتظار بربارة سدى . رأتهـــا، وتـــرنح وجه العجوز، وأومأت بشكل يكاد لا يلحظ ثم تنهدت ؛ أومأت كأنها باركت بربارة، متمنية لها شيخوخة مطمئنة، السعادة الوحيدة التي قد تفوز بهـــا، وتنهدت لأنها كانت تعرف أنها لن تفوز بها، ولا داعي للتفكير بذلك .

كادت لا تتمالك نفسها عن البكاء، وهي تنظر إلى بربارة. هي، لم تعد بحاجة لأي شيء لنفسها، فكل شيء صار في الخلف، ما مضى قد مضى، أما بربارة فما زال أمامها المزيدَ، وحبذا لو يتركها العذاب وشأنها.

ولم تفوّت ميخائيل أيضاً، وان كانت تذكره أكثر من نفسها. كان بـــود العجوز أن تراه كيف يبدو إلى جانبهم جميعا. وليس وحده. وكانت غالبا ما تتذكر المثل القديم : الولد الأول للرب، والثاني للقيصر، أما الثالث فلكـــي يقوم بأودها. ولقد أعطت الرب والقيصر أكثر، و تعدادهم الآن يدعو إلـــى البكاء. ثم إن الأحياء منهم، ما إن شبوا، وأصبحوا مناسبين للعمـــل حتـــى سافروا، الواحد تلو الآخر، كأن أحداً ما انتزعهم، كما الجراء، من أمهـــم، ووضعهم في أيد غريبة. لم يبق عندها إلا ميخائيل. وكان للعجوز كل الحق في أن تقول إنها أنجبته لنفسها، لكي تعيش بقية حياتها معـــه فـــي المكـــان القديم، الذي عاش فيه أهلها، فهي لم تتصور كيف يمكن العيش في مكـــان آخر. لم تكن تعتبر ميخائيل أفضل من بقية أبنائها- كلا، لكـــن ذاك كـــان قدرها: أن تعيش عنده، وتنتظر إيابهم كل صـــيف. تنتظـــر، وتنتظـــر.... وباستثناء سنوات الجيش الثلاث، فان ميخائيل كان دائما بجوار أمه حيـــث تزوج، وأصبح رجلا، فأبا، وككل الرجال كان يطلق الشتائم، ورأتـــه الآن وهو يقترب من الشيخوخة رويدا رويدا.

لقد تعودت عليه وألفته وتحملته، فظلت كل التبدلات التي طرأت عليه غيرملحوظةعندها. البارحة كان ميخائيل، واليوم لا يزال ميخائيل. ويختلف الأمر فيما يخص إيليا ؛ فقد سافر إلى الشمال بشعر، وعاد بلا شعر- حتى الأعمى سيدرك ذلك . وأما بربارة، التي تتردد على البيت كل شهر تقريبا، فقد اكتشفت الأم ما اعتراها من تبدلات ؛ إذ ازدادت سمنة، وأصبحت لا تكف عن إطلاق التنهدات، على طريقة العجائز، تطلقها في مكانها وفي غير مكانها. و تشكو، وها قد وخط الشيب رأسها. فكان يبدو وكان إيليا وليوسا وبربارة وتانتشورا غادروا والدتهم، لكي تكتشف فيما بعد كيف تغيروا، وجلبوا أنفسهم لها كتذكير كثير العناية بالسنوات؛ منذ اللقاء الأخير مر من الوقت كذا، كذا، كذا، ومع كل قدوم لهم كانت العجوز تتذكر فجأة أنها قطعت عدة سنوات دفعة واحدة إلى الأمام . كان من الواضح أنها تشيخ بالسنوات، التي كانوا يجلبونها لها من عندهم، لا بسنواتها هي. وإلا لكانت قد ظلت تشتغل دون كلل أو ملل، بشكل غير ملحوظ. وفي مكان واحد، إلى أن تنتهي ساعتها. لكن هل كان بمقدورها أن تفكر في ذلك؟ لقد انتظرتهم بفارغ الصبر، وخاصة حين لزمت الفراش. لكنهم نادرا ما كانوا يأتون في الفترة الأخيرة. إن لكل منهم أسرته وحياته، فهم بدورهم ليسوا في عز الشباب، ، ولم تعد السنوات تلامسهم بلطف، بل أصبحت تقشطهم. كانت العجوز تتفهم ذلك. اكتفت بإلقاء نظرة على ليوسا، ثم أبعدت عينيهاعنها في الحال، وعادت تتأملها بحذر، خلسة، وكأنها تسترق النظر . وبحضور ليوسا كانت العجوز تخجل من نفسها لأنها بمثل هذا الجسم وهذا الضعف، جلد على عظم، وكان يخيل إليها أن على ابنتها أن تخجل منها – فهي جميلة، متعلمة، حتى أنها تتكلم، لا كما يتكلمن هنا؛ تبدو الكلمات وكأنها هي نفسها، لكن فهمها يتطلب التحول إلى آذان صاغية. وعن أي شيء تسألها، تجدها تعرف كل شيء؛ سافرت وشاهدت عن عشرة . وما الذي رأته العجوز في حياتها؟ تعاقبُ النهار والليل، وتعاقب العمل والنوم . هكذا كانت تدور كالدوامة، جميع من يعيش بجوارها يدور مثلها ويعدون أن هذا ما يجب أن يكون، أما لدى ليوسا فكانت ثمة حياة أخرى، عصية على الفهم، ومجهولة عند العجوز، تجري فيها الكثير من الأمور بشكل جديد، ولربما يموتون هناك بشكل آخر – هذا

مالا تعرفه العجوز. لقد تأخرت للتخلي عن عاداتها- وستموت كيفما اتفق، وستبكي حين يعن على بالها، على الطريقة القديمة، ومع هذا فقد كانت تحاول، بحضور ليوسا، تمالك نفسها لكي لا تقول، أو تتصرف بشكل يمكن أن يؤدي إلى زعل ابنتها.

كانت لا تكف تتأملهم - بنهم، على عجل وبارتباك- ولم تشبع منهم نظرا، إذ كان كل شيء يبدو لها قليلا.

قالت ليوسا:

ـ اطمئني يا ماما، اطمئني، وارتاحي قليلا.

ـ جئتم- قربت العجوز يديها من وجهها، ثم راحت تبكي، وهي تغطيه.

ورد إيليا بحيوية، نيابة عن الجميع:

ـ جئنا يا أمي، جئنا. كل شيء على ما يرام.

جفلت بربارة، وقاطعته بهمس مشوب بالصفير:

ـ لا تصرّخ على هذا النحو أم انك لا ترى؟

ـ جئتم- كررت العجوز في داخلها وهي تحاول أن تطمئن. بعد طول انتظار - قالت ذلك بصوت صريح، يلامس شغاف القلب، ذاك الصوت، الذي يتناجى به شخصان غير شابين، يعرفان بعضهما من سنوات عديدة، ثم سكتت بانتباه، وتابعت، دون أن تفتح عينيها، ودون أن تغير صوتها: - أما أنا فقد استيقظت، لا أستطيع أن أفهم شيئا، أهذه أنا. أم إنني لم أعد أنا. فأنا لا أحس بنفسي أبدا، لا يدين عندي ولا رجلين. مجرد روح، وحتى هذه ضلت الطريق.

اعتقدت إنني مت فعلا، ومن هنا هذه الظلمة في كل مكان. حمدا لك يا رب، فقد انتهى عذابي . وما أن فكرت على هذا النحو حتى رأيت الضوء في كل مكان، كأنه ضوء النهار . ثم إن عينيّ انفتحتا من تلقاء نفسيهما، أما أنا فلم أكن أعرف شيئا - وفتحت عينيها، دون أن تنظر إلى أحد، وتركتهما تعتادان على الشمس...ـ على هذا النحو كان الضوء يغمر كل

شيئ، لا بل وكان أكثر سطوعا. وخطر لي أن أتساءل: من هذا الذي يعاكسني بيوم جميل؟ وحين رأيتكم لم أصدق ذلك . وهل كان الأمل يحدوني أن تكونوا جميعكم هنا؟. وحدها تانتشورا غير موجودة... وخطر لي وأنا راقدة : "لابد أن الإنسان يحصل على بهجته الأخيرة بعد أن يموت، إن أتيح له أن يلقي نظرة أخرى على من ترك وراءه ، أولئك الذين ينفطر قلبه لأجلهم".

هز إيليا رأسه بدهشة مرحة:

– يالك من ماهرة يا أماه. فمنذ عهد قريب لم تكوني قادرة على النطق بكلمة، وها أنت الآن تتكلمين بلا صعوبة، كأنك تقرئين مادة مكتوبة.

ومن جديد نبهتها ليوسا، لكن ليس بالثقة السابقة، كأنها كانت تخشى شيئا:

– فعلا يا ماما، لا تتكلمي كثيرا، فذلك يضرك.

– كلا دعيها تتكلم مادامت قادرة. إنني إنما اقصد أنها أتقنت ذلك بسرعة فائقة. كما في الحكاية – أجل.

وأوضحت العجوز ببساطة :

انتم السبب في هذا كله. بسببكم . فأنا كنت هناك. هناك، هناك، أنا أعرف . وما إن جئتم حتى عدت أدراجي. ميتة أم غير ميتة، لكنني عدت إليكم. ــ كان صوتها يمتد كالخيط الرفيع، يظهر تارة ويختفي تارة أخرى.ــ الرب ساعدني. فلقد وهبني القوة كي اصبح شبيهة بالإنسان قليلا، لكي لا تخافوا مني كثيرا، وليكون بمقدوركم الجلوس بجواري.

– انك تحاكمين الأمور بصورة ممتعة يا أماه.

أية أم لا تكتسب القوة وهي بين أبنائها؟ هذا شيء بديهي . سيما إذا كانت لم ترهم منذ وقت طويل . فبودي أن أبادلكم الحديث قبل الرحيل. لسوف انزع آخر رمق من يديّ ورجليّ، لأضيف ذلك إلى صوتي. ثم انه يعمل من تلقاء نفسه، بلا تدخل مني. يكفي أن أبدأ حتى ينطلق، ويستمر

إلى أن يتعب. لكن البدء، والحق يقال، صعب. كمن يقفز نحو الأعلى. وتصاب بضيق النفس، كما هي الحال الآن، انتظروا.

راحت، وهي ترتاح، تنظر طويلا إلى الجدار، حيث توقفت الشمس، التي أصبحت، بعد الغليان الأبيض، عند الظهيرة، أكثر عذوبة ووضوحا. وبالتدريج راح وجه العجوز يكتسب تعبير الطمأنينة، النابع من المساء، الذي يحس به كبار السن أكثرمن غيرهم. وبدا وكأنها نسيت نفسها وأولادها، ولم تعد تشعر بشيء، حتى بتنفسها، ومع ذلك كانت تتنفس بقوى أخرى. لم تكن ترى شيئا، باستثناء بقعة الشمس على الجدار، لكن حتى هذه البقعة لم تلبث أن تطاولت، وصبت في عينيها المفتوحتين، وتشبثت بهما بقوة. ومع هذا كانت لا تزال تعيش، وتعيش بوضوح أكبر وانتباه أكثر من السابق، دون أن ترهق نفسها من أجل الحياة، بل من خلال وجودها تحت حماية الحياة الحذرة.

كانوا ينتظرون، إذ لم يكن ثمة مجال للخروج . وكان يبدو لهم أن تبادل الحديث فيما بينهم غير لائق، فراحوا ينتظرون أمهم، كما أمرتهم، محاولين أن لا ينظروا إلى بعضهم.

قالت، د ون أن توجه الحديث إليهم:

ــ أشعر، كأن أحدا لا يزال يحملني بين يديه، وكأنه لاوجود لشيء قاس من تحتي. لكنني لست بخائفة، هذا طبيعي.ــ سكتت من جديد، وهي لا تحرك ساكنا، ثم صحت. وأطرقت بعينيها تعبة، وظهر على وجهها الصبر المعهود لدى البشر، لكنه لم يلبث أن تحول لديها، عند رؤية أولادها، إلى فرح هادئ ودافئ. ومن جديد لم تصدق العجوز نفسها، فسألت ليوسا بهدوء:

ــ لكن متى جئتم؟

ــ أنا وإيليا وصلنا مساء البارحة.

وقالت العجوز بعد أن تريثت قليلا:

– ألم تجلبوا لي معكم أية هدايا؟

فردت ليوسا بتباطؤ مرتبك : البارحة كنا على عجل من أمرنا يا ماما – وبالكاد لحقنا، حتى إننا اضطررنا إلى الجري للوصول إلى المرساة.

– ليس لي أنا، فأنا لست بحاجة لشيء، بل من أجل عزيزتي نينكا.ـــــ ومدت يديها إلى نينكا، الواقفة بجوار بربارة، لكنهما لم تصلا إليها، إذ تراجعت نينكا بخوف، ولم تغضب العجوز. كنت سأخبئها لها في الصندوق، ثم أعطيها منها واحدة فواحدة، فأفرح أنا، وتفرح هي. وهاهي قد شمّت الرائحة فتتسلق إلي : «تعالي يا جدتي ننظر ماذا يوجد هناك» . لكنها تعود من جديد . أما أنا فكأنني لا أفهم شيئا، وألاعبها كأنني صغيرة . إنني أحبها، فهي دائما مع الجدة، أتحدث إليها فيطمئن قلبي، وهذا شيء معروف – الكبير يبقى صغيرا.

ووعدت ليوسا:

– صباحا سأذهب إلى المتجر، وأشتري لها شيئا.

وقالت ناديا بخجل:

– لا داعي لأن تشتري لها أي شيء. وهل هي جائعة؟ إنها تأتي إليها هكذا. بسبب الدلال.

لكن العجوز قالت:

– اذهبي، اذهبي، لكن لا تعطيها كل شيء . القليل فقط . أما الباقي فاعطيني إياه. وسأعطيها كأنه مني أنا. فقبل الرحيل سأطعمها أيضاً.

وتذكرت ليوسا:

- كنت أرسل لك العنب يا ماما. فهل كنت تأكلينه؟

- تلك الثمرات الخضراء؟

- نعم. يسمونه العنب.

ليأخذه العفريت. في داخله بذور، وليس لدي من الصبر ما يكفي لفصلها، فكان من نصيب نينكا. كانت تلتهمه ببذره تماما، فيسمع لهرس

البذور صوت. وقلت في نفسي، فلتأكل مادام يعجبها، أما أنا فما حاجتي إليه؟ انه يضيع دون جدوى . لست بحاجة لأي شيء يا ليوسا . ألا ترين أي فرح رزقني الرب: أن ألقي عليكم نظرة قبل الموت . ألست أفهم ذلك؟

ومن جديد أجهشت بالبكاء. كان بكاءً خاليا من الدمع ، هادئا، قصيرا ومسكنا – ثم سكتت، ومسحت عينيها الجافتين.

قالت ليوسا:

– لا بأس يا ماما، لا بأس . الآن عليك أن تتعافي، كل شيء سيكون على ما يرام.

لم تجاوب العجوز، وعادت تنظر إلى الشمس على الجدار، التي التصقت بها الذبابات الأخيرة. وفي وضع العجوز كله كان ثمة فتنة رائعة وتسمر غير بشري، كأنها وُهبت نعمة أن ترى وتتذكر ما يعتبر عصيا على فهم أي كان غيرها.

خيم السكون على العزبة من الداخل، ومن الخارج لم يكن يتناهى أي صوت. ولحسن الحظ لم يستمر صمتها هذه المرة طويلا. وقالت بصوت صاف، يُسرّ بشكل خفي، بدا يخرج منها بملء إرادته، وبدون مشاركتها – حتى أنها لم ترفع عينيها عن الجدار:

– لقد سمعت يابربارة كيف بكيت علي البارحة بكاء عاليا. كان الصوت صوتك. إنني أذكر انه صوتك. لكنني اعتقدت انك تنـدبينني أنا الميتة. طيب. وكنت قبل ذلك، كما أذكر، أفكر وأنا راقدة: «حين أموت، ستأتي بربارة وتنوح علي». لقد علقت الأمل عليك. ولقد سمعت صوتك، فاعتقدت انني أسمعك من خلال الموت – من دون شك.

انعقد لسان بربارة، وهزت برأسها لأمها وفمها مفتوح – لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، ولا أن تستسلم للبكاء. واقترب إيليا من ميخائيل، وهمس له باستغراب:

ان أمنا عجيبة. ألا يبدو لك ذلك؟

وأضافت العجوز:

– ومن يعرف كم من الوقت سيظلون يسمعون – من يعرف؟ لا أحد يعرف. صحيح انهم يغلقون لهم أعينهم، لكن الآذان تبقى مفتوحة.

وبصوت عال سأل إيليا:

– عمّ تتحدثين يا أماه؟ عم تتكلمين؟

اهتدت العجوز على إيليا من صوته، ولم تستطع الرد، فقد غلبها الحياء:

– عن ماذا؟ إنني، بسبب الفرح برؤيتكم، لا أعرف ماذا أقول، فتراني أثرثر. لكن إياكم أن تزعلوا مني، أنا عجوز، فلقد خرفت تماما.

– ماذا تقولين يا أماه! هل تعتقدين اننا لسنا مسرورين من ان كل شيء لديك على ما يرام؟ هيا تعافي الآن، وبسرعة. سنتنزه سويا، أجل. ولماذا نبقى في البيت! سوف نجتمع معا وسنقوم بنزهة، وإذا لم تذهبي حملناك بين أيدينا، فلديك من يحملك.

وقدمت ليوسا فنجان العصيدة لأمها:

– اشربي أيضاً. هذا ممكن الآن فالمعدة أصبحت تعمل، ولن تخذلك.

جربت العجوز رفع رأسها قليلا، وقد ساعدتها ليوسا. وفي هذه المرة شربت العجوز كمية أكبر. وبعد أن التقطت أنفاسها، دهشت من نفسها:

– انظروا ! كأنها توارت في حفرة لا قرار لها. لقد صدق من قال: معدة ضامرة لكنها للخبز ماضغة.

– سوف تتحسنين الآن. وفيما بعد ستشربين المزيد.

– أوني، لم أعد قادرة على تناول المزيد.

– لا بأس لا باس، سوف تتناولين.

وقالت العجوز متشكية:

كل همي أن أبقى حتى وصول تاتشورا. ما بالها لم تصل حتى الآن؟ ربما يكون قد حدث لها شيء؟

- سوف تصل يا أماه، فلا تقلقي. ان عليها أن تقطع مسافة طويلـــة . ولسوف تأتي من كل بد.

وتوسلت العجوز:

- أتمنى ألاّ ترحلوا عني الآن، ابقوا معي قليلا. وبعد وصول تاتشورا لن أؤخركم. فأنا أعرف أنكم لا تستطيعون البقاء طويلا .

- ليس في نية أحد أن يرحل الآن.

- ابقوا. لن أقوم بإزعاجكم، سأبقى هادئة، أرقد وأرقــد، الآن فقــط تماديت في الحديث، لأنني لم أركم من زمـــ ....ـــان، فلم أعــد أتمالــك نفسي من شدة الفرح، وفيما بعد سألوذ بالصمت. زاولـــوا أعمـــالكم التـــي ترغبون، أما أنا فيكفيني أن ألقي عليكم نظرة واحدة في اليوم.

وأنّبت ليوسا العجوز:

- ما هذا الكلام «بإزعاجكم » و«بالصمت»؟ أيعقل هذا يا ماما! ما هذا الذي تبتكرين؟ لا داعي أن تعتذري منا عن أي شيء - افهمي هذا من فضلك .

وأيدتها بربارة:

- لا تقولي هذا يا ماتوشكا، لا تقولي، وإلا بكيت.

ولم يصبر إيليا بدوره:

- كفى يا أماه، كفى يا أماه..

سكتت العجوز بفرح، لكنها لم تستطع كتمان فرحها :

- أفتح عيني فأراكم هنا بجواري. لو كان بمقدوري إذن لارتفعـــت الآن عاليا، وطرت إلى مكان ما، كما الطائر، وحـــدثت الجميــــع... يــــا إلهي...

- كان النهار يتلاشى رويدا فرويدا، ومع هذا فقد كانت العزبة تسبح في الضوء، وكان كل شيء يبدو واضحا: حيث كانت شمس الغروب الجلية تضرب مباشرة النافذة، التي ترقد العجوز تحتها . وقد ارتفعت الشمس الآن إلى السقف، وانتشرضوؤها الثاني، من عل، في شتى الجهات. كل شيء كان هنا مألوفا، وكل شيء كان عزيزا على قلوب أبناء العجوز، كما كان كل شيء يبدو وكأنه نسخة طبق الأصل عن أمهم: يتحدث حين تتحدث، ويلوذ بالصمت حين تصمت، يتأملهم بحنو وفخر، ويمعن في ذلك. كما يتجاوب باهتمام، إنما بهدوء لا لجاجة فيه. كان يبدو كأن العزبة لن تستمر في الحياة بعد رحيل العجوز، ولن تبقى في مكانها بعدها إذ بدا كأنهما وصلتا الدرجة الأخيرة من أرذل العمر، وان الفضل في بقائهما إنما يعود إلى تمسك كل منهما بالأخرى. كان يجب وطء أرض الغرفة بحذر، لكي لا تشعر أمهم بالألم، أما ما كانوا يقولونه لها فكان يبقى في الجدران والزوايا – في كل مكان.

وحتى الهواء هنا كان هو نفسه الذي تنفسوه في الطفولة، وقد راح يستدرجهم ويشدهم سنوات عديدة إلى الوراء، لكنه كان، مثله مثل العجوز، خائر القوى.

وهبط مستوى النوافذ، فتحولت إلى كوى، وللمرورعبرالأبواب كان لابد من إحناء الرأسُ، وكان من الغريب وغير المألوف رؤية الجدران التي تعرّت من طينها، والتي كانت تحملق بأخشابها المحوّرة. تحت العارضة الكبيرة كانت ما تزال حلقة المهد. المهد الذي قلمّا كان يخلو من النزلاء : ما إن يودع ولدا حتى يستقبل آخر.

وعلى جانبي النافذة، فوق الطاولة كان ثمة إطاران ألصقت داخلهما الصور بكثافة. كانوا جميعا هاهنا: إيليا وميخائيل في الجيش – مع التحيات – من تلك الأمكنة، حيث خدما. إيليا خلف مقود السيارة في الشمال، بربارة مع زوجها – وكان – هو وهي يقفان جاحظي العينين، ومنتصبين كالحجر، وهما متشبثان بظهر الكرسي، كما لو انهما يخافان السقوط. وليوسا في أحد المنتجعات وسط أشجار كبيرة عجيبة، وكانت

هناك أيضاً تاتيانا القروية، ذات الوجه الضيق المذعور، كأنها كانت مهددة بالموت لحظة التُقطت هذه الصورة لها .

وعلى رف الأيقونات، في الزاوية اليمني، وضعوا الآن مصباحا. وفي هذه الليلة كان المصباح مفيدا، علما انه لم يكن يرفع من هناك خلال اشهر. فكانت العجوز ترسم إشارة الصليب، دون أن ترفع عينيها . وإلى اليمين أيضاً، وفي مكان اقرب إلى نافذة العجوز علقت يافطة، جلبت إلى منشأة قطع الغابات العام قبل الماضي، وعليها صورة صبي يخرج من الغابة، وفي يده رفش. وفي الأسفل كتب : «ازرع شجرا أكثر ــ يطل عمرك أكثر».

كانت الغابة في البداية خضراء، لكن الذباب لم يلبث أن حولها إلى صفراء، ثم إن الصبي شاخ إلى حد ما خلال هذه السنوات، لكنهم ألفوا الصورة، وتركوها معلقة . الآن كانت العجوز تنظر إلى أولادها، وهي أكثر اطمئنانا، بعد أن وثقت ان الخوف لن يتملكهم بغتة، وبلا سبب، ولن يختفوا، فراحت تتكلم بسهولة، وبلا إجهاد ، وللحال كانت تعثر على الكلمة المناسبة. ثم تتعب من الكلام، لكنها أصبحت تدير دفة الحديث بنفسها: ترتاح حين تجب الراحة، ومن جديد تعلمت توفير نفسها لما سيحدث لاحقا، وان لا تنفق كل قواها على ما هو قائم.

كان المساء النيّر يقترب من النهاية، وبدأت البرودة والظلمة تلفان العزبة، ليس العزبة وحدها، بل، كل مكان.

راحت ليوسا تسوى اللحاف لأمها، وإذ طوته قليلا، تباطأت بغتة ، ثم نادت:

– ميخائيل، تعال إلى هنا.

– ما الأمر؟

ودون أن تفهم العجوز شيئا، أبعدت قدميها عن ذلك المكان، بخوف وحياء.

وقالت ليوسا، وهي تحاول جعل صوتها مرنا:

– هلا نظرت يا ميخائيل.

– إلى أين؟

– إلى هنا. إلى هنا.

– طيب، وماذا هنا؟

– كيف وماذا هنا؟، وتسأل؟! هل يعقل انك لا ترى على أية شراشف تنام ماما لديكم؟ إنها سوداء. الأرجح أنها لم تبدل منذ عام كامل. فهل يصح أن ينام الإنسان المريض والعجوز، أمك، على مثل هذه الشراشف؟ أولا تشعر بالخجل ؟.

- ولماذا تخجلينني؟ وهل أنا بالنسبة لك مدير شراشف؟

- لكن ألم يكن بمقدورك أن تنظر؟ وتطلب أن تُغسل، لابد أنك كنت قادرا؟ فهذا ليس بالأمر الصعب. أم أن الأمر عندك سيان. في أية ظروف تعيش أمنا؟ انك أنت رب البيت هنا .

لم تنظر ليوسا، ولم تر كم احمرّت ناديا، وهي لا تعرف أين تتوارى.

– ليوسا ، ليوسا !– حاولت العجوز إيقافها، وتمكنت من ذلك أخيرا، التفتت ليوسا ناحيتها، فلوحت العجوز بيدها بوهن ــ لقد تعبت من الصراخ. لماذا لم تسأليني أنا؟ وجدت موضوعا للحديث ــ الشراشف؟ لكن يا إلهي ما حاجتي إلى الشراشف البيضاء؟ فلقد أمضيت كل حياتي أنام بدونها وكنت حية. إنها موضة جديدة أدخلوها الآن: النوم على شراشف بيضاء. وبعد ذلك جربي أن تغسليها، يا لها من عقوبة، تخسرين يديك في غسلها.

– إنني أتكلم مع ميخائيل الآن، وليس معك.

– وما دخل ميخائيل إذا كنت أنا من يتكلم إليك، وأنت لا تتوقفين؟ ليس لدي صوت عال، ولن أستطيع أن أتغلب عليكم في الصياح. لقد أذاقتني ناديا الأمرين بهذه الشراشف: دعيني اسحبها، ولقد تعبت وأنا أقول لها أن تتركني وشأني. إنني مستلقية، فدعوني مستلقية، ولا حاجة لان

تحركوني. وحين أموت لابد من غسلي،فبدون ذلك لا يضعوني في التابوت.

– ولماذا تعودين إلى الحديث عن ذلك.

– ليس بأفضل. وتسألين لماذا. سكتت العجوز بأسى، لكنها لم تصبر طويلا، واستأنفت ــ لقد أثرت هلعي، وحتى الآن لا أستطيع العودة إلى نفسي. رحت أتساءل عما يمكن أن تكوني قد وجدت تحتي وهل يعقل انني فعلتها ؟ وماذا يمكن أن يطلب مني الآن؟ فأنا أسوأ من الطفل الصغير. حتى أنني، أنا نفسي، لا أذكر نفسي.

وتشبثت ليوسا بموقفها بعناد:

– لكن كان حريا بابنك أن يذكر نفسه، ويذكرك. فهو ابنك. إن رأسي لا يمكن أن يستوعب كيف تستطيعين أنت، أمنا – النوم على شراشف كهذه، ولا أحد يهتم بذلك. الجميع يعتبر ذلك طبيعيا. يا للفضيحة.

انفصلت ناديا عن الجدار حيث ظلت تقف طيلة هذا الوقت ساكتة، ثم تسللت إلى خارج الغرفة، ودمدم ميخائيل في الصمت الحرج:

– تعلّقتِ بهذه الشراشف؟

وهزت العجوز رأسها:

– عبثاً يا ليوسا، عبثا رحت تتحدثين بحضورها. لا ذنب لها في هذا. فكم من مرة ألحَّت عليّ، أمّا أنا فلم تكن لدي رغبة في الحركة، لم تكن لدي رغبة، وكنت أخاف.

– لكنني لم أقل لها شيئا.

– صحيح انك لم تقولي لها مباشرة، ومع ذلك فهي المقصودة، ومن غيرها، فهي التي تعتني بي، وليس ميخائيل.

وتنهدت بربارة:

– أوْيْ ، أوْيْ. الواقع أني لا أعرف ماذا أقول.

ودمدم إيليا:

– اسكتي، إذا كنت لا تعرفين، انظري إلى هذه المصيبة.

– لكنني لم أقل لك شيئا.

– وأنا أيضاً.

وبهدف تغيير دفة الحديث المزعج ، سألت العجوز:

– حين كنت غائبة عن الوعي هنا، ألم تأت ميرونيخا لرؤيتي؟

فرد ميخائيل:

– كلا، على ما أظن.

– سوف تهرع. ما إن تسمع إنني صحوت حتى تهرع، فتقص علىَّ شيئا ما. لا أدري كيف كنت سأعيش حياتي بدونها، أتحدث معها – فأرتاح. لسوف تهرع من كل بد – أومأت العجوز برأسها – ولسوف تقول: « لماذا لا يأخذك الموت يا صبية »... لقد كانت ساخرة، ولا تزال. انظري، هل المدخل عندها مفتوح؟ انه يرى من هنا، من النافذة .

نهضت بربارة، واستندت على قاعدة النافذة :

– كلا انه مغلق، على ما يبدو.

– لابد أنها ذهبت إلى مكان ما. إنها لا تقدر على البقاء في البيت. فهي في حركة دائمة، فلتركض الآن مادامت قدماها تحملانها. فيما بعد سوف تشبع رقودا . بودي الآن أن أركض وراءها، لكن من أين لي ... فقد انتهيت من الركض.

وقاطع ايليا العجوز، وهو يغمز ميخائيل

– هل تمانعين يا أماه في أن نشرب أنا وميخائيل نخب تعافيك؟

وانتفضت بربارة:

– آه منكم انتم معشر الرجال، إنكم لا تستطيعون أن تعيشوا بدون هذا أبداً.

ووافق ايليا، وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

– أجل، لا نستطيع.

وسمحت العجوز:

– إذن اشربا مادمتما ترغبان في ذلك إلى هذا الحد. لكن ليس هنا، ليس بالقرب مني، فلست بحاجة لرائحته.

– طيب، ليكن. بوسعنا أن نخرج، فنحن إنما سنشرب بصحتك يا أماه، لكي لا تصابي بالمرض بعد الآن، أجل.

– اشربا ولو نخب إبليس اللعين، فهذا سيناسبه أكثر.

– يا سلام على هذا الكلام: نخب إبليس اللعين..؟

– نعم انه نخبه بالذات. وما المتعة التي يجدونها في الشراب ؟ حتى ولو غمرتني بالذهب لما تذوقته. أماهم فيهدرون النقود عليه أيضاً. كأني لو قلت: لا تشربا ستصغيان إليَّ... هذا مستحيل. إذا كنتما قد نويتما، فاشربا، لكن ليس كثيرا، إلى درجة السكر. إنني لا أعرف كيف تكون وأنت سكران، أما ميخائيل فأعرف انه ليس جيدا أبداً. وناديا المسكينة لا تعرف كيف تهرب منه، حين يكون سكراناً.

واحتج ميخائيل بدون زعل، وقد دب فيه المرح:

– انك يا أم تُهيِّجين كل الكلاب عليّ الآن.

– إنني لا أتحدث عبثا أبداً.

– كلا يا أم، لن نشرب إلا القليل، فقط من أجل الشهية .

وتابعت العجوز بعد خروج الرجلين، وهي تنظر إلى ليوسا، كأنها تخاطبها وحدها:

– لا أستطيع التذمر من ناديا. وعلى الرغم من انه ابني، من لحمي ودمي، بينما هي كنتي، فإنني لا أستطيع القول أبداً إنها قد أساءت لي. ان العناية بي تتطلب الصبر دون ريب، لكنها لم ترفع صوتها في وجهي ولا مرة. ومادام ذلك لم يحدث، فكيف يمكن أن أتهم الإنسان ظلما، فهي تسقيني، وتملأ لي كيس الماء الساخن، وفي البرد لا حياة لي بدون هذا الكيس، فقد برد دمي تماما ــ ووجود دمي أو عدم وجوده سيان، مجرد اسم لا أكثر.

ونصحتها بربارة نصيحة خبير:

– يجب أن تتغطي بشكل أفضل.

– وكيف يمكن أن أتغطى أكثر من هذا، فناديا لم تترك شيئا من سقط المتاع إلا ووضعته فوقي، حتى أنني لم أعد قادرة على الحركة، العبء يجثم فوقي، وقدماي ترتعشان وتراني أصيح لناديا، أو أرسل نينكا في طلبها، فتأتي وتسخن لي الماء، فأشعر وكأن الحال أفضل ولولا ناديا إذن لكنت ضعت من زمان– هذا أكيد. وحين يكون ميخائيل صاحيا فانه إنسان طبيعي، وقد يصرخ أحيانا، لكنه ما إن يشرب ويسكر حتى تصبح الحياة معه لا تطاق . فهو يضايقني ويضايقها، فتراودك الرغبة بالهرب منه إلى آخر الدنيا.

وسألت ليوسا باهتمام:

– وكيف يضايقكما؟

– كيف...هكذا. انه يبدأ بطلب الخمرة، بينما هو بالكاد يقف على قدميه، هاتي الخمرة، وقدميها له ياناديا. فمن أين تأتي بها، ولقاء أي شيء؟ لكنه لا يكف يدفعها للذهاب إلى المتجر: «انك تعملين هناك وسوف يعطونك»... لكنها تعمل هناك في التنظيف فقط، ولا تقترب من الخمرة إياها أبداً. لوانه يفكر قليلا. لكنه يتشبث برأيه بعناد. وإذا ما حاولت تهدئته، ينقض عليّ بغضب فظيع: «أنت يا أماه ترقدين، فابقي راقدة، ولا تنبسي

ببنت شفة» فأسكت. لقد أصبحت أخافه وهو سكران. طيب. إنني آخذ نينكا لتنام معي، حيث يصول ويجول هناك.

وردت ليوسا، وهي تحاول كظم غيظها:

– هكذا إذن!

علقت بربارة باستياء وهي تتلفت ناحية الباب:

– ياله من إنسان عديم الحياء والضمير. أن يعامل أمه على هذا النحو، ذلك يعني منتهى الوقاحة.

– وأحيانا يأتي فيجلس على هذا الشكل، ويقول: «تعالي يا أم نتحدث ». وعما يمكن أن أتحدث معه، وهو سكران، و رأسه يدور.

« آ ! إذن فأنت لا تريدين الحديث معي؟ إنني أطعمك وأسقيك، أما أنت فتقرفين من الحديث معي.» لكن لماذا أقرف؟ تعال حين تكون في كامل عقلك، وتحدث، وليس على هذا الشكل، طيب. ويروح يضايقني بإلحاحه – أوي، أوي ، أوي.

ووعدت ليوسا:

– سوف أتحدث معه. سوف أتحدث معه، بما لا يسر خاطره. ماذا يعني هذا ؟ «أسقيك، أطعمك...» هذا ما ينقصنا.

– لكن لا تكلميه وهو سكران. فهو لن يفهم، وسيغضب .انه سيئ عندما يكون سكرانا، ولا يمدحه أحد. لكن مالإن يشبع نوماً حتى يعود طبيعيا. لولا هذه الخمرة لكان إنسانا آخر تماما. الخمرة هي التي تقضي عليه.

وقالت بربارة:

– لا داعي للشرب.

أومأت العجوز موافقة على كلامها، وتأوهت:

– ومن يقول أن هناك داعيا؟ إن الإنسان الذهبي الآن هو ذاك الذي يشرب، لكنه لا يفقد عقله، أما ذاك الذي لا يشرب أبداً، فيجب حمله على الراحات، وعرضه على الناس مقابل النقود : انظروا إلى هذه المعجزة. أما صاحبنا فانه ما إن تلامس الخمرة لسانه حتى يتحول إلى برميل مثقوب : مهما صببت فيه لا يكفيه.

ولم تتوقف ليوسا عن الإعراب عن دهشتها:

– لم أكن أعرف أن ميخائيل قد انحدر إلى هذا الحضيض.

وصاحت بربارة:

– لقد انحدر، انحدر، فوالدتنا لا تكذب.

وقالت العجوزبزعل:

– ولماذا أكذب؟ وما حاجتي لان ألفق التهم الكاذبة لابني، من لحمي ودمي؟

– وأنا أقول: إن والدتنا لا تكذب.

وقالت ليوسا مؤيدة .

– لكن أمنا تصبر عليه. انه يسخر منها كيفما استطاع، أما هي فتدافع عنه. « ما إن يشبع نوما، حتى يعود طبيعيا»– قلدت أمها بتهكم – والآن انتظري حتى يشبع نوما. لسوف يثمرانتظارك، سوف يثمر انتظارك بأن يطردك من البيت.

– لم يحاول طردي – فلماذا الحديث عبثا.

– لم يحاول طردك، لكنه سيقوم بطردك، إذا ما تساهلت معه في كل مرة . لم يبق على ذلك إلا القليل.

– لم يسبق لأحد في عائلتنا أن طرد أمه من البيت.

– على الأرجح ما من أحدٍ في عائلتكم عامل أمه كما يعاملك ابنك.

ووافقت بربارة:

– لا أحد، لا أحد، على مدى حياتي لم أسمع بذلك، انه هـو وحـده. وبدأت العجوز بهدوء، بعد أن صمتت قليلا:

– إنكما غاضبتان، غاضبتان، لكن لوأنكما عشتما معي. ان الحيـاة معي عقاب حقيقي– وهل أتالا أفهم ذلك؟ تارة هات لي هذا ، وتارة هـات لي ذاك، وقد أروح في نوبة سعال – لا أرى معها ضوء النهار: قح، قح . ثم إنني لا أستطيع الخروج إلى الفناء بنفسي. وإلى أين أيـضاً ؟ كـان يجب أن أموت من زمان، يكفيني عذابي وتعذيب الآخرين، لكنني تأخرت. فلا يمكنك أن تموتي قبل أن يأتيك الموت. انه يتحلى بالصبر حيث يكون صاحيا، لا يقول شيئا، لكن السكران – معروف انه لا سلطة له على نفسه. في البداية يستولي علي الغضب ، ومن ثم أروح أناجي نفسي: ما الداعي للغضب، وممن؟ اصبري، ما دمت قد بلغت أرذل العمر، الـرب تحمّـل، وأمرنا نحن أن نتحمل – وبعد أن ارتاحت قليلا، راحت العجوز تتحـدث بشكل اسهل، ولقد أعاد لها ذكر الله الطمأنينـة، وتنفـست مـلء رئتيهـا، وطلبت: لا داعي لأن تقولي له أي شيء . دعيه. بودي أن أموت بسلام. لكي لا يذكرني أحد بالسوء . وحينذاك سيكون الموت سهلا. طيب. وأنتما ماذا كنتما تعتقدان؟ ولا داعي لأن تختلفوا فيما بينكم بسببي، فهـذا يزيـد الأمور سوءا بالنسبة لي. أنا سأموت، أما انتم فالحياة كلها أمامكم، ولسوف ترون بعضكم، وتتزاورون ، فانتم لستم غرباء عن بعضكم، بل مـن أب واحد وأم واحدة . لكن أكثروا من زيارات بعضكم، ولا ينسَ الأخ أختـه ولا الأخت أخاها. وترددوا إلي هنا أيضاً، فهنا أصلنا كله. وسأكون هنا، ولن أتحرك من هنا قيد أنملة، تجلسون عندي، وسأوافيكم بإشـارة حالمـا أحس بكم، وسأرسل طائرا ليقول لكم ذلك.

بكل هدوء دخلت ناديا الغرفة . وخوفا من أن تزعج أحدا، توقفـت لدى الباب خلف سرير العجوز. وحين رأين ناديا، والتفتن ناحيتها، سارت نحو الطاولة ، وجلست، وقد أنزلت يديها اللتين أثقلهما العمـل، علـى ركبتيها. لقد تغيرت فورا: فهي في العمل شعلة نار، لكنها، ما إن تجلـس

حتى لا تعود تسمع لها حسا، كأنها ستغفو بعينين مفتـــوحتين، يقظتـــين دائما، لكي تعرفا متى يجب النهوض من جديد، والعودة إلى العمل.

وسألت العجوز ناديا – وكأنها تدعوها لمشاطرتهن الحديث:

– هل قمت بالتنظيف ؟

– نعم ، بقي أن أخرج البقرة فقط.

– ألم تري الرجال؟

– انهما في الحمام.

– المهم أن لا يسكرا.

– ربما يرعوي قليلا، بحضور الضيوف.

– لكنه ليس وحده. فالضيف هناك، معه.

أخيرا قالت ناديا لماذا جاءت:

– هل سنتعشى هنا أم في المطبخ ؟ كل شيء أصبح جاهزاً.

فردت العجوز:

– اجلسوا هنا. وإلا بقيت هنا وحدي. سأشبع من الرقود وحيدة .

– إذن سأشعل الضوء.

– أشعليه طبعا، ومن يمنعك . أي طعام بالعتمة؟

– وهل سندعو الرجلين. أم لا؟

فردت العجوز بلا تهكم:

– وهل خمرة الشيطان تكفي لإشباعهما ؟ انهما لم يتناولا شيئا.غيـــر الخمرة، وهي لا تجعلك تشعرين بالشبع أبداً. ناديهما، دعيهمـــا يقـــرران بنفسهما إن كانا يريدان أم لا.

– فكرت أن أطعمهما فيما بعد.

– وما الداعي لتجهيز مائدتين؟ فأنت لم ترتاحي طيلة النهار.

– دعيني يا ناديا أساعدك – انبرت ليوسا، فقد كان من الواضح أنها كانت تشعر بالحرج من ناديا، بسبب قصة الشراشف ، فكانت تريد أن تسدي لها خدمة ما.

– اقعدي ، اقعدي، سأقوم بذلك بنفسي. ثم انه لابد من تسخين الطعام، فلاشك انه برد، اقعدي، سأنتهي قريبا.

وبقيت ليوسا.

جاء الرجلان أحمرين، كما لو انهما خارجان للتو من حمام البخار، وهذا ما جعلهما شبيهين أكثر ببعضهما، حتى لو رآهما غريب لقال انهما أخوان: فأين تخفي التشابه في عظام الوجنات الناتئة والحواجب الكثيفة المشعثة، المندفعة بوقاحة نحو الجبين؟ وقد اصطبغ بالحمرة عنق هذا وذاك. وكان الدم قد تدفق إلى رأس إيليا الأجرد، فبدا رأسه متوهجا.

جلسا إلى المائدة بصخب، وسأل ميخائيل بصوت عال:

– كيف الأحوال يا أماه؟

ورد عليه إيليا. ففي الحمام اعتادا الحوار الثنائي:

– وما بها الأحوال؟ – إن أمنا ماهرة، فقد خدعت موتها، وأبعدته.

نظرت إليهما العجوز نظرة عتاب صبورة، وقالت، بعد أن تريثت قليلا:

– الموت لا يُخدع.

– لقد خدعته يا أماه، خدعته، فلا تنكري. وحسنا فعلت، ألا يوجد أحد غيرك للموت؟ سوف يجد ضالته – أجل، فالدنيا لا تخلو من الصالحين.

وقهقه ميخائيل:

– بالضبط.

وفجأة أوقفت بربارة ميخائيل، وكأنها كانت تتصيده:

– يا لك من عديم الوجدان، كان الأحرى بك أن تصمت.

– ماذا هناك؟

ودون أن يفهم بعد حقيقة ما يجري، حاول إيليا أن يعطي كلمات بربارة طابع المزاح، فتذكر العبارة، التي يكررها الأطفال بسرعة : «لو انك جلست، وسكت، كأن الأمر لا يعنيك».

وقصفت بربارة من جديد:

– يالك من قليل الحياء – ثم التفتت إلى ليوسا تستنجد بها، فاضطرت ليوسا إلى تناول دفة الحديث:

– لو كنت مكانك يا ميخائيل إذن للذت بالصمت فعلا. – كانت تتكلم وهي تباعد بين الكلمات، وتنظر في عينيه مباشرة – إن ما تسمح به لنفسك في معاملة أمنا لا يقبله أي إنسان عاقل. ضع في رأسك إننا لا نسمح بالإساءة إلى أمنا، ولن نسمح لك بالسخرية منها.

– ماذا جري لكما، هل أتخمتما من أكل الفطائر[1] ؟من يسخر منها؟

– أنت.

– أنا ؟ وماذا فعلت معها؟ قولي، قولي ، مادمت قد بدأت.

وتوسلت العجوز:

– ليوسا، ليوسا، ماذا تفعلين؟ لقد طلبت منك باسم المسيح، ألاّ تتقاتلوا أشفقوا عليّ.

– لا،لا، دعيها تتكلم.

تراجعت ليوسا مكرهة:

---

[1] أي هل فقدتما رشدكما .

ـــ حسنا يا أماه، فلن نقوم بذلك الآن. تذكر يا ميخائيل أن حديثي معك لم ينته.

وشكا ميخائيل، مخاطبا إيليا :

- انظر إليهما، كيف انقضتاعليّ، وتدعيان أنهما أختـــيّ. يـــا ســـلام عليهما.

ووعدت ليوسا:

- لسوف أتحدث معك حول هذا الموضوع لاحقا.

- لا تهددي، فلا أحد يخشاك.

وتدخل إيليا:

- لا تسيء لأمنا يا ميخائيل، فالإساءة للأم لا تجوز.

لكن ميخائيل لم يناقش إيليا:

- هذا كلام صائب. فالإساءة للأم لا تجوز، بل حرام. وأنا لا أسيء لأمي أبداً.

- الأم هي من وهبنا الحياة.

أزال ميخائيل دموع السكر وقال:

- إن ما تقوله صائب جدا. فأنا أفهم كل شيء . إنني أكثر منهما فهما - وأوماً ناحية أختيه- هل تعرف لماذا انقضتاعلي؟ لأنهما غاضبتان مني لأنني جلبتهما، أبرقت لهما، لكن الأم لم تمت، وبالتالي كأنني اســـتدعيتهما عبثا، كأنني خدعتهما. إني أفهم.

وهاجمته ليوسا:

– هل فكرت في هذا الذي تقول؟ أم انك لم تعد تفقه شـــيئا؟ كيـــف لا تشعر بالخجل؟

– هذا لا يجوز يا ميخائيل– صحح إيليا من جديد.

فقال ميخائيل موافقا:

ـــ مادام لا يجوز، فلن أفعل. أنت أكبر مني، وعليّ أن أحترمك.

ـــ إن الأمر لا يتعلق بذلك.

ـــ إنني أفهم أن الأمر لا يتعلق بذلك.

جاءت ناديا، وراحت تصب الحساء. ومع هذا فقـــد كانـــت النتيجـــة مائدتين : في البداية أكل الرجلان، وبعدهما جلست بربارة وليوسا. صـــبوا للعجوز قليلا من المرق في الفنجان نفسه، وأكلن بصمت.

انصرف الرجلان، بعد أن أخذا المصباح من الأيقونة، وما إن خرجا حتى تأوهت العجوز:

هل يعقل انه مازال لديهما خمر هناك؟ شيء لا يصدق . يا إلهي. نجنا وارحمنا – ماذا يفعلان؟ ماذا يفعلان؟.

- ٤ -

من جديد رأت العجوز الصباح.

ظلت ترقد طويلا بعينين مفتوحتين، بانتظار طلوع الفجر، لأنها قررت أن تحاول الجلوس، حالما تصبح الرؤية ممكنة – فقد كانت تشعر بالألم الشديد في عظامها الناتئة في ظهرها وخاصرتيها، لكن الفجر غاب في مكان ما. كما عشية عيد الميلاد، وفي العتمة كانت العجوز تخاف أن تأتي بأية حركة؛ فقد تقع في الظلمة، وهي غير قادرة على الصراخ. أخيرا بدأت النافذة، الأقرب إلى جهة الشروق، تتخلص من العتمة، ومن خلالها أصبح بوسع العينين أن تريا إلى مسافة أبعد، ولم تلبث النافذة الثانية أن ظهرت في مكانها، وبدأ غبش الصباح الباكر والبارد، يتسلل إلى الغرفة من جهتين.

انتظرت العجوز إلى أن تزداد كمية الضوء، ودون أن ترفع نظرها عن ليوسا – لتستطلع إن كانت نائمة– دفعت جسمها قليلا باتجاه الوسادة، وبعد أن أخذت قسطا من الراحة، استندت على يديها بحذر، ثم أنزلت قدميها إلى الأرض. راح رأس العجوز يدور، فتشبثت بيديها بالسرير، مخافة أن تسقط، لا سمح الله، نحو الأمام، وجمدت، وقد دهشت هي نفسها من نفسها، وأومأت برأسها: من كان يخطر له – يبدو أن لا شيء يمكن

القعود عليه، مجرد عظام، ومع ذلك قعدت . سحبت العجوز اللحاف، فغطت به ساقيها، كي تخفي مدى نحولهما.

تملك العجوز الفرح لأنها تمكنت من الجلوس . وراح الخدر، الذي تراكم خلال فترة الرقود الطويلة، والذي كاد يتحجر، راح ينحدر، بوجع مستحب، عبر ظهرها ويديها ورجليها. ووجدت العينان سهولة في النظر، فكانتا تنظران إلى الأمام مباشرة، ولم تكن ثمة حاجة لرفعهما عاليا: كانت عينا العجوز تسقطان لكثرة ما مر بهما البارحة، فكم حركتهما هنا وهناك . ولم تلبث أن شعرت بالبرد في قدميها الحافيتين، الملامستين للأرض، فأنزلت طرف اللحاف تحتهما – إذن فالقدمان مازالتا حيتين، ولا زال الدم قادرا على الوصول إليهما.

لم تكن الشمس تدخل العزبة في الاصباح، لكن العجوز عرفت بطلوعها بدون نوافذ: فقد راح الهواء يدب من حولها ويلعب، وكأن شيئا غريبا كان ينفخ فيه. وحين رفعت عينيها، رأت أشعة الشمس، الممتدة عبر السماء، كما البصيص الذي لا يمكن أن تطأه إلا حافي القدمين، وهي تضرب من علٍ بهرجٍ ومرجٍ من فرط السعادة، بحثا عن الأرض. وبفضلها أحست العجوز بالدفء في الحال، فهمست:

– يا إلهي..

سمعت العجوز خوار البقرة، لكنها لم تنادِ ناديا: دعها تتعود على النهوض بنفسها، ثم إني لن أُعمّر طويلاً في هذه الدنيا. كما أن ليوسا يمكن أن تستيقظ على الصياح، اذ أنها، في مدينتها اعتادت النوم في الاصباح، فلتبق نائمة، فما من مشاغل وراءها. كانت جالسة تصغي إلى ناديا، وهي ترتدي ثيابها، ومن ثم تناهى إليها صرير الباب يفتح ويغلق، ومن جديد هدأ كل شيء. لكن العجوز كانت تعرف أن العزبة الآن كما القدر الموضوع على الموقد، وفيه الطبخة، التي توشك أن تدب فيها الحياة، وتبدأ بالغليان.

وفعلا فقد بدأ أحدهم يخفق بحذائه، إنها نينكا. وبالطبع فهي لن تخرج إلى الفناء في هذا الوقت، لكن النونية هنا، لدى العجوز، تحت السرير، تقوست العجوز ونادت نينكا بهمس قوي، فدلفت هذه، والكرى يداعب عينيها المغمضتين. استخدمت النونية، ثم تسلقت سرير العجوز– كما كان يحدث سابقا. كانت نينكا تحب أن تهرع إلى العجوز في الصباح، لكن العجوز كانت مستعدة لأن تبكي الآن لأن السعادة الأخرى التي انعم الله بها عليها في حياتها لم تتخل عنها. كانت نينكا، على الرغم من كل شيء تعرف أين هي، لأنها تمتمت وهي شبه نائمة:

بعد أن تموتي سوف أنام هنا دائما.

وهمست العجوز بسعادة، وهي تحشر اللحاف تحتها:

– طيب نامي، نامي. لسوف تشعرين بالدفء هنا قرب المدفأة. سيما وان الشتاء على الأبواب. ستكونين في أمان هنا. ولن تعرفي الحزن . يا لصغيرتي الغالية. إنها تعي كل شيء، كأنها كبيرة.

بعد نينكا خيم الهدوء على العزبة من جديد، لكن الحركة في الخارج كانت تزداد بمرور الوقت، وأرهفت العجوز السمع، كي تعرف لمن الدابة التي تخور، ومَنْ مِنْ ربات البيوت أطالت الرقاد اليوم. كانت تنتظر أن تسمع خوار بقرة ميرونيخا. وبعد ذلك يمكن أن تسمع ميرونيخا نفسها، إذا ما أجهدت نفسها؛ فهي لا تكف عند حلبها عن الصراخ بها. أية بقرة هذه، إذا كانت لا تقف في مكانها. وكيف تصبر ميرونيخا على ملاحقتها، عبر الفناء، حاملة مقعدها، وهي تمزق صوتها؟ لماذا لا تستبدل بها بقرة أخرى؟ أم أنها هي نفسها لا تستطيع بدون ذلك؟.

لكنها لم تسمع لا ميرونيخا ولا بقرتها، كأنهما كلتيهما لم يمتد بهما العمر حتى هذا اليوم. وهل هذا معقول؟ أين اختفت البارحة، ولم لم تأت ؟ إنها تعيش لوحدها، ولا أحد يتفقدها. مدت العجوز رأسها علها ترى باب

ميرونيخا، لكن عينيها لم تصلا إلا إلى السقف، ولما كانت تخاف الانفصال عن السرير. فقد عادت إلى جلستها وهي تتأوه.

كانت العجوز مشغولة بالنظر إلى الخارج، فلم تلحظ دخول بربارة، أجفلت حين سمعت صوتها:

– أنت تجلسين إذن؟ – سألت بربارة بدهشة.

تلاشى الخوف لدى العجوز، وقالت تمتدح نفسها:

– كما ترين، اجلس.

– وهل يجوز لك أن تجلسي؟

غضبت العجوز لان بربارة لا تفهم مدى أهمية الجلوس عندها.

– ومن يجب أن أسأل هل يجوز لي أم لا يجوز؟ جلست وانا جالسة.

– حاذري أن تسقطي.

– لا تهذري. وما الذي يجعلني أسقط؟ لو كنت سأسقط إذن لسقطت بدونك من زمان، لكنني جالسة.

– لابد أنها نينكا هي التي طردتك من السرير؟

– لم يطردني أحد. كفاك كلاما فارغا، لقد جلست قبل قدومها .

كانت عينا بربارة الوسنتان لا تريان جيدا، وكان الشعر على رأسها متكورا، كأن أحدا بات فيه، وقالت، وهي تتثاءب :

– لقد رأيت شيئا في الحلم، لكنني ما إن استيقظت حتى نسيته. غير انه حلم سيئ.

– وكيف تعرفين انه سيئ طالما انك لا تذكرينه؟

– حين استيقظت شعرت انني متضايقة، فأسرعت إلى هنا، وأنا أتوجس خوفا من أن يكون قد جرى لك شيء.

شعرت العجوز بالقلق:

– كلا، لم يجر لي شيء. لكن هلا ذهبت إلى ميرونيخا. اذهبي. لعل ذلك قد جرى لها؟ فهي وحيدة كالبومة العمياء. وإذا ما ماتت ستبقى راقدة، بعينين تلمعان.

– ومم تموت؟

يا سلام ! وتسأل ممّ. مم يموت الناس؟ أمن الفرح؟ فهي لا تكف عن الجري، لكنها لن تستمر في الجري حتى المئة عام. ثم إن بقرتها لم تَخُرْ اليوم، فلقد أصغيت بملء جوارحي، لكنها لم تَخُرْ. في المرات السابقة كانت توقظ القرية بأسرها قبل أن تصل إلى البيت. لكنها اليوم اختفت. لو كان بمقدوري، لألقيت نظرة بنفسي، لكن من أين لي...

– سأذهب بعد أن أسوي شكلي.

– اذهبي، اذهبي إنها ليست غريبة عني، فلم تفترق إحدانا عن الأخرى طيلة العمر. تارة تأتي هي إلي، وأخرى أذهب أنا إليها. إن قلبي يتألم عليها أيضاً.

في أثناء وجود بربارة كانت ليوسا قد استيقظت على الأرجح، لكنها لم تتحرك، ولم تفتح عينيها، إلا بعد انصراف بربارة.

وبلهجة من يشعر بالذنب، قالت العجوز:

– أيقظناك بحديثنا. نامي إذا كنت تريدين، فلسوف أصمت، وأطلب منهم أن يتحركوا بهدوء.

– لقد شبعت نوما – حتى بعد النوم كان وجه ليوسا ناعما، بدون تجاعيد أو انتفاخات، نمت اليوم جيدا.

– ألم تريْ شيئا في الحلم؟

– كلا.

– بربارة تقول إنها رأت شيئا سيئا، لكنها لا تذكر ماذا بالتحديد، ولقد طلبت منها أن تذهب إلى ميرونيخا، فربما كان الحلم عنها؟ أما تانتشورا فلم تأت، لم تأت. إنني أخاف أن أفكر بها.

– سوف تأتي، فلا تقلقي. سوف تصل اليوم من كل بد.

– البارحة قلتم لي الكلام نفسه، لكن أين هي؟ لم تغمض لي عين، كل الليل. فكرت؛ ما إن يغفو الجميع حتى تصل تانتشورا، وتروح تقرع الباب، وهكذا بقيت راقدة، وأنا أصغي .عند المساء كان الناس يروحون ويجيئون، وكان هناك من أصغي له. وبعد ذلك عاد ميخائيلنا صاخبا. وظل يتأوه ويتأوه وهو يأوي إلى فراشه، كأن أحدا يخنقه. لم يكن هو من يتأوه، بل كانت الخمرة هي التي تتأوه فيه لابد. انهما تناولا الكثير منها البارحة . لقد هدأا، والحمد لله. ومن جديد عدت وحيدة. لا أحد يقرع الباب، ولا أحد يتفوه بكلمة، فأرقد، مصغية إلى نفسي. وبدا لي الليل طويلا جدا كأنه عام كامل. وأي شيء لم أوسعه تفكيرا؟ فمع والدتي تحدثت، وأخبرتها أنني قادمة عما قريب. وصليت للرب من أجل تانتشورا، لكي يسمح لها بالوصول إلي، إذا كان يراها في مكان ما. ليتها تصل هذا اليوم، وإلا فقد

لا يمتد بي العمر أكثر. إنني أرى بنفسي أنني لا أعيش حياتي، بل إن الله أضاف لي من أجلكم قليلا، لكن لهذه الإضافة نهاية أيضاً. كيف لا – نعم نعم.

ظلت ليوسا تصغي وهي في سريرها، لكن، ما إن بدأت العجوز الكلام عن الإضافة، حتى بدأت تنهض. كانت العجوز مسرورة إذ لم يعد ثمة داع للصمت، فقد شبعت طوال الليل صمتا.

لم أتوقع أنني سأعيش حتى الصباح– فقد تطاول الليل وتطاول . وفكرت أن الليالي ربما بدأت تتوالى واحدة في أعقاب أخرى، بلا نهار، بينما أنالا أعرف شيئا. ثم إن الناس نائمون، لا يستيقظون، أما أنا فأتعذب . لم تكن لدي رغبة في النوم، فقد شبعت نوما، لكن عيني لا تكفان عن الانغلاق . لقد تعودتا على الانغلاق ليلا– فماذا تريدين منهما ؟ لكنني لا أسمح لهما، أخاف، إذا ما غفوت أن لا أستيقظ أبداً. فالنوم والموت صنوان. وبعد ذلك تناهى إليّ صياح الديكة يبشر باقتراب الفجر. أخيرا، بعد طول انتظار، شرعت في الجلوس حين بدأ الضوء بالانتشار لقد عانيت بما فيه الكفاية؛ إن عظامي أصبحت عارية من كثرة الرقود.

قالت ليوسا بصبر، وهي ترتب سريرها:

– اليوم جلست، وغدا تقومين وتمشين. ولن تقولي من الآن فصاعدا إنك تعيشين حياة ليست حياتك.

– ليست لي!– أصرت العجوز على رأيها.

لم تجادلها ليوسا، بل وضعت السرير النقال مكانه، وتوقفت لدى النافذة، وهي ترتب شكلها .

بدأ النهار لطيفا، فقد ملأ الهواء، المفعم بالشمس، الأفق فوق القريـــة، ولم يخف منه شيئا، بل عرضه كله. وتلألأ النهر، وبـــدت الغابـــة، خلـــف النهر، وهي تتسلق الجبل عاليا، أقرب مما هي عليه، لكن الشمس أخمدت قليلا من خضرتها الساطعة بصورة غير مألوفة في هذا الوقت.. وفي كـــل مكان كان يخيم الضياء الهادئ المريح. فقط في القرية كانت تنتشر الظلال السوداء، لكن حتى الكلاب كانت تتجنبها، كأنها تخشى أن تتعثر بها.

لم يكن بوسع أحد أن يفهم، أو يدرك لماذا تكدس الضباب البارحـــة، بينما يخيم الهدوء ولا توجد أية شوائب اليوم. تذكرت ليوسا حديث البارحة عن الريجيك، وقررت أنه اليوم الأنسب للذهاب إلى الغابة. المهم أن يكون كل شيء على ما يرام لدى الأم.

انفصلت ليوسا عن النافذة بسبب بربارة التي صـــاحت، وهـــي علـــى العتبة، كأنها تحمل بشرى سارة.

– تذكرت يا أماه، تذكرت.

– ماذا تذكرت؟

– الحلم. حقاً إنه ليس بالحلم الجيد. منذ البداية قلت لك إنه ليس جيدا، وهو كذلك بالفعل، ولكنني كنت أعرف.

واستعجلتها العجوز:

– ماذا رأيت؟

– رأيت، كأننا في جلسة، ومن حولي نساء، نساء غريبات كلهـــن، لا أعرف أيا منهن. كأننا جالسات، ونصنع الفطائر. وبمـــاذا كنـــا نحـــشوها برأيك؟

ومن أين لي أن أعرف – لماذا تسألينني؟

– بالوحل.

– بماذا ؟

– بالوحل. الوحل تحت أقدامنا، فنأخذ منه بدل اللحم. وكأننا كنا سعيدات أنه ستكون لدينا فطائر بالوحل. فكنا نضحك من فرط السرور. أما أنا فكنت أقول: «لماذا تأخذن الوحل الرديء، فكيف سيكون حال الفطائر؟ ستكون بدون مرق. إن لدي هنا وحلا دسما فخذنه» ...فرحن يأخذن من عندي. ما إن أتذكر ذلك، حتى يقشعر بدني كله.

– وبعد ذلك، هل حدث شيء، أم لا؟

– كلا، لم أعد أذكر شيئا. لكنني مازلت أذكر الفطائر، كما أراها الآن ؛ بيضاء، متقنة، لا تفرقين إحداها عن الأخرى، وهي ترقد على المشواة. يالله من حلم سيئ، منذ البداية قلت إنه سيئ– هزت بربارة رأسها بخوف، ثم سألت– ماذا يعني هذا ؟ يا للمصيبة. لو أنني عرفت إذن لما أويت إلى الفراش، لكي أتجنب رؤيته، فما العمل الآن؟

ونصحتها ليوسا:

– الأفضل أن تحتفظي بأحلامك لنفسك.

– مادمت قد رأيته، فكيف يجب أن أقول إنني لم أره؟

– طيب، لو أنك أكلت فطائرك بنفسك. هل يعقل أنك لا تدركين أن أمنا لا تهتم بها لا من قريب أو بعيد؟ فهي– حتى بدون ذلك – تختلق: كأنها تعيش حياة أخرى، غيرحياتها، ثم تأتين أنت مع أحلامك. يالها من عناية تجعل المرء يفقد عقله .

خرجت ليوسا غاضبة، ولم يغلق الباب بعدها بإحكام، فراح وهو ينفتح، يصر بشكل غير مريح.

– أغلقيه– طلبت العجوز، لكن بربارة لم تفهم ما قيل لهـا، وراحـت تهمهم متذمرة:

– أي شيء أقولـه لا يناسب، لا يناسب. أوي– أوي. أنيّ ذهبت بربارة هي المخطئة، بربارة ولا أحد غيرها. حتى أنه لم يعد يحق لهـا أن تـرى الأحلام. وكيف لي أن اختبئ منها، إذا كانت تتسلل إلى عيني، وأنا نائمة . إنني لا أدعوها، وهل عليّ ألاّ أنام بعد الآن أبداً؟

– لا تصغي لكل ما يقال لك.

– وكيف لا أصغي، إذا كانت تقول ذلـك بحـضوري ؟ فأنـا لـست طرشاء، إنها تتكلم، وأنا أصغي.

– أوه يا بربارة، أوخ . ممن أخذت بساطتك هذه؟ – رثت العجوز لها، وقاطعت نفسها، إذ تذكرت:– طلبت منك أن تذهبي إلى ميرونيخا، فهـل ذهبت أم لا؟

– لم أذهب بعد .

– ولماذا لا تذهبين ؟

– سأذهب الآن.

– اذهبي يا بربارة، اذهبي. فمنذ الصباح وأنا أفكر بها. ألم يحدث لهـا مكروه يا ترى؟ ليس عليك إلا أن تعبري الشارع. إذا كانت حية فقولي لها إن الخيارة هي التي طلبت منك ذلك. فأنا لم أرها منذ زمن بعيد.

خفقت بربارة بقدميها باتجاه الباب، فصاحت العجوز في إثرها:

- هلا أغلقت لي الباب، فالبرد يأتي من الخارج، وقد تصاب رجلي.

تعبت العجوز من القعود، الذي طال عهدها به، لكن نينكا كانت تشغل وسط السرير بالذات، ووجدت العجوز نفسها مضطرة للصبر. ولم يكن قلبها يطاوعها على لمس نينكا. انحنت العجوز، وهي تغالب الألم في ظهرها، ثم قربت يديها من بطنها - الآن أصبح ظهرها من الأعلى . فبدا وكأنه هدأ قليلا. أخذت العجوز قسطا من الراحة، لكنها كانت تعتبر أن الجلوس لفترة طويلة هكذا، وهي مقوسة، خطير أيضاً- فقد تسقط في أية لحظة- ومن جديد اعتدلت، وقومت ظهرها، وتمايلت في مكانها، ثم تأوهت.

بدأ أحدهم ينقر على النافذة، وصاحت بربارة من الخارج:

- ماتوشكا، اسمعي يا ماتوشكا، صاحبتك ميرونيخا ليست في البيت. تقول ناديا إنها هرعت منذ الصباح باتجاه المنطقة السفلى.

- طيب، طيب- فهمت العجوز، وبعد صمت قصير، قالت لنفسها:- لقد نفرت من جديد، أوي عمن أخذت صفة الركض هذه؟

- أنت قاعدة؟ - سألت بربارة.

- قاعدة، قاعدة.

بدأ ميخائيل يزمجر في الغرفة الأخرى، وهو يهمهم ويتعثر، فوصل إلى المدخل، وراح يقرقع بالمغرفة. ولم يغلق الباب خلفه بالطبع، كأنه يسكن لوحده، ولا أحد هناك غيره. تأوهت العجوز، لكنها لم ترغب بمناداة ميخائيل، فراحت، بعد أن انحنت بحذر، تلف ساقيها باللحاف، و مع هذا فقد

راح البرد يتسلل إليهما، ربما يكون ذلك ليس بردا بالنسبة للآخرين، لكنـــه كان كذلك بالنسبة للعجوز.

انطوت العجوز على نفسها، ولاذت بالصمت.

– ليست رؤية التراب في الحلم نذير شؤم أبداً – قالت العجوز بتردد، ومن ثم تلفتت حولها.

كان النهار قد طلع على الناس بكامل هيئته، وراح يمضي حراً سريعاً.

- ٥ -

شرب ميخائيل مغرفة طافحة بالماء، ثم أخذ نفسا ، بينما كان المـاء يجري عبر حلقه، كان يشعر ببرودته وطراوته، لكن الغثيـان راح يرتفـع من جديد. ارتعش ميخائيل فخرخر الماء في بطنه. لكنه لم يعد مـاء، بـل غسالة. وفكر في أن يشرب المزيد، لكنه لم يشرب، فهو لن يجني من ذلك شيئا، سوى الثقل الزائد والجري فيما بعد إلى الخارج، فخرج إلى الطنف، وهو يستند على يديه. كان الآن يكره الشمس والدفء الوليد- ففي المطر أو الريح يشعر بالتحسن، وإن كان ثمة ما يزعجه ويلهيه، أما في هـذا الجـو الناشف فلن تصحو بسرعة بالطبع. كان في قميص داخلي، حافي القدمين، لا فرق عنده بين العزبة والخارج، كل شيء كان يبدو له تافها وعكرا.

ولكي لا يبقى واقفا، ألقى ميخائيل بنفسه على درجة السلم، ثم نهـض في الحال- فالأفكار الضعيفة المسكرة عما حدث البارحة جعلتـه يتـذكر الفودكا، المنتظرة في غرفة المؤونة. والعجيب أنه قبل ذلك لم يفكـر بهـا مطلقا- بسبب العادة على الأرجح ؛ إذ لم يسبق له أن كانت لديه مثل هذه الكمية من المشروب دفعة واحدة، ثم إنه منذ عهد بعيد لم تكن تبقى قطرة واحدة حتى الصباح. وقف قليلا، وتريث، كان يعرف جيدا أنه جلب مع إيليا فعلا صندوقا كاملا من الفودكا، ولم يكن بوسعهما أن يأتيا عليه كلـه في جلسة واحدة، ومع هذا فلم يكن يصدق نفسه؛ فهذه القصة لا تدخل في مخ عاقل . وفي غرفة المؤونة، التي كان بابها هنا،في المدخل، رفع بحذر سقط المتاع في الزاوية، ثم قطب بسعادة – في شبه العتمة اصطدمت عيناه

من الأسفل باللمعان الخاص، المرن للزجاجات المختومة . لم يكن ينقص الصندوق سوى ثلاث زجاجات، أما الزجاجات الباقية فكانت سالمة، كما لو أنها مازالت في المتجر. يا سلام عليها، لقد أمضت الليل كله دون أن يصيبها مكروه. تناول ميخائيل زجاجة أخرى، ودسها على عجل في جيب بنطاله.

جلس يرتاح في المكان نفسه، الذي كان قد نهض منه قبيل دخول غرفة المؤونة. لم يكن الغثيان قد زال، كلا، وكان ذلك لا يزال بعيدا، لكن جسمه تنشط بشكل ملحوظ نتيجة الوعد المألوف والمنشود. قلبه يحدثه بذلك. الآن أصبح بالإمكان الجلوس قليلا والاحتيال على الخمار– يبدو أنك تتعذب بسببه، ولا تستطيع العيش، وأنت تعرف أن نهايته أصبحت وشيكة. إنك لا تخاف أن تنظر إليه. لترى أي وحش هو، لأنك تدرك أن خلاصك قريب . ذلكم هو الطبع البشري تماما كما يشعر المرء بالتعب القاتل. ومتى؟ قبيل النوم، بالذات، حين لا يمكن أن يخطر ذلك في البال. إنه احتيال أيضاً. إنه احتيال بلا ريب.

كان بوسعه متابعة الجلوس ومشاكسة الخمار، لكن صوت ناديا أتاه من الحاكورة فقرر أنه ليس بحاجة لأن يلتقي معها. ليؤجل ذلك. إنه يعرف مسبقا ما الذي يمكن أن تقوله له الآن. أراد أن يعرج على العزبة لكي يرتدي حذاءه، لكنه تصور مدى الحرج الذي سيشعر به لدى ارتداء الحذاء والزجاجة في جيبه،هذا عداك عن احتمال أن يصطدم بناديا أو بأي من أختيه، فلم يذهب، بل توجه حافيا إلى المكان الذي كان يقصده منذ البداية – إلى الحمام، حيث إيليا.

كان إيليا ينام وكأن شيئا لم يكن. ليس لديه مشاغل ولا مشاكل. كأنه ظل يطحن حتى ساعة متأخرة من الليل . قعد ميخائيل على الكتلة الخشبية المنخفضة، التي جيء بها البارحة من الخارج، و دس الزجاجة خلف قن الدجاج . فهنا، في الحمام، كان ثمة قن، تقيم فيه الدجاجات شتاء، وعند الحاجة يستخدم بدلا من الطاولة . وهكذا فقد شربا البارحة خلفه، ولم يشكوا

من شيء . وحتى الآن كان ثمة زجاجتان ظاهرتان للعيان، أما الثالثة فقد حطت في القن بأعجوبة، فعلى الرغم من أن بابه كان مغلقا، فإنها كانت تستقر على جنبها هناك. وهذه الزجاجة بدورها لا تستحق الإطراء، فمن يعرج على المكان، يمكن أن يخطر بباله أي شيء، فليست الدجاجات من شربنها. همّ ميخائيل بإخراج الزجاجة، لكن ذلك كان يتطلب الصعود، والعبور من فوق إيليا، فبصق عليها؛ مادامت فارغة، فلتبق مكانها، فيما بعد ستخرج بنفسها.

– إيليا ! – نادى أخاه . كانت تلك أول كلمة ينطق بها اليوم. وبدون تمرين خرجت مشوشة، مشوبة ببحة. إلى هذا الحد كان كل شيء داخله قد شوي، لدرجة انه لم يعد قادرا على التفوه بكلمة. سعل ميخائيل، ثم صحح صوته:

– إيليا. اسمع!

أصغى إيليا في الحلم، وتبدل تنفسه.

– انهض، كفاك نوما.

– لا يزال الوقت مبكرا– همهم إيليا، دون أن يفتح عينيه، ودون أن يتحرك. وكان يكفي أن يصمت ميخائيل قليلا، أو يتباطأ في الكلام حتى يغفو من جديد، لأنه لم يشبع نوما، ولم يكن يرغب في الاستيقاظ، فقد تشبث بالنوم كالصبي، الذي تعجز عن إرساله إلى الفراش مساء، وتعجز عن إخراجه منه صباحا.

– أي وقت مبكر! نحن في رابعة النهار.

– ما الذي يجعلكم لا تنامون؟ البارحة أيقظتني بربارة، واليوم أنت. الشيطان وحده يعرف متى نمنا.

– كيف أحوالك؟- سأل ميخائيل دون أن يصغي إليه.

فتح إيليا عينيه، على كل حال:

– لا أعرف بعد. يبدو أنني حي.

– أما أنا فأشعر وكأنه تم تمريري عبر فرامة اللحم، لا أميز بين يدي وقدمي. بصعوبة دببت إلى هنا. حتى أنني توقفت لأستريح.

– لقد زدناها البارحة – أجل.

– في الصباح، وقبل أن أصحو تماما، شعرت بـــدنو أجلـــي، فـــلا أستطيع إلى النوم والنهوض سبيلا . ها أنت تنام قرير العين، أما أنا فـــلا أستطيع .

– إنني بحاجة إلى النوم في الأصباح – أجل. وبوسعي أن أنسى كـــل شيء بعد النوم. كأن شيئا لم يكن. هذا أكيد، المهم ألا يزعجني أحد.

وقال ميخائيل حاسدا:

– يا سلام ! وهل لديك جسم آخر؟ نحن شقيقان، إذن فيجب أن نكون متشابهين.

– هذا لا يهم– شقيقان أم غير شقيقين.

– لقد حالفنا الحظ إذ شربنا الفودكا البيضاء، أما لو تلوثنا بتلـــك، إذن لما نهضت اليوم. لما نهضت، حتى ولو قدمت لي المشروب. فأنا أعـــرف نفسي جيدا.

- أن الحمراء أسوأ بالنسبة لي أيضاً.

- كوليرا نشتريها، مرض.

- ماذا ؟

- أقول إنها مرض نشتريه - وأشار ميخائيل إلى رأسه- ندفع النقود.

- بالضبط.

- قبل خمس سنوات لم أكن أفهم شيئا . شربت ، أم لم أشرب ، في الصباح أنهض وأمضي. أما الآن فما إن آوي إلى فراشي، إذا ما كنت صاحيا، حتى يدب في قلبي الخوف مسبقا: كيف سأنهض غدا؟ تشربها- العدوى- كؤوسا، لكنها تخرج قطرات.وذلك بعد أن تعصرك عصرا، فلا تعود إنسانا. تبصق وتفكر: ربما لم يبق منها هناك إلا القليل، المهم أنك بصقتها، مهما كانت قليلة، وهكذا تمضي حياتك كلها نهبا للعذاب.

وتذكر إيليا:

- يوجد نكتة بهذا الخصوص : أرسلت أم ابنتها للبحث عن الأب - أجل «اذهبي إلى الحانة ، فلا بد أنه هذا الكيت وكيت، هناك من جديد ». ومن البديهي أنه كان هناك. وأين يمكن أن يكون؟. ذهبت الفتاة إليه : «لنذهب إلى البيت يا أبي، فقد طلبت أمي ذلك ». وبعد أن أصغى إليها ، ناولها الكأس: «اشربي». لكنها ترفض، وتقول إنها لا تشرب، وإنها لا تريد . فعاد يطلب منها : «هيا اشربي» . أخذت الفتاة رشفة من الكأس، وبدأت تسعل، وراحت تلوح بيديها، وازرقّ لونها : « وي كم هي مرة! ». وهنا قال لها: «وهل كنت تظنين أنت وأمك أنني أشرب العسل هنا؟».

ضحك ميخائيل:

- لكن، هنّ يعتقدن اننا نشرب العسل، يعتقدن اننا في غاية السرور من ذلك.

- ألم تكن تعرف هذه النكتة؟

– كلا ، لم أكن أعرفها. إنها نكتة صائبة تماماً، من واقع الحياة – وصمت ميخائيل. ثم أومأ برأسه متأملاً كل ما دار الحديث عنه، وقرر أنه لم يعد ثمة داع للتأجيل : إذن يا إيليا– قال ذلك وأخرج الزجاجة من خلف القن– لابد من النقاهة .

– لقد جلبتها. – تهدج صوت إيليا ، بحيث كان من الصعب أن تميز إن كان خائفا أم مسرورا.

– كنت مارا من هناك، فعرجت، لكي لا أضطر إلى الجري فيما بعد.

– ربما من الأفضل أن لا نشرب الآن؟

– أنت وشأنك، أما أنا فسأشرب، فلن أستطيع الصبر حتى المساء. فالخمار يمكن أن تهرسني. إنني بصعوبة أتنفس . وستضطرون حينذاك لان تدفنوني بدلا من والدتنا .

– وكيف هي الأم هناك؟

– لا أعرف يا إيليا. لا أستطيع أن أخبرك بما لا أعرفه . لم أعرج عليها. أمرها، لا بأس به على الأرجح، وإلا لكنّ قد هرعن وأخبرننا.

– هذا صحيح، لكنَّ أخبرننا.

فتح ميخائيل الزجاجة:

– طيب، هل أصب أم لا؟

– حسنا– صب، للمشاركة.

– أحسنت.

– ألا يوجد ما نتملح به؟

لا يوجد شيء. اذهب أنت إذا كنت تريد، أما أنا فلن أذهب . دعنا منهن، فهن يعتقدون أننا نشرب العسل هنا.

- أشعر بالحرج من البحث هناك ..

- وهل أنت غريب؟ تأخذ المطلوب، وتعود.

- طيب، دعنا هكذا، لا بأس بذلك.

- لا بأس طبعا، سوف نموت إن شربنا وسنموت ان لم نشرب، إذن فالأفضل أن نشرب ونموت - قال ميخائيل ذلك كمن يصلي، ثم شرب الكأس، وانتظر باهتمام مكتوم إلى أن تعثر الفودكا على مكانها، وعندها فقط أنزل الكأس علي القن بحذر- إنهن يعتقدن أننا نشرب العسل هنا- كرر بصوت محتبس الكلمات، التي كانت تدفئ روحه أكثر فأكثر.

أما إيليا فكان جالسا على سريره، يراقب ميخائيل مقطبا . ثم سأله باهتمام

- كيف وجدتها؟

- شقت طريقها، الكوليرا. وأين تذهب؟ اشرب، لا تؤجل ذلك، وإلا ستتوقف في حلقك، ولن تتمكن من دفعها. فالكأس الأولى يجب أن تشرب دائما بمباغتتها.

أخيرا شرب إيليا أيضاً. شرب، ومن جديد راح يلوح براحة يده قرب وجهه، كما يلوح المرء عند الوداع، تلك كانت عادته . البارحة وجد فيها ميخائيل تسليه، فلوح مرتين أو ثلاثا مع أخيه، مودعا الفودكا، لكي لا يكون هناك أي زعل، لكنه لم يجد في ذلك أي شيء ممتع. أضف إلى هذا أن الغلبة كانت لعادته - أن يكون أول من يشرب، وبعدها كان ينسى كل أنواع الوداع، وإن كان ذلك يمكن أن يعني شيئا آخر بالنسبة لإيليا. لم يسأل ميخائيل، وكيف له أن يسأل عن ذلك؟

وإذا ما تأملنا الحمام ملياً فإنه كان أشبه بالمطبخ، ليس بسبب القن فقط. ثم إنه لم يكن حماما حقيقيا، فالحقيقي، هو ما كان في الحاكورة. وقد احترق منذ ثلاث سنوات. وبعد ذلك جهز ميخائيل بشكل مؤقت، العنبر، الواقع في طرف الحاكورة، . ولم يكن فيه الرف المخصص لأخذ حمام البخار، وبدلا من الموقد كانوا يستخدمون مدفأة معدنية، لتسخين الماء،

وهكذا لم يكن فيه من الحمام إلا الاسم. ومع ذلك كان لا بأس به، وكان ميخائيل يذهب إلى جارهم إيفان لأخذ حمام البخار. ولم يقرر بناء حمام جديد، وهل ذلك بالأمر السهل؟ وفي رماد الحمام السابق كانت البطاطا تنمو، للعام الثالث على التوالي، وتثمرحبات كبيرة تسر الناظرين. فبينما تكون حبات البطاطا في القرية كلها لا تزال صغيرة جدا، تأخذ ناديا من هذا المكان الحبات الكبيرة الناضجة. لقد صدق من قال: رب ضارة نافعة، ورب نافعة ضارة.

كان ميخائيل جالسا قرب النافذة، فرأى من بعيد بربارة وهي تندفع نحوهما، باتجاه الحمام، كما الدبابة، وبعد أن أطلق شتيمة، خبأ الزجاجة. تجاوزت بربارة العتبة، وضيقت عينيها- فبعد الخارج بدا لها الحمام مظلما تماما.

وسألت بعد أن تأملت ميخائيل:

- أهذا أنت؟

- كلا لست أنا، إنه عيسى المسيح.

- آف منك ! فمن أين لي أن أعرف إن كنت هناك، أم لا؟ كنت أظن أن إيليا وحده. أتيت لأقول له إن أمنا أصبحت تجلس.

- تجلس ؟

- تجلس، تجلس. نظرت، فلم أصدق عيني. إنها تجلس، وتنظر، وقد أنزلت رجليها...

- وهل تحتفظ برأسها فوقها؟

قالت بربارة تلومه:

- لا تهزأ يا إيليا. لا داعي لذلك. لا يجوز أن تقول مثل هذا عن أمنا. إنها أمنا، وليست أيا كان.

- وما الذي جعلك تعتقدين أنني أسخر؟

- اذهبا، وانظرا بأم عينيكما. إنها تجلس. من كان يظن أنها ستجلس؟ كانت بربارة تتوق لأن يرى أخواها بدورهما أمهما فيبتهجا. ولذا فقد كررت:- هلا ذهبتما .اذهبا، والقيا نظرة على أمنا، وهي جالسة. وإلا قلتما فيما بعد إن بربارة اختلقت ذلك. ١٠١

لكن ميخائيل اعترض:

- وما الداعي للنظر، دعيها تجلس.لا داعي لمضايقتها كثيرا. لكن انتبهن لها. كي لا تقع.

- كلا، كلا، فهي تجلس بشكل جيد.

- سنأتي فيما بعد. سنأتي قريبا - وعد إيليا.

تلفتت بربارة يمنة ويسرة، وإذ لم تجد ما تقوله، همت بالخروج ، لكن ميخائيل أوقفها:

- هل ناديا هناك في البيت، أم لا؟

- في البيت. الجميع في البيت. وليوسا وأمنا في البيت.

- تقولين إن أمنا أيضاً في البيت؟.

- أفّ منكما - همهمت بربارة - لا تعرفان إلا الإزعاج. إنني ذاهبة.

- اذهبي ، اذهبي. احرسي الأم هناك، وإلا فقد تهرب، ونضطر للبحث عنها لاحقا.

نزلت بربارة عن عتبة الحمام بخوف، فقد كانت عالية، ولسبب ما لم يخطر ببال أحد أن يضع أمامها، ولو كتلة خشبية، ثم توقفت قليلا، وهي تفكر إلى أين تذهب الآن. بعد الحديث مع أخويها نقصت بهجتها قليلا، وقد حرمتها من الهدوء. ولو أن الأخوين ذهبا إلى الأم، لاختلف الأمر: إذن لذهبت معهما ترى بأم عينيها مدى دهشتهما لرؤية الأم، التي قلما كانت تستطيع الرقود البارحة، تجلس صباح هذا اليوم كالإنسان

المعافى تماما. لكن الأخوين بقيا في الحمام، ما الذي يحببهما بـه، كأنـه أغلى من أمهما، ولم تعد بربارة تعرف ماذا تفعل. وإذ تذكرت حلمها عن الفطائر تملكها القلق تماما. يالله من حلم سيئ، من يمكن أن تسأله عنه، من يمكن أن يعرف؟ فالحديث مع ليوسا غير ممكن- تذكرت كيف تـذمرت منها، أمنا ناديا فغارقة في الشغل، ولا وقت لديها. تحركت بربـارة مـن المكان، الذي كانت تقف فيه، وتوقفت في آخر، ثم راوحـت فـي مكانهـا بارتباك، وهي تتلفت يمنة ويسرة. وبعد ذلك فقط قـررت الخـروج مـن البوابة ، - فهناك الناس.

لم تكد بربارة تعبر العتبة خارجة، حتـى أسـرع ميخائيـل فوضـع زجاجته على القن، حتى أنه دقها بلطف كي يتمتع برنينها. ومنذ أن جـاء إلى هنا اصبح أكثر مرحا، وتخثر وجهه، وانتعشت عيناه ، فاستعد:

- وهكذا يا إيليا. يبدو أن الأمور بدأت تتحسن. إنه الوقت المناسب لشرب المزيد، المهم أن لا نتأخر، وإلا فقد تحاول اللحاق فيما بعـد، دون فائدة .

- لم أعد أستطيع بدون لُمْجة(%). - قال إيليا رافضا - حتـى ولـو كانت قشرة للشم - أجل، إنها تكفي. أما على هذا النحو ففيه الموت الزؤام. واحد ، اثنان - وانتهينا . لا توجد أية متعة .

- ما رأيك باقتلاع بصلة من الحاكورة؟

- البصلة لا يمكن أن تنقذنا أنا وأنت . هذا أكيد. حتى انه ليس لدينا ملح.

وافق ميخائيل:

- مع اللمجة أكثر أمانا بالطبع - وصمت متحسرا - سـننتظر،مـا العمل ! لا رغبة لي في الذهاب إلىهناك الآن أبداً .سـيبدأنَ مـن جديـد. عندما تخرج ناديا إلى مكان ما سأذهب .

(%) اللمجة : ما يتعلل به قبل الطعام.

- اشرب أنت، إذا كنت تريد.

- سأنتظر. ما من داع للعجلة، إنني لا أحب أن اشربها وحدي، فهي - الكوليرا - أكثر شرا. من الأفضل أن لا تواجهها بمفردك، لقد درستها جيدا.

- يقولون إنه من الأفضل الابتعاد عنها.

- يقولون يا إيليا ، يقولون، وأنا بدوري سمعت . الناس يقولون الكثير، فجرب أن تصغي لكل ما يقال. بالطبع فإن من لا يشربها لا يحتاج لها، وليبق بدونها، أما من ارتبط بها، ومن يشتهيها - لا أعرف...هز ميخائيل رأسه طويلا- لا أعرف يا إيليا ، لا أعرف. لسوف تجنبك على كل حال - هذا ما اعتقده . فهي - الكوليرا- قوية جدا،جرّب أن تتغلب عليها يمكن أن تضني نفسك معها ، لم أعد أعلّق على هذا كبير أمل. حين كنت شابا كم مرة قطعت على نفسي عهدا بتركها، وفيما بعد توقفت، فما الداعي لخداع النفس والآخرين . عبثا. والآن أنا أفكر: سواء أكان هذا الأمر جيدا، أم سيئا ، فلا مناص لي منه في كل الأحوال. إذن لا داعي للمحاولة، وإضحاك الناس. وإنه، بالطبع يجب أن يتقن المرء الشرب، كما في أي أمر آخر. أما نحن فنظل نشربها حتى نرتوي، كأنها ماء.

- يجب أن يتقن المرء الشرب، هذا صحيح.

- وهل تشرب كثيرا؟

- إنني أسوق السيارة، ولذا لا يجوز أن أشرب بكثرة . في المدينة القانون صارم بهذا الشان - أجل. ثم إن امرأتي لا تطيقه أبدا . وحين أكون بدون السيارة وبدون المرأة، أشرب من كل بد حتى الثمالة.

ألقى ميخائيل نظرة جانبية على الزجاجة ، للتأكد أنها لا تزال موجودة، وسأل:

- هل لك أن تشرب على كل حال؟ وفيما بعد ستأكل أكثر.

- كلا لا أستاطيع. اشرب أنت، ولا تنظر إلي.

- إنني، مع هذا، سأتناول القليل، فقد بدأت معدتي تمتص... وصب بالفعل قليلا في الكأس، ودون أن يوقف يده، دلق محتواه في جوفه فورا، كأنه يستعجل شرب مادة كريهة . - هكذا- زفر بصوت عال هكذا أسهل. وكما يقولون : اشرب قبل شوربة السمك الطازج، واشرب بعد شوربة السمك الطازج، ثم اشرب في تأبين شوربة السمك الطازج. فاشرب، إذن ، ولا تخف.

- آه ، من لي الآن بشوربة السمك الطازج - أجل.

- ومع هذا فلماذا نشرب ؟- لم يتشوش ميخائيل، وهز رأسه لنفسه، وانتظر أن يقول إيليا شيئا. لكن إيليا ظل صامتا- يقولون إننا نشرب لشقاء حياتنا، ولأسباب حياتنا، ولأسباب هذا وذاك. أبداً. كل هذا يأتي في المرتبة العاشرة. ويقولون حسب العادة، وإن العادة هي الطبع الثاني للإنسان. صحيح أننا اعتدنا عليها، كما اعتدنا على الخبز، الذي لا نجلس إلى المائدة بدونه، لكن هذا أيضاً ليس كل شيء، فلهذه العادة أيضاً سببها . برأيي أننا نشرب لأن الحاجة إلى الشرب ظهرت الآن. في الماضي ما الذي كان يأتي في رأس القائمة؟ الخبز والماء والملح. والآن أضيفت هذه الكوليرا، إلى هنا- وأومأ ميخائيل برأسه باتجاه الزجاجة- الحياة الآن تختلف تماما. فقد تغير كل شيء. ولقد تطلبت هذه التغيرات إضافات من الإنسان. إننا نتعب كثيرا، وأقول لك ليس بسبب العمل، بقدر ما هو، الشيطان وحده يعرف السبب. لقد أمضيت أسبوعا بدونها، فتراني بصعوبة أجرجر قدمي، وحالتي سيئة. لكن ما إن شربت حتى شعرت وكأنني تحممت في الحمام، وألقيت عن جسمي مئة بود[1] من الأدران .

أعرف أنني مذنب قلبا وقالبا؛ ففي البيت تقاتلت مع امرأتي، وأنفقت آخر ما لدي من نقود، في العمل تغيبت كثيرا، وطفت عبر القرية أتسول - شيء مخجل ، لا أستطيع أن أرفع رأسي. ومن جهة أخرى أشعر

---

[1] البود وحدة وزن روسية تعادل ٣٨، ١٦كغ.

بالارتياح . أسوأ من جهة وأفضل من جهة أخرى. فأذهب إلى العمل من جديد، لأكفرعن ذنوبي. أعمل يوما وثانيا وخامسا، أكد عن ثلاثة، ومن أين تأتيني هذه القوة؟ إذن يبدوأن الأمورعادت إلى نصابها، وان الخجل يتلاشى رويدا رويدا، وأصبحت الحياة ممكنة. المهم أن لا تشرب. كلا. من جهة الآن أسهل، ومن جهة أخرى- يزداد الأمر صعوبة ويزداد. إنها تغريك وتغويك- لوح ميخائيل بيده - فعادت حليمة لعادتها القديمة، إذ لم أطق صبرا. لقد تعبت إذن، وبدأ جسمي يطالب بالراحة. ولست أنا من يشرب، بل إنه هو الذي يشرب. انه بحاجة لها حاجته للخبز، لأنه يشعر بمثل هذه الحاجة لها. ما رأيك؟

وافق إيليا:

- الحاجة. هذا صحيح . فلنشرب دفعة واحدة حسب قدرتنا وحسب حاجتنا. لنشرب الكمية الممكنة .

وتابع ميخائيل:

- وكيف لا نشرب؟ تصبر يوما وثانيا، وحتى أسبوعا - هذا ممكن. أما أن تصبر، فلا تشرب ما دمت حيا؟ هذا لعمري لا يطاق ؛ فلا شيء أمامك، والأيام نسخة طبق الأصل. كم من الحبال تكبلنا في البيت والعمل، فتمنعك حتى من التأوه، وكم كان يجب أن تنجز، ولم تنجز، أنى نظرت من حولك لا ترى إلا هذه ال يجب، يجب، يجب . ومع مرور الزمن تزداد هذه الـ يجب، فلتذهب إلى الجحيم. لكن ما ن تشرب حتى تجد نفسك حرا طليقا، بعد أن أنجزت كل ما يلزم. أما ما لم تقم به فلا داعي للقيام به، وحسنا فعلت انك لم تقم به. فأنت تشعر بالارتياح ومن يرفض أن يشعر بالارتياح، أي غبي؟ فالمشروب هو في البداية دائما كالعيد، المهم أن تعرف حدوده.

- لو كنا نعرف حدوده، إذن لكان نصف ما يفعله بنا غير موجود.

- صحيح انه لكان غير موجود. ومن جهة أخرى قل لي الآن، مثلا، يكفي، توقف- فهل سأتوقف؟ على الرغم من انه يكفي فعلا: يبدو أنني

ارتحت، والآن، من الواضح أنها ستذهب الآن بالاتجاه الآخر. ومع هـذا فإنني بحاجة. إن هذا طبعي. لا داعي لأن تقف في وجهها قبـل أن تأخـذ منك ما تريد. فهي لا تحب التوفير، والقيام بنصف العمل فقط، بل تريد أن ترتوي، أن تبلغ مرامها.

– كم تحصل في الشهر ؟

– أحصل من ماذا؟ من الخمرة ؟

– إنك تشرب الخمرة دون حاجة إلى دائرة المحاسبة، أنـاأعرف، إنما أسأل عن راتبك– أجل. كم تقبض من النقود شهريا؟

– الراتب..إنه ليس ثابتا يا إيليا. والرواتب اليوم، إذا كنت تريـد أن تعرف، ليست رواتب أيام زمان. الميكانيكيون لدينا يغرفون ، أمـا نحـن، الذين نسير على أقدامنا، فقد قلصت أجورنا. فأنـا لا أقـبض إلا نـصف الراتب السابق، الذي كنت أتقاضاه في سنوات عملي الأولى .

في الماضي كنت تستطيع الخلود للراحة، بعـد تحميـل صـندلين(%) ثلاثة. صحيح أننا كنا نعمل. أوه كم كنا نعمل، ليس كما هي الحـال الآن. بأيدينا كنا ندحرج هذه الأخشاب . أما الآن، فالروافع . أما أنت فيقتـصر دورك على الالتقاط بالخطاف وفك الخطاف، لكن انتبه كي لا تهرسـك . وعلى هذا النحو، فقد حلت الآلة محل الناس في كل مكان.

– إن الأمر أسهل مع الآلة .

– أسهل طبعا، لا أحد يجادل. أسهل بكثير. فلا نرهـق أنفـسنا . – فكر ميخائيل مليا، وفجأة قال بحرارة: – ومع هذا فقد كانت الحيـاة أمتـع آنذاك. لنأخذ تلك الصنادل إياها. كنت أحب هذا التحميل، حتى ليس بسبب النقود، علما أن النقود كانت تدفع، ولم تكن بالقليلة، بل بسبب العمل نفسه. كنا نبقى يومين على الضفة لا نغادرها، إلى أن نحَمِّل كل شـيء هنـاك. وكان الأولاد يأتوننا بالطعام في المزاود، فنأكل. ومن ثم نعود إلى التحميل

(%) الصندل هنا سفينة نقل نهرية قاعها مسطح.

من جديد. كانت ثمة حماسة، فكنا نعمل دون كلل أو ملل. فمن أين كان يأتي ذلك!؟ كنا نستمتع بالعمل، نعتبره حيا، وليس كما هو عليه الحال الآن، المهم أن يمضي اليوم.

– حينذاك كنت أفتى وأقوى.

– أفتى، أفتى... لكن السر لا يكمن هنا. تذكر كيف كنا نعيش زمن التعاونية، إنني لا أقصد كم كنا نقبض. كان يصدف أن لا نقبض ولا بارة. إنما أقصد كم كنا متآلفين، ونتحمل معا كل شيء – الصالح والطالح. وذلك بفضل التعاونية. أما الآن فكل شخص يعمل لوحده . وماذا تريد : الأقربون رحلوا، وتقاطر الأغراب. فأنا الآن، أجدُ أناساً كثيرين في قريتي، مسقط رأسي، لا أعرف من يكونون. يبدو وكأنني أنا نفسي أصبحت غريبا، انتقلت إلى مكان لا أعرفه.

صرّ باب العزبة، فرفع ميخائيل رأسه. لم تكن ناديا هي التي خرجت، بل نينكا. تلفتت يمنة ويسرة، وإذ لم تر أحدا، دارت حول كدسة الحطب، واختبأت خلفها على عجل. انتظر ميخائيل إلى أن انتهت نينكا من قضاء حاجتها، ثم مد رأسه من الباب:

– نينكا– تعالي هنا.

– لماذا؟ – خافت الصغيرة. فهي لم تتوقع أبداً أن يكون ثمة من يراقبها من الحمام.

– تعالي، تعالي يا عزيزتي، سوف تعرفين كل شيء.

– لن أفـ علـ ـ ها ثانية .

– تعالي أقول لك، قبل أن أضربك.

صعدت نينكا إلى الحمام بجنبها، وهي تتلفت، وراحت تلهث مسبقا.

– كم مرة يجب أن يقال لك كي تعرفي المكان للازم؟ هل ستسقط رجلاك إذا ما جربت إلى حيث يلزم؟

– لن أفـ علـ ها ثانية .

– "لن أفـ علـ ـ ها ". لا تعرفين إلا هذا. لقد مللت مـن الحـديث معك. الآن سأوسعك ضربا، كي تذكري. أما العم إيليا فسيرى إن كان ذلك يعجبك، أم لا. إنني أعرف أن لديك مكانا يحكك مـن زمـان. إذن فلنلـبّ طلبه، ونحكه، مادام يحتاج إلى ذلك.

ازداد لهاث نينكا قوة.

– لماذا أنت ساكتة ؟

– عندها سأقول لمامتي إنك تشرب الخمرة هنا– حذرته نينكا بصوت سريع، وعينها على الباب، لكي تولي الأدبار . وثب ميخائيل وقال:

– سوف أعلمك، الآن سأعلمك بحيث لا تعرفين مامتك . هل علمناك الكلام لكي تشي بأبيك ؟ ستقول لمامتها! – وشكا إيليا – يا لها من قملة، لا تزال قزمة، ومع هذا لا يستهان بها . هلا نظرت إليها.

– إذن لا تقاتل.

– لا أحد يقاتلك، فاسكتي . علما أنه كان يجب ضربك للذكرى على هذه الملاعيب.

أشفق إيليا على نينكا:

– حسنا، دع الصغيرة وشانها، فهي لن تفعلها ثانية .

– هل ستفعلينها أم لا ؟

– لن أفعلها. – وَعَدتَ نينكا برشاقة، ثم رفعت رأسـها، وراحـت عيناها تتلفتان يمنة ويسرة، لتلحظا كل ما لم تتمكنا من ملاحظته سابقا.

– يالك من شيطانة. "لن أفعل" – وانتهي الأمر، نجوت بجلدك.إنك كما الديك، يصيح دون أن يهمه طلوع الفجر. أليس كـذلك؟ انتظـري، لا تتسرعي. سوف تلحقين. كان بودي أن أضربك لكن العم إيليا لا يريـد . ولقاء ذلك يجب أن تأتي لنا، أنا والعم إيليا بشيء يؤكل. هل فهمت؟

– فهمت.

– لم تفهمي ولا كوليرا.

– سوف أطلب من مامتي فتعطيني.

– عادت إلى اسطوانتها. ستقول لمامتها. أولا تستطيعين ذلك بدون مامتك؟ انسها. انسها تماما. اجلبي لنا بحيث لا ترى مامتك ولا تسمع. والآن هل فهمت؟

– الآن فهمت.

– انظري هناك على الطاولة أو في غرفة المؤونة، وهاته بهدوء. وفيما بعد سأعطيك زجاجة مقابل هذا – ووضع ميخائيل زجاجة الأمس جانبا.

وتحمست نينكا:

– نعم. تعطيني، ثم تستردها.

– لن أستردها، لن أستردها. اركضي.

– لكنك استعدتها تلك المرة.

– في تلك المرة استعدتها، أما الآن فلن أفعل. ان لدي زجاجاتي الآن. ان العم إيليا شاهد على أنني لن أستردها .

– إنني شاهد – ضرب إيليا بيده على صدره.

ظلت نينكا واقفة .

– ماذا بك؟ هيا اركضي.

– أريد اثنتين– صوبت نينكا نظرة سريعة إلى الزجاجة الفارغة الثانية.

– سأعطيك اثنتين، المهم أن تركضي من أجل المسيح – وضم ميخائيل الزجاجة الثانية إلى الأولى.

جلبت نينكا رغيفا من الخبز، وقد غطته بطرف ثوبها، لا شيء آخر، لان أمها طردتها من عند الطاولة، التي راحت تحوم حولها، أما بالنسبة للرغيف فقد كان الأمر أسهل، إذ كان يرقد في غرفة المدخل، حيث احتفظت به ناديا للفطور. بالطبع الخبز أفضل من لاشيء . لكنه كان قليلا لمشروب الصباح. وهنا تذكر ميخائيل أن ثمة دجاجتين أو ثلاثا يبضن في الحمام، فوق رأسه بالذات . صعدت نينكا، ونزلت وفي طرف ردائها خمس بيضات، مع بيضة قديمة ، كانت ترقد هناك منذ الربيع على الأرجح، وقد ابتلعها ميخائيل بعد الفودكا، كما هي عادته، أن يبتلع كل شيء دفعة واحدة، دون أن يميز ماذا يبتلع . وعلى الرغم من أن معدته لم تكن خاوية فان عينيه برزتا من محجريهما، وبدأ يشعر بالغثيان، ولذا فقد سارع إلى كسر هذه اللمجة بالفودكا من جديد، كي يغسل حلقه، ولفترة طويلة ظل يسب ويشتم، ولم يعد إلى تناول البيض ، بل اكتفى بالخبز وحده.

أعطَيا نينكا الزجاجة الثالثة، التي كانت مرمية في القن، مقابل البيض، أما مقابل الذهاب لجلب الملح فقد اضطرا لوعدها بالزجاجة الرابعة ، التي كانت توشك أن تفرغ. ومن أجل حراستها لم تغادر الفتاة الحمام. فلم تكن تجد أية متعة في الظهور في العزبة، سيما و انه كان يسمع حتى من هنا، كيف تبحث ناديا عن الخبز، الذي اختفى ، كأنه "قص ملح وذاب" . لاذت نينكا بالصمت، وبعينين صافيتين بريئتين، راحت تراقب الرجلين، اللذين كانت تشعر بأمان تام معهما فقد ربطها القدر بهما الآن بإحكام، وأصبح بوسع ميخائيل أن يطمئن بأنها لن تشي به. ولم يمض من الوقت إلا القليل حتى أفرغا لها هذه الزجاجة أيضاً، فسحبتها وخبأتها هناك، خلف كدس الحطب. ثم راحت كعادتها تتسكع في الحاكورة، وتقترب من العزبة على شكل دوائر. من الواضح أنها كانت تريد أن تأكل.

بعد الفودكا أصبح الحديث بين الرجلين أكثر حيوية، مرة واحدة فقط ترددا، تلكآا، وذلك حين هم إيليا أن يبرر على ما يبدو لأحد ما، تناوله المشروب، بهذا الشكل غير المناسب، فقال:

– وما العمل؟ أعتقد انه لم يبق ثمة داع لبقائنا قرب أمنا – أجل. فأنت ترى بنفسك أنها أصبحت تجلس. ولن تلبث أن تجري.

ولوح ميخائيل برأسه:

- إنها تستطيع ذلك.

– أحقاً ما تقول؟ آه ! لم يكن يخطر ببالي أبداً. فقد كانت ترقد جاهزة، وكأنه لم يبق أي شيء، لكن شيئا ما تفعّل، مرحى لك يا أمي، مرحى لك.

– إن أمنا بارعة .

– لقد احتالت على موتها فعلا.

– أما أنا فأقول يا إيليا إنها أخطأت في ذلك. كان الأفضل لو أنها ماتت الآن. أفضل لنا ولها. إنني إنما أقول هذا لك وحدك ...فما الداعي لان نخفي على بعضنا؟ إنها ستموت على كل حال. والآن هو الوقت الأنسب. فقد جاء الجميع، وتم الاستعداد . مادامت قد همت كان يجب إتمام الأمر، لا أن تضللنا . لقد صدقتها، وصدقتموني انتم – وهكذا دواليك.

– ما هذا الذي تقول ؟ – اعترض إيليا – دعها تمت حين تموت، فالأمر ليس بإرادتها.

– أنا، أقول، انه كان من الأفضل. أتحدث عن الفرصة. طبعا لا يمكن أن تطالبها أن ترحل هذا اليوم، ولا مجال للنقاش.إن هذا الأمر من نوع متميز. لكن سترحلون، فتبقى قليلا، ثم ترتاح على كل حال. تذكر كلمتي: ليس ما جرى لها عبثا . من جديد سأبرق لكم، ولن يكون لديكم المزاج اللازم. قد يأتي بعضكم، لكن البعض الآخر قد لا يأتي فتكون النتيجة أسوأ بعشر مرات. قبيل الموت لا يمكن أن تشبع من الحياة.

– وكيف لا نأتي ؟

– كل شيء وارد. فها هي تاتيانا ، لم تأت إلى الآن.

– تاتيانا – أجل، كأنها عرفت، فلم تستعجل.

– إن المشكلة أنها لم تعرف وغير مستعجلة. وإذا انصرم هذا اليوم أيضاً دون أن تصل فان أمنا ستفقد عقلها. لقد أضجرتنا بتانتشورتها : تارة تراها في المنام، وأخرى لا أعرف كيف. أنت لا تعيش هنا فلا تعرف .

– ستأتي. ان تتلقى برقية كهذه ولا تأتي، لا أعرف كيف يسمى هذا.

– إذا ما جاءت شربنا. يجب أن نستقبلها كما يليق، فهي أختنا.

– سنشرب– أجل. وأين المفر؟

– وحتى لو لم تصل، سوف نشرب– استدرك ميخائيل – سوف نشرب على الحالتين يا إيليا ولا خيار لنا.

وبمرح تأملي أيده إيليا:

– وما العمل الآن؟ فنحن لن نذلقها.

– ومن يسمح لنا بذلقها إنها مسألة رسمية . انها مسألة هامة .

– الآن لابد من الشرب، أردت أم لم تُرد.

– انك تتحدث بشكل طريف يا إيليا ."لا تريد" . لا يجوز طرح المسألة على هذا النحو. سنشرب– ولماذا لا تريد ؟ سنشرب ما دام ذلك لازما– قال ميخائيل بإصرار– ألا نستطيع أن نأخذ على عاتقنا التزاما كهذا؟ فنحن لا نرى بعضنا، أنا وأنت، كل يوم.

– نستطيع، وكيف لا نستطيع؟

– هذا شيء آخر.

ومن جديد تحول الحديث في الاتجاه القريب إليهما، الجذاب والمناسب لكليهما. لاشك انه زاد من حماسة الرجلين . وكان لابد من العودة إلى الشرب – سيما وان الفودكا كانت في متناول اليد، وتكفي لأن

تغرق فيها، وقد دفعا ثمنها مسبقا. وبحجة أن عليه أن ينتعل حذائه، أخذ ميخائيل على عاتقه القيام بغارة جديدة على غرفة المؤونة . فخرج يلمع بكعبيه العاريين، بينما لف إيليا الفراش، الذي أمضى فيه الصباح كله، ثم خرج إلى الفناء.

لم يتمكن ميخائيل من الوصول إلى جزمته هذه المرة. في البداية عرج على غرفة المؤونة، عرج، واسودت الدنيا في عينيه: فقد كان حوالي نصف الصندوق منهوبا دون ضمير. فهل هذا وقت التفكير بالجزمة؟ تناول ميخائيل الصندوق، الذي خف ثقله، وعاد أدراجه : ما دام قد بقي شيء يمكن إنقاذه ، فلا بد من انقاذه، وإلا فمن المحتمل أن لا يبقى شيء بعد دقيقة.

في الحمام أطلق لنفسه العنان – راح يسب ويشتم، كان من الواضح، وضوح الشمس في رابعة النهار، أن الأهل هم من خبأ الزجاجات، لكن هذا لن يسهل عملية استردادها. ليس الوقت مناسبا الآن لوضع السكين على العنق والتهديد: هاتوها وإلا. البارحة اشتروا الفودكا لسبب آخر، واشتروها بالأموال العامة . صحيح أن الرجال أحق بها من النساء، فهم رجال، لكن هذا الحق للصاحين فقط، أما حقوق السكارى فموضوع شك دائم، كما هو معروف.

وهكذا اضطر للتظاهر وكأن شيئا لم يكن، وان كل شيء في مكانه، مع انتظار الفرصة السانحة .

ما إن فتحا الزجاجة الجديدة، حتى جاءت نينكا باكية، وأعلنت من على العتبة :

– مامتي سيئة.

–إن الشفق قليل على مامتك – رد ميخائيل، الذي لم تكن سورة غضبه قد هدأت بعد.

– دعنا يا أبي نشفقها ونتفرج

– لم أكن لأتوانى، لكن ذلك سيكون شرفا كبيرا لها.

وسأل إيليا نينكا:

- وماذا فعلت بك؟

- تقول إنني أنا من سرق الخبز، إنها لم تر شيئا بعينها، لكنها تقـول أنها رأتني.

فحذرها ميخائيل:

- إنها تريد الإيقاع بك. لا تعترفي .

- وهذا ما فعلته، فقلت لها: اسألي حتى أبي، وحتى العم إيليا .

- لقد أخطأت في هذا. ما كان يجدر بك أن تشيري إلينا. عليـك أن تفهمي أننا لا نتمتع بأية هيبة هناك الآن. لا جدوى. لقد أخطأت في هذا .

- إنها سيئة - همهمت نينكا.

- طيب وما نفع الكلام. ربما يكون لدي من الاعتراضات عليها اكثر مما لديك.

- إنهن يقلن عنكما إنكما سكرانان، وإنكما ستبقيان طويلا - أبلغتهما نينكا- ويقلن عنك يا أبي انك سكير، لا أكثر. وانك أنت المذنب فـي كـل ذلك.

هز ميخائيل رأسه بلوم مشوب بالمرارة:

- يا لهذا الذي يثرثرن به بحضور الصغيرة. لا يفهمن شيئا: يجوز، لا يجوز...لا تصغي إليهن- طلب إلى نينكا - إنهن يثرثرن كثيرا هناك. من تصدقين: نحن أم هن؟

- أنتما.

ـ هكذا. تمسكي بنا، فلن تضيعي، ولا تصغي إليهن.

انصرف الرجلان إلى الزجاجة من جديد. أما نينكا، التي زادها كلام أبيها شجاعة ، فقد بقيت تدور هناك، وتناولت كأسه المملوءة بالفودكا، ثم

شمته، ونخرت، وبعد ذلك شمت الكأس الفارغة، ونخرت أيضاً. وراحت تتدخل في الحديث، وكأنها ند لهما، وهي تراقب بعين ثاقبة كيف تتناقص محتويات الزجاجة، وتشجع الرجلين على صب المزيد. شعر ميخائيل بالرثاء لها، فلم يطردها من عنده . وقد تبين انه كان مصيبا.

فقد سألت نينكا:

– وهل يقبلون الزجاجات غير المسكوبة في المخزن يا أبي؟ – اضطرت لان تطرح هذا السؤال ثلاث أو أربع مرات، لان ميخائيل كان يتحدث مع إيليا. ولم يكن مهتما بكلام نينكا الفارغ . وأخيرا توقف عن حديثه، وسألها:

– أية زجاجات غير مسكوبة تقصدين؟

– تلك التي لا تنسكب. لقد حاولت سكبها، لكنها لم تنسكب،

وسأل ميخائيل، وهو لا يزال في واد آخر:

– وما الذي حاولت سكبه منها؟

– الخمرة .

– وأية خمرة؟

– ما كان يجب أن تقول إنني من سرق الخبز. مادامت لم ترني فلا داعي لأن تقول.

–أية خمرة حاولت أن تسكبي؟ – انحني ميخائيل فوق نينكا، وأمسك بها بين يديه، لكنه أمسك بها بحذر وحنان، كي لا يفزعها.

– أية خمرة، أية خمرة ! الخمرة التي في الزجاجات، لكن الزجاجات لا تنفتح أبدا.

وسأل ميخائيل، وهو يتبادل النظرات مع إيليا:

– ومن أين أخذتها؟

لم تكن نينكا تنوي إخفاء أي شيء. فقد كانت في غاية الارتياح لأبيها اليوم، فأخبرته:

– أنت أعطيتني. أما منها هي فقد أخذت بنفسي. لن تقول عني. ما دمت لم تراني فلا تقول.

– حسنا. وأين هي الآن، تلك الزجاجات التي أخذتها منها؟

– إنها في الطحين.

– أين؟

– في الطحين. كانت مخبأة في غرفة المؤونة. انها هي من خبأها. لقد ظنت أنني لن أعثر عليها، لكنني عثرت عليها قبلها. يوجد هناك قفص، وكانت موجودة في القفص. ولا يزال هناك .

– مفهوم– بطبط ميخائيل– كل شيء مفهوم الآن. تقولين إنها لا تنسكب ؟ كان يمكن أن تسكبها – أطلق أنينا– وأين رحت تسكبينها؟ على الأرض؟– كان يسألها وهو يعبس من الألم، إذ يتصور الفودكا، وكأنها ماء لسقي الدواب، منسكبة على الأرض، فيتشربها الخشب[1].

– كلا، لقد أردت سكبها في الطحين، لكي لا ترى البلل.

لم يعد بوسع ميخائيل متابعة لعبة الغميضة. فطالب نينكا مهددا بإصبعه المتراقص:

– إياك أن تخبري أيا كان بأمر الزجاجات. هل فهمت؟

– فهمت.

وكرر ميخائيل:

– إياك أن تخبري أيا كان بأمر هذه الزجاجات. هل فهمت؟

– فهمت .

---

[1] المقصود خشب الأرضية – فالبيوت الروسية ذات أرضية خشبية.

- وإلا احذري. إذا ما أخبرت أحدا، أوي، فستكون العاقبة وخيمة.

وحاول إيليا التخفيف من صراحة ميخائيل:

- على كل حال لا يشترونها. إنهم يشترونها فارغة. فهمت؟

- فهمت.

- كم أنت سريعة الفهم، انك تثيرين الحسد لأنك بمثل هذه الفطنة . والآن اذهبي، - اذهبي- راح الأب يطرد نينكا- تنزهي، فلا داعي لان تجلسي هناك مع الرجال. ولا تنسي ما أوصيتك به- إياك أن تخبري أيا كان. يالك من جامعة زجاجات. عليك أن تلعبي بالدمى لا بالزجاجات.

أغلق الباب خلف نينكا، وتنهد:

- إنها فعلا، الكوليرا، كان يمكن أن تأخذها إلى المخزن وتسلمها. يالعقل الأطفال. غير مسكوبة- يا سلام- يا سلام. وهناك كانوا سيدفعون لها بكل طيبة خاطر تلك الكوبيكات العشرين، عبوة ملأنة وبعشرين كوبيكا، وما ضرهم. هات. أجلب لي المزيد. يا للكوليرا الحقيقية، فقد عثرت عليها. يالها من شيطانة، شيطانة حقيقية.

وفي هذا الوقت وصلت نينكا وسط الفناء، وهي تتلفت ، ومن هناك، من علي مسافة مأمونة، هدت باتجاه الحمام:

- بابا سيئ.

وتوجهت إلى أمها.

- ٦ -

في الصباح أمضت ليوسا بعض الوقت مع العجوز كي ترى كيف حالها، وبعد أن أخبرتها بنيتها الذهاب إلى الغابة، بدأت تستعد لذلك. كانت العجوز بعد نهوض نينكا قد أرقدت نفسها في مكانها، وغفت، لكنها إغفاءة خفيفة وهشّة، فلدى أية حركة كانت تفتح عينيها. كان من الواضح أنها أصبحت اليوم أفضل بكثير، وان بالإمكان تركها دون خوف.

لم تكن ليوسا تشعر برغبة كبيرة في الذهاب إلى الجبل، لكنها لم تجد شيئا آخر تشغل به نفسها. فهي لا تستطيع تمضية النهار كله في البيت. في البداية طلبت من ناديا- دون تفكير ملي - أن ترافقها، لأن عليها أن تتحدث معها عن أشياء ما، ولم تكن ليوسا تشعر برغبة في ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان ترك الأم لبربارة وحدها بدا لليوسا محفوفا بالخطر- فهي إنسانة عاجزة تماماً، وليس بمقدورها أن تفعل شيئا، كما لم يعد بالإمكان الاعتماد على الرجلين، لا بل كان لابد من مراقبتهما هنا بالذات، لكي لا يرتكبا شيئا ويزعجان به الأم، فالعجوز لم تكن تطيق السكارى، وكان يمكن أن تسوء حالتها بسببهما.

أمضت ليوسا الكثير من الوقت في التحضير للذهاب، كانت تريد أن يكون لباسها مريحا في الغابة وان يكون مظهرها لائقا، بدون تلك العشوائية في اللباس، والتي تدل على انعدام الكياسة . ليس من أجل الناس - فربما لن تصادف أحدا في الغابة، بل من أجل نفسها - بسبب القاعدة المتأصلة فيها أن تتأنق. فعلى هذا يتوقف مزاجها ، لا بل وشؤونها. كانت

ليوسا تؤمن أن للفشل عينه أيضاً، وقبل أن يصيب أحدا، يراقب هذا الإنسان كيف يقف، كم يساوي، وحتى كيف يبدو بمظهره الخارجي. ونادرا ما يتجاسر على مهاجمة الإنسان الصلب والناجح.

عثرت ليوسا، لدى ناديا، على الكنزة الداكنة المناسبة، لكنها لم تستطع اختيار اللباس الآخر. قدمت لها ناديا سروالها وجزمتها، لكن ليوسا وضعتهما جانبا، فهي لا ترتدي مثل هذا. كم كان سيناسبها الآن البنطال والجزمة التي اشترتهما خصيصا للرحلات إلى خارج المدينة، لكن من كان يعرف أنها ستقوم بجمع الفطر هنا؟ حين استعدت للقدوم إلى هنا، كانت تفكر بشيء آخر. وما كانت على استعداد للذهاب إلى أي مكان، ما دامت لا تجد ما يلبس. لكنها، ما إن سمعت صوت بربارة العائدة من الخارج، وتصورت كيف أنها لن تفارقها طيلة النهار، وستسحب روحها بأنينها، حتى سارعت تطلب من ناديا خفافتها. فليكن، المهم أن تخرج، فلم تكن لديها أية رغبة في البقاء في البيت، ولا برؤية أحد، ولا بالحديث مع أي كان – لا أن تواسي ولا أن تشجع . فأهلها ، أقرب الناس إليها، الذين يجب أن تعاملهم بطريقة أخرى، تختلف عن تلك التي تعامل بها بقية الناس، لم تكن تشعر تجاههم بصلة الرحم، التي تجمع بينها وبينهم. فقط كانت تدرك ذلك بعقلها، وهذا ما أثار غضبها، ليس فقط على نفسها، لأنها عاجزة عن الانسجام الروحي معهم، وعن مشاركتهم فرحة اللقاء، بل وعليهم، وحتى على أمها، التي اضطرت إلى القدوم بسببها عبثا – وبالذات لأنها جاءت عبثا. وكم بقي عليها أن تعيش هنا، لا أحد يعرف. يوم، يومان، ثلاثة ؟ وربما أكثر؟

ولكي لا تلتقي أبناء القرية، تجنبت ليوسا الشارع، وخرجت إلى الزقاق عبر الحاكورة، وتسلقت أول تلة بعد القرية. وكانت قد قررت منذ البداية أنها لن تستعجل، فالمهم عندها هو التجول في الغابة واستنشاق الهواء النقي. وهي ــ من أجل ذلك ــ تقطع في أيام العطلة الكثير من الكيلو مترات إلى خارج المدينة. أما هناك فالغابة في متناول اليدين. انها لا يمكن أن تغفر لنفسها أن لا تنتهز هذه الفرصة السانحة فتتجول في الغابة، سيما وان ذلك لا يحتاج إلى بذل أية جهود: الاتفاق على السيارة، أخذ الطعام،

والانشغال- أما هنا فما عليها إلا أن تنهض وتمشي. أما فيما يخص الفطر، فإنه مجرد حجة، ما دام من غير المعتاد في القرية التجوال في الغابة بلا هدف. سوف تجمعه إن رأته، وان لم تره، فلا داعي له.

صعدت التلة، وتوقفت لتأخذ قسطا من الراحة . وقد بدت لها التلة، منذ انقطاعها عن المجيء إلى هنا، أصغر وأقل انحدارا. وخطر لليوسا ان ذلك إنما يبدو لها فعلا، لأنها نمت وترعرعت هي نفسها، وتغيرت تصوراتها عن الأحجام؛ فما كان يبدو في السابق كبيرا، ضخما، بدأ يكتسب الآن قياساته العادية. أبداً لقد انخفضت التلة فعلا، تذكرت ليوسا كيف كانوا، وهم أطفال، يتزحلقون عنها حتى البوابة.وتلفتت ناحية العمودين المائلين، وهما كل ما بقي من البوابة، وقدرت؛ لا يمكن التزحلق الآن إلى هناك. كلا. وماذا جرى للبوابة، ولماذا هي غير موجودة؟ طبعا، لم يعودوا يزرعون ولا يفلحون، فلا داعي إذن لمنع المواشي، وفتحت الجهات الأربع على مصاريعها. وبالطبع فان البوابتين وراء النهرين العلوي والسفلي قد أزيلتا أيضاً، كما أزيل السياج.

وهنا أدركت ليوسا سبب صغر التلة؛ لقد قطعوها. فهي لم تكن كبيرة، بقدر ما كانت شديدة الانحدار، ضارة ، وتزعج السيارات، وحينذاك على الأرجح جلبوا الجرافة. وها هو الأخدود، يكاد لا يبدو من اليسار، ذلك الأخدود العميق نفسه، بقامة شخصين، والذي يكاد يكون مسيلا، تتجمع فيه المياه الحمراء الطينية هادرة في الربيع، ثم تتدفق على الحواكير.

وكانت جدران الأخدود المغسولة تتأوه لدرجة أن صدى التأوه كان مسموعا. كانت الأمهات لا يسمحن للصغار بمغادرة البيت قبل أن يوصينهم بعدم الاقتراب من الأخدود، وبعد ذلك فقط يوصونهم بألا يفقؤوا عيون بعضهم البعض. ولقد كان يشكل بالفعل خطرا كبيرا ومجهولا على الصغار، خطرا أبعد من أن تراه العين. قليلة هي الأماكن المحرمة في المنطقة، التي لم يقيسوها طولا وعرضا، لكنهم كانوا يتجنبون الأخدود، على الرغم من أن دخوله لم يكن بهذه الصعوبة. وفي وقت من الأوقات بث أحدهم إشاعة مفادها أن قعره ليس بالقعر، بل هو خداع، وان وراءه فراغا

يكاد يقود إلى الجحيم، ولقد ظلوا يتذكرون هذه الإشاعة. ربما لم يكونوا يصدقونها كثيرا، لكنهم يتذكرونها. وهاهم أولاء قد ردموا الأخدود، وسوّوه، فدفنوا كل ما ارتبط به من مخاوف. واختفى واحد آخر من الأماكن الغامضة الذي كان يثير التبجيل، المشوب بالخوف – وأمثال هذه بات عددها يتناقص شيئا فشيئا من الكون.

وإلى اليسار خلف الأخدود حيث يسْوَدُّ القراص، كانت توجد، في عهد الكلخوز، حفرة العلف، وفي أمسيات الربيع، حين يقوى تنفس النهر، كانت رائحة العفونة المثيرة، المنطلقة من الحفرة، التي تم فتحها، تلف القرية بقوة.

كانوا يكدسون العلف أيام الآحاد عادة . وكان ذلك عملا صاخبا وممتعاً؛ كانوا يحصدون القراص والأعشاب، وينقلونها، ثم يرمون بها في الحفرة، ومن ثم يُنَزِّل حصان إلى هناك، يمتطيه أحد الأولاد، حيث يروح يدوس الحشائش، وهو يرتفع مع راكبه أعلى فأعلى، ومن حول الحفرة يتحلق الأولاد بكثافة، فيقيمون الدنيا ويقعدونها، ويحولون دون القيام بالعمل. كانوا يُطردون، فيتراجعون، وبشكل غير مفهوم تراهم لدى الحفرة من جديد. كم كانت تشعر بالفرح في هذا اليوم، وكم كانت تذرف من دموع . فبكل سهولة كان يمكن الحصول على اللكمات من الرجال المحتدمين، وكانت تتشكل أوراما تتورد بسبب القراص، الذي كانوا يطاردون به بعضهم البعض، والذي كانوا يدفعون بعضهم إلى أكوامه. وتذكرت ليوسا؛ كانوا يفركون الأورام بالتراب، ومن ثم يضعون عليها اللعاب، وحينذاك كانت تظهر على الجسم، عبر الوحل، بقع حمراء، مائلة للبياض. وتذكرت شيئا آخر، جعلها تبتسم؛ كان أترابها يعتبرون لعاب كولكا كوماروف البلسم الشافي، حتى انه كان يتقاضى عليه أجرا، فكان نصف صغار القرية مدينين له. والحقيقة انهم كانوا يعتمدون على كولكا، ليس لأن لعابه كان فعلا أفضل من لعاب الطفل المصاب، بل لأن ملامسة الآخر كانت تثير وتفتن، كأي سحر. وباستثناء كولكا، لم يكن أي منهم يقدم على ذلك.

«ترى أين هو كولكا كوماروف الآن، وماذا جرى له؟ » ــ فكرت ليوسا، وقررت أن تسأل عنه في البيت. ففي وقت من الأوقات كان يغازلها، ومن يدري فربما كان مصيرها قد ارتبط به، لو لم ترحل.

وللحال جاءتها ذكرى جديدة. ولكي تكون أقرب إلى المكان، الذي يتعلق بها، سارت ليوسا نحو الأمام. فعلى التلة، وإلى يمين الطريق، كان يوجد حقل صغير، أقل من هكتار، كانوا قد توقفوا عن حراثته، كما تذكر ليوسا، فهو يتطلب الكثير من الجهد، والفائدة منه قليلة، فكانوا يجلبون القش إلى هناك في الخريف . لكن القش المسكين لم يكن يقر له قرار حتى الشتاء بسبب الأولاد، الذين لم يكونوا يفارقونه، يشقون فيه ممرات، ويبنون المخابئ والمساكن، وفيما بعد كان الصبيان الكبار يصطحبون إلى هذا المكان الجاهز فتياتهم تحت جنح الظلام. لكن العتمة لم تكن تساعد كثيرا، إذ كان الأولاد الصغار أنفسهم يرابطون على شجرات البتولا، المخيمة فوق القش، حتى صياح الديك، لكي يروا من يأتي، ومن يصطحب من الفتيات معه. والأكثر من هذا أن الأولاد الأكثر جرأة، كانوا ما إن يكتشفوا مكان العاشقين، حتى ينقضوا عليهما من عل – يالها من تسلية قروية محببة. لكن ذلك كان يتطلب الرأس الجسور والساقين الطويلتين فعلا، وإلا فان العاشق الغاضب يمكن أن يشوهه.

إن ما أثارته هذه الذكريات لدى ليوسا ليس القلق، بل الفضول ؛ كان يبدو ذلك غريبا وبعيدا، كأنه لم يحدث لها، ولا على عهدها، بل على عهد إنسان آخر، كان قبلها. لم تكن تستدعي هذه الذكريات، بل كانت تأتي بنفسها، بلا إذن، وكأنها تستجيب لما تقع عليه عيناها.

قبيل التلة الثانية الطويلة يلتف طريق السيارات نحو اليسار حول التلة، التي لم يكن قطعها بهذه البساطة. سارت ليوسا مباشرة، سالكة الطريق القديمة، التي لم يبق منها سوى ممر عميق، نمت على جانبيه الحشائش العالية الناضجة. مررت ليوسا يدها على سنابلها، فراحت البذار، وهي تدغدغ راحتها، تتساقط على الأرض، وتصدر خشخشة خفيفة. وعلى التلة أصبحت الغابة أقل كثافة، ومفتوحة حتى الحقل نفسه،

وفي كل خطوة كانت تبرز الحزم الكبيرة والصغيرة. وغير بعيد عن الطريق كانت تتناثر العيدان غير الصالحة للتخزين، التي اسودت وتشققت. وكما في عمل قرصني فقد نمت الحشائش فورا بشكل كثيف ومتشابك، وكما الهياكل العظمية برزت منها الأغصان اليابسة التي كانوا في الماضي يجمعونها قرب القرية من أجل الوقود، أما الآن فهذا أيضاً لا يحتاج إليه أحد. البارحة رأت ليوسا أن ضفة النهر كلها مغطاة بالأخشاب، المتبقية بعد التحميل والجذوع مبعثرة عند كل عزبة. ثم انهم يقطعونها الآن بالمناشير، التي تعمل على البنزين. واحد اثنان ويصبح كل شيء جاهزا، وليس كما في الماضي، حين كانوا يعملون أيام الآحاد معا. ففي أيام الآحاد تلك كانوا يقومون معا بالأعمال التي تعجز عن القيام بها أسرة واحدة. كانوا يصطحبون معهم الصغار، ويعثرون لهم على أعمال سهلة. ولا تزال ليوسا تذكر كم كانت تحب تكديس الحطب، فكانت تجد متعة بدائية خاصة في ترتيب أخشاب الصنوبر الصفراء، التي تسر العين بلحائها الحريري الرقيق، الذي يوجد قرب قمة الشجرة . وكان موسم التخزين واحدا – الربيع، لكي تجف أثناء فصل الصيف، أما الآن ففي أي وقت يمكنك أن تأخذ وتنشر الأخشاب الجاهزة، والمبعثرة في كل مكان. كلا، لقد كان ثمة شيء ما في تلك الآحاد – شعرت ليوسا بالحزن المفاجئ والحنين – كان الناس يتشاركون فيه بمتعة.

ومن لم يكن يُدعَ ، كان يفهم أن أصحاب العمل لا يعتبرونه منهم وفيهم، وانهم يرفضون صداقته والثقة به.

والعمل – كان وديا، وحماسيا، رنانا، مفعما بالأصوات المتعددة للمناشير والبلطات، وبالتأوهات اليائسة للأشجار وهي تسقط، والتي تثير في النفس التوجس المشوب بالبهجة، وبلاشك مليئا بالنكات والمداعبات والانتظار المثير للضيافة، التي من أجلها تم صرف ربة البيت مسبقا. كان ذلك أول عمل في الغابة، بعد الشتاء، ثم انه لم يكن بالعمل الشاق. كانوا يحبونه. وتحت تأثير الشمس والغابة والروائح المسكرة، التي تطلقها الأرض، بعد أن عادت إلى الحياة، كانت الإثارة الصبيانية تعصف بروح الكبار والصغار، على حد سواء، ويستمر ذلك طويلا، حتى الإرهاق

المضني. كان يبدو كأن تجدد الأرض اقترن بتغير المشاعر، من خلال ارتباطها بمسالك غامضة مع تلك المرحلة البعيدة، المرهفة جدا، من حياة الإنسان، حين كان يرى أكثر ويسمع أكثر، ويميز، وحين كانت الغرائز القديمة تجبره بإلحاح مبهم على التطلع والشم بحثا عن شيء ما، تحت قدميه، في الجو، شيء ما طواه النسيان، ولفه الضياع، لكنه لم يختفِ تماما.

وبدلا من الماء كانوا يشربون نسغ البتولا، الذي كان الجسم يتقبله كعقار ــ بحذر وانتباه، وهو على ثقة من الاستجابة السريعة . وكان الأولاد هم الذين يجمعون النسغ، وهم الذين يبحثون عن الورود المبكرة، ويقتلعونها، فكانت بصيلاتها الصفراء تذوب في الفم كما السكر. وبوجوه متشنجة كانوا يمصون خضرة التنوب. ليس لارواء عطش نادر لا يطاق، بل فقط مجاراة لبعضهم البعض. وبالطبع لم يكن يُستَغنَ عن صملاخ الشربين، ففي هذا اليوم كان ضروريا، ضرورة البيض في عيد الفصح، حتى الرجال كانوا يعلكونه، وفيما بعد، وحين يشعرون بالألم في لثاهم، كانوا يوسعونه شتما، ويسارعون إلى التدخين.

وللحال، ما إن هدأ انحدار التلة، حتى بدأت الحقول. خرجت ليوسا إلى مكان مكشوف ، وتلفتت حائرة: ما هذا، هل ضلت طريقها يا ترى؟ وكيف يمكن أن تضل طريقها، وهي على مرمى حجر من القرية؟ كلا. بالطبع؛ هاهي كاسالوفكا – كانت الحقول إلى اليسار، الممتدة حتى النهر السفلي، تسمى كاسالوفكا، هاهي في الأمام، حيث يظهر من أحد الجوانب السياج، المتبقي من البيدر، والمرج القريب، ومن خلفه فيشكا، ومن اليمين كان الطريق يودي إلى المرج البعيد، بكل سهولة. تذكرت هذه الأسماء، كأنها تستخدمها يوميا، حتى أنها قبيل ذلك ما كانت لتستطيع معرفة اسم الجزر المواجهة للقرية. ودهشت ليوسا من نفسها: ماذا جرى لها؟ كأن صوتا ما، صوت الحشائش، أو الريح، كان ينطق بالكلمات الحية هنا، فكان السمع يتلقفه، ويتركها ترددها.

كانت ليوسا تتقدم عبر الطريق ببطء، تتعرف ولا تتعرف على الأماكن المكتشفة . إذا نظرت إلى فوق، رأيت كاسالوفكا والمرج القريب ومن ورائه فيشكا. أما على الأرض فان كل هذا كان يلتقي في وحشة غريبة واسعة، لم تكن العينان تودان تصديقها .فالطريق الذي يتسلق التلة بممر ضيق، يلتقي هناك مع طريق السيارات ، ويتسع على جانبيه، دون توفير في الأرض. أما الحقول فامتلأت بالحشائش، وتغطت أطرافها السفلي بغابة الحور الكثيفة الفارهة. وغير بعيد عنها، في مكان أقرب إلى الوسط، تنتصب عسالج الصنوبر، وهنا وهناك يبرز القصب. ولم يعد بالإمكان تمييز الحقول عن التخوم، فقد تشابكت تشابكا غير قابل للفصل. ومنذ عهد بعيد تبددت رائحة القمح، المميزة لهذه الفترة، وحلت محلها رائحة المزيج الغابي الناضج جدا، ومن الأرض المهملة كانت تفوح رائحة عذبة جافة.

لم تتمالك ليوسا نفسها فانعطفت يسارا، وسارت عبر الحقل. فكانت الأرض، التي لم تبُرْ بعد متكتلة، رمادية، وكانت، مع أنها اعتادت أن تزرع بالقمح، تبدو وكأنها تنتظر المعجزة، فكانت تبذل قصارى جهدها من أجل صون نفسها استعدادا لموسم البذار، لكن وغير بعيد عن عسلوج الصنوبر وشجيرة الشوح، كان النمل يروح ويجيء — إذن لقد صدق أن أحدا لم يمسه هنا.

كم انصرم من السنين على رحيل التعاونية عن هذا المكان ؟ سبع، ثمان، تسع سنوات؟ لم تكن ليوسا تعرف بدقة، لكن حوالي ذلك. ويمكن القول إن التعاونية لم ترتحل، بل ذابت في مكانها، ولم ينقلوا إلا الآليات، التي لم تكن بالكثيرة، بالإضافة إلى بعض الموجودات. أما الحقول فليست قابلة للنقل، وها هي ذي الحقول، وكذلك بقي الناس، فليس بالأمر السهل والبسيط أن تغادر نحو المجهول . لم يرحل سوى ثلاث أسر من المهجرين، وفيما بعد عادت إحداها على أعقابها.

كانت التعاونية تحمل اسم" ذكرى تشبايف". ومن جديد دهشت ليوسا كيف أن هذه التسمية، التي لم تعد تهم أحدا، طفت لديها بهذه السهولة ودون

عودة إلى الذاكرة، وكيف طارت إلى الحقول بإشارة يتيمة. ولو لم تكن هنا، بين كل ما يرتبط بالتعاونية، إذن لما تذكرت اسمها أبداً. وعلى العموم فان تسمية التعاونية تغيرت بعد رحيل ليوسا، ولربما أكثر من مرة، لكن ليوسا لا تعرف لها اسما آخر.

وتعاونية " ذكرى تشبايف "، التي كانت بصعوبة تقوم بأود نفسها، اصطدمت، لسوء الحظ من جهتين دفعة واحدة . أولا أقيمت بجوارها، في القرية نفسها، منشأة قطع الأشجار، وهي منشأة غنية، كثيرة النقود، علما أن النقود، وكما في الحكاية، كانت تدفع بدقة كل نصف شهر، وهكذا بدأ الشباب يهربون من التعاونية بالحق والباطل. ولم يكن ذلك يتطلب مغادرة المكان وتغيير الحياة، لأن كل شيء كان هنا، في القرية نفسها. ووجدت التعاونية صعوبة في الاحتفاظ بالميكانيكي الجيد، لأنه يرى انه سيكسب في منشأة قطع الأشجار، كحد أدنى، ثلاثة أضعاف ما يكسبه هنا، صحيح انهم تمكنوا من الاحتفاظ بهم، بالصياح وبقوة القانون، لكن العواقب كانت وخيمة.

في الوقت، الذي كانت التعاونية تكافح فيه ضد هذه المصيبة حلت مصيبة أخرى- إذ بدأت عملية دمج التعاونيات، ودمجت تعاونية "ذكرى تشبايف" بتعاونية أخرى لا تقل عنها بؤسا، وتبعد كل منهما عن الأخرى مسافة خمسين كيلو مترا من غابات التايغا. وحينذاك لم يعد الأمر يقتصر على الشباب، بل إن القرية كلها تقاطرت على منشأة قطع الأشجار. ووصل الأمر إلى حد انه لم يعد هناك من يقدم العلف للمواشي، وعندها ساقت التعاونية البقر والغنم إلى حظائرها، واستثمرت الحقول لمدة عامين، حيث كانت ترسل عمالها إلى هنا للمساعدة، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا كافين للعمل في أراضيها الأخرى .

ثم جلبت الموجودات الباقية، أما الحقول فقد أهملت . وها هي ذي الحقول، البقية الباقية منها.

ومن جديد تلفتت ليوسا حولها، فوخزها الشعور المفاجئ، الذي ولد هنا، بالذنب ، كأنه كان بوسعها أن تمد لهم يد المساعدة، لكنها لم تفعل،

فحاولت التخلص من هذا الشعور :« ما هذه السخافة. لا دخل لي في الأمر أبداً. فلقد رحلت قبل ذلك، قبل فترة طويلة من كل هذه التغيرات وأنا هنا إنسانة غريبة». وخطر لها أن هذا الشعور لابد أن يكون أقوى لدى أبناء القرية الذين تخلوا عن الأرض من أجل الغابة، إذن فليعانوا منه، إن كانوا قادرين على المعاناة، أما هي فإنها جاءت إلى هنا بالمصادفة فعلا، و من المستبعد أن تأتي إلى هنا من جديد . ومع ذلك فإن تلك الثقة، التي شعرت بها وهي في طريقها إلى الغابة، تلاشت، وتعكر مزاج التنزه الرائق، لكن كيف، وبماذا، هذا ما لم تستطيع فهمه هي نفسها. وبدأت تندم لأنها لم تبق في البيت، لكنها لم تكن قادرة على العودة أدراجها، حتى لو أرادت ذلك، حيث كان ثمة شيء خارج عن إرادتها، يقودها، وقد استجابت له، فراحت تنقل قدميها. وعند تخم قديم قررت أن تجلس قليلا، على كتلة خشبية، شاهدتها من بعيد، بيضاء، صقلتها الأمطار والشمس، لكي تأخذ قسطا من الراحة وتطمئن. لكنها لسبب ما تجاوزتها، وتابعت طريقها، على الرغم من أنها لا تذكر كيف مرت بها . والتفتت خلفها ربما يجب أن تعود، لكنها كانت تعرف أنها لن تستطيع أن تعود، وأنها ليست حرة في التصرف الآن على هواها.

فوجئت ليوسا بالفكرة، التي خطرت لها. فقد خطر لها أنها يجب أن تشعر، بمرارة أكبر من تلك، التي تشعر بها، وهي ترى هذه الأرض المهملة الموحشة للمرة الأولى بعد أن كانت تعرفها أخرى على غير هذه الحال. لكن ما شعرت به ليس المرارة أو الألم بل الحيرة، التي راحت تتحول بالتدريج إلى توجس مبهم، مخيف، كان يبدو كأنه ينتقل من الأرض، لان الأرض تذكرها، وكقاض نهائي، كانت تنتظر قرارها، فليوسا جاءت إلى هنا في السابق أكثر من مرة، لا بل وعملت. «لا بل وعملت»- كررت ليوسا كنوع من التبرير، وعندها فقط أدركت بدهشة ماذا يكمن وراء هاتين الكلمتين.

أجبرتاها على التوقف، والتلفت من حولها – فأحاطت بعينيها ببطء كل ما كان يبدو ظاهرا للعيان وأعلى، في السماء، وهي تعرف ولا تعرف عما

تبحث، و التفتت إلى الأسفل، نحو الأجمة النادرة الأشجار، تلك التي كان يتوارى خلفها حقل صغير يمتد كالإسفين نحو النهر السفلي، ولقد أبرزته الذاكرة المضطربة من بين كل ماعداه. راحت ليوسا تغذ الخطا، وقد توجست خوفا من أن يكون الحقل مغطى بالحشائش الكثيفة، مما سيحول دون العثور عليه، وكأن هذه الدقائق قادرة على تغيير أي شيء. إنها تذكر أن ثمة طريقا هناك في الأسفل، يؤدي إلى الحقل، لكن بدا لها أن النزول إليها سيستغرق وقتا طويلا، فسارت بخط مستقيم، عبر الغابة. كانت تود قبل ذلك أن تسترق النظر إلى الحقل، قبل الوصول إليه ، و تتأكد إن كان هو . ألم تخطئ يا ترى؟ وماذا جرى له؟ أما في حال سلكت الطريق، فإنها ستكشف نفسها قبل الأوان. لم يكن يفارقها إحساس ثقيل بأن أحدا يرافقها منذ البداية ويرصد كل خطوة من خطواتها، فكانت تحاول الاختباء ومغادرة المكان المكشوف .

أخيرا ظهر كل شيء في الأمام، ورأت ليوسا الحقل – انه هو نفسه، ودون أن تخرج، راحت تنظر إليه من خلف الأشجار . التخم العريض القديم، نجا بنفسه، لكنه أصبح الآن أشبه بالممر، الذي يقطع الغابة. . ولم تكن تربته المتصلبة الكثيفة الحشائش، تسمح بالنمو بذور الأشجار، لكن أجمة خفيفة من أشجار الحور تمتد وراءها مباشرة في الأرض المحروثة، عند أقدام التلة. وهناك، حيث توقفت هذه الأجمة، وإلى الأسفل قليلا، وكما الأعجوبة، كانت توجد حاكورة يبدو أن أحدهم أعجبته الأرض هنا، فزرعها بطاطا. وتحت الشمس الحارقة أصبحت أوراقها أكثر صفارا من تلك التي في القرية، لكنها لم تسقط فقد كانت حقلية قميئة، إنما يعود السبب إلى انه من غير المألوف أبدا رؤية البطاطا تنمو هنا.

كانت الذكريات، التي قادت ليوسا إلى هنا تعود إلى سنوات الجوع، التي أعقبت الحرب إما إلى سنة ست وأربعين وإما إلى سنة سبع وأربعين. ففي الربيع، وقبل البذار، أرسلوا ليوسا إلى هذا الحقل لتسويته. وعشية ذلك اليوم هطل المطر، فأصبحت الأرض موحلة، وراح الوحل يلتصق بالمسلفة فكانت تبدو وكأنها جلد حيوان يتم جره. وكان من الأفضل بالطبع

لو انتظروا الأرض حتى تجف، لكنهم ، إما لم يكونوا قادرين على الانتظار ، وإما لم يكونوا راغبين فيه. وما زاد في الطين بلة أن الحقل لم يكن قد زرع الموسم السابق، وترك ليرتاح، فنمت فيه حشائش كثيرة، وكانت أعشاب العام الماضي تملأ المسننات ، فكانت المسلفة تتحرك على السطح ، وكان لابد من قلبها وتنظيفها باستمرار. وكان الحصان، الذي حصلت عليه ليوسا، عجوزا، منهك القوى، وفي ذلك الربيع كانت الجياد كلها بالكاد تحرك قوائمها، أما هذا فكان أشبه ما يكون بظله.

ومن جديد، تناهى إلى سمع ليوسا رنين الكلمة الذي تردد داخلها- إيغرينكا. الحصان الذي كانت تقوده ليوسا، ومع هذه الكلمة، التي كانت ما تزال تتردد في أذنيها، لم تلبث الذكرى أن أصبحت أكثر اكتمالا ووضوحا. فقد رأت ليوسا أمامها بكل وضوح الحصان الأمغر اللون، بعرفه الفضي، والنجمة الفضية على الجبين ــ كان هزيلا لدرجة بدا معها وكأن حوافره قد جفت، ورأت نفسها وراءه ــ فتاة نحيلة ترتدي من الثياب ما هب ودب، تلوّح بالعنان، وتقفز على رجل واحدة، محاولة بالأخرى غرز المسلفة في التربة. ومن خلفهما يرتسم أثر متماوج عجيب.

كانت عظام اللوح لدى إيغرينكا تواكب سير قوائمه إلى الأمام والخلف. في أسفل التلة كان لا يزال قادرا على جر المسلفة، لكن ما إن استدار باتجاه التخم العلوي ،حتى توقف حوالي عشر مرات قبل بلوغه. كان، وهو يحرك قوائمه، يتمطط ويشخر. ولم تعد ليوسا تقسره،أ و تدفعه لأن يسرع، ولم تعد تنظف المسلفة إلا حين يتوقف مرهقا، وبعد تنظيفها تلامسه بالعنان على خاصرته . وقبل أن ينطلق من مكانه، كان إيغرينكا بحاجة لأن يتأرجح، إذ لم يكن بوسعه الانطلاق فورا. وغالبا ما كان ينحرف عن مساره؛ كان يتسلق التلة وقد أغمض عينيه على الأرجح كي لا يرى المسافة الباقية حتى التخم. لقد ذاقت الفتاة الأمرين: معه، مع الحشائش ومع الطين، وكانت، مثلها مثل إيغرينكا، مرهقة جدا، وفجأة انتقلت تلك الحالة إلى ليوسا الآن، على الرغم من مضي الزمن فعصرتها . شعرت بتعب كبير وبالعجز المطبق، لدرجة أنها حطت على العشب، حتى قبل أن تخرج إلى الحقل. في خاتمة المطاف تعثر إيغرينكا وسقط . استولى الخوف على

ليوسا، فراحت تسحبه بالعنان، وحين منيت بالفشل، أمسكت اللجام، وشدت رأس الحصان نحو الأعلى لكنه هز رأسه، وراح يشده نحو الأرض . صرخت ليوسا بإيغرينكا لكن صراخها لم يكن بسبب الغضب، بقدر ما كان بسبب الخوف. وبسب الخوف أيضاً راحت ليوسا تضربه على جنبه الغائر، وبسبب الضرب راحت الاختلاجات تتدحرج عبر جسم الحصان لكنه لم يقم حتى بمحاولة النهوض. ابتعدت ليوسا عنه، وهي تتلفت، ومن ثم انقضت عليه، وحاولت أن تمسك به من الأسفل وهي تخمشه في الجنب، الذي سقط عليه . لكنها عبثا كانت تجذب جلده الرخو المتدلي. وعندها جرت ليوسا باتجاه القرية.

حمداً لله أن أمها كانت في البيت. جاءتا على عجل إلى إيغرينكا المطروح. كان راقدا على بطنه، وقد طوى قوائمه تحته. وكانت الأرض من حوله منكوشة – من الواضح انه في غياب ليوسا حاول، وقد أخافه تشاؤمه، النهوض، فلم يفلح، أما الآن فقد بدأ يسترد هدوءه، بعد أن أذعن إلى انه سوف يلقى الملاطفة على يد الهدوء الذي ينفذ إليه من الأرض . ركعت الأم أمامه، وراحت تمسد على رقبته الدقيقة كما لو انه تم تنجيرها.

خاطبته بقولها:

– إيغرينا! ماذا تفعل يا إيغرينا؟ انك مخطئ فها هو ذا العشب بدأ ينمو،أما أنت فتنوي الهلاك. لم يبق لن تصبر إلا أسبوعا، لا أكثر، ولسوف تعيش، حيث ستجد ما تسد به الرمق في كل مكان. انتظر يا إيغرينا، ولا تستسلم، ما دمت قد أمضيت الشتاء فاصبر، إن الرب نفسه يأمر بالصبر. لم يبق إلا ... يا إلهي... لم يبق إلا النذر اليسير، ولم تتحمل الشتاء وحده، بل وتحملنا معا الحرب أيضاً. فلقد أمضيت الحرب كلها ,أيها الجسور، وأنت تتعذب في منشأة قطع الأخشاب، تنقل الجذوع، وهل هذا العمل يقارن بذاك؟ بقيت تنقل وبقيت قويا. أما هنا فيمكن الاعتماد على الفطرة، إنني منذ عهد بعيد صامدة بالفطرة.

أدار الحصان نحوها بوزه الحاد كالمنقار، وقرب شفتيه من يديها.

خـــافت الأم: لا يوجد شيء . ليس معي شيء يا إيغرينا، لم أجلب لك شيئا . يالي من حمقاء . أما هو فيفهم كل شيء، وان كان حصانا. وكيف لا يفهم إيغرينا. راحت تمسد على بوزه، وتشعث الكثة المتدلية، ســوف يقوم. انه قادر على فهم ما لا يفهمه الإنسان. ففي العام قبل الماضي، حين كسرت قائمة إيغرينكا بسبب أحد الجنوع، وأرادوا ذبحه للاستفادة من لحمه، فمن الذي انطلق إلى التايغا على ثلاث قوائم؟ انه إيغرينكا. وظـــل راقـــدا هناك، لا يخرج إلى أن استقر العظم مكانه. وكم ظل يعرج بعد ذلك، أمـــا أنا فلم أسلمك لأحد، كنت أنقل الماء عليك، وأنت الأعرج، إلـــى معمـــل الألبان، و لكي لا ألحق الضرر برجلك، لم أكن أملأ البرميل.

رفع الحصان رأسه ثم صهل برقة واعتذار . مسدت الأم على رقبتـــه، وقد استجاب للحنان فصهل للمرة الثانية، ثم حرك قوائمه من تحته.

سارعت الأم تنزع الجرار عنه:

– انتظر يا إيغرينا. انتظر الآن. الآن سوف نقوم معا. يكفي رقـــودا فقد شبعت من الرقاد .

كان إيغرينكا يدير رأسه ناحيتها وهو يرتجف من فـــراغ الـــصبر والخوف من ضعفه. وحين أخذته الأم من لجامه دفع قائمتيه الأماميتين إلى الأمام بقوة، لكنهما ابتعدتا بشكل غير مريح، مما اضطره لان يقربهما مـــن بعضهما، توتر، تمطط، وهو يحاول رفع الخلفيتين، لكنـــه لـــم يـــستطع، فجلس من جديد، وبعد أن أشاح عن الأم برأسه، صهل من جديد، وكـــان ثمة قنوط في صوته: لا أستطيع، إنكم ترون بأنفسكم أننـــي لا أســـتطيع . وراحت الأم تطمئنه:– مهلا يا إيغرينا، مهلا. ارتح قليلا. ليس دفعة واحدة . يا سلام عليك، تريد دفعة واحدة. جلست، هذا شيء جيد، الآن سترتاح، ثم لا بأس، لا بأس . آه منك، آه يا إيغرينا، إيغرينا.

تأملت الأم عمل ليوسا، ثم لامتها:

ــ بالطول كان يجب أن تسيري، لا بالعرض، حتى الحصان المعافى لا يستطيع الجر صعوداً. فما بالك بهذا....

ـ أجل، ياله من حصان.

ـ وماذا في الأمر ؟ كان يجب أن تعملي بهدوء، فلا أحد يستعجلك. الأرض واحدة – سلفيها بالطول، سلفيها بالعرض. مساحتها ستبقى هي هي، ولن تزيد .

ناولت ليوسا المقود، ودارت من جانب الحصان. وبعد أن ربتت على ظهره، أمسكت به من الأسفل. نقل إيغرينكا قائمتيه الأماميتين، وكأنه يبتعد عن المكان، الذي أسقطه، ومد الخلفيتين، وبجهد أخير يائس قومهما، ونهض بكامل قامته. تمايل على قوائمه الأربع، لكن الأم أسندته، وقد عانقته من ظهره، وراحت تقول له بفرح:

هكذا، هكذا،ألم أقل لك. أما أنت فقد عزمت على الهلاك – لكن أليس حراما عليك؟ لو تقل ذلك لأي كان سيسخر منك ويعتقد انك فار من الخدمة. وأي فار أنت يا إيغرينا؟ يا إلهي أي فار أنت؟ لو ضربت البعوضة عليك لوقعت.وهل نلحقك بالعمل الآن؟ تعال أيها الفار، تعال.

أخذته من رسنه وقادته وراءها. وبعد أن تمايل الحصان قليلاً، انطلق، وتوقف في الحال تقريباً، ويبدو أنه خاف أن يسقط مجدداً، فتابع سيره بتثاقل.

نهضت ليوسا، وألقت، وهي تنفض ثيابها، نظرة أخرى على الحاكورة وسط الحقل، كأنها تريد أن تتأكد أن كل هذا لم يحدث الآن، ليس للتو، بل منذ عهد بعيد جداً، لنيف وعشرين عاماً خلت. وراحت، وهي تتخلص من صورة إيغرينكا، الماثلة أمام عينيها، تتسلق ببطء التلة، التي كانت قد انحدرت منها قبيل ذلك، لكن الذكرى لم تفارقها. كان يبدو وكأن شيئاً ما في هذه الذكرى لم تفهمه. وأنها لم تأت إليها فقط لكي تبين كم كان ذلك قاسياً ومريراً، بل حاملة معها مغزاها الغامض والمزعج، الذي لم تدرك كنهه. وتملك ليوسا الأسى وعدم الرضى عن النفس لأنها استسلمت لإحساس غريب، يخيفها بغضوله، فقررت أن تسرع الخطا، لكي تتحرر منه بالسير.

من جديد طفت على سطح ذاكرتها الكلمات التي أرغمتها منذ نصف ساعة على البحث عن هذا الحقل. نعم لقد عملت، كما عمل الجميع. فحصدت وجرفت. وسلفت واستأصلت النباتات الطفيلية، وجمعت المحاصيل – كثيرة هي الأعمال، التي كانت في التعاونية آنذاك ، بخاصة في تلك السنوات، إذ لم يكن عدد الناس كافياً . «وحرثت» – أضاف هذه الكلمة أحد ما فيها، ولقد حرثت بالفعل، فكيف نسيت ذلك؟ صحيح أنها لم تحرث سوى يومين اثنين، كانت تستطيع السير وراء المحراث، لكن لم يكن لديها من القوة ما يكفي لأن تنقله من خط إلى آخر. فقد ترعرعت ضعيفة. وتأخرت عن أترابها في الالتحاق بالعمل – فقط في السنوات الأخيرة من الحرب. أما قبل ذلك فكانت أمها تشفق عليها، وتتركها في البيت مع تانكا، مع تانتشورا الكييفية حالياً[1].

" ليت تاتيانا تصل اليوم " – سُرَّتْ ليوسا بإمكانية التفكير بشيء آخر. وإلا فإن الأم لن تترك أحداً يرتاح بدونها، ولن تكف تردد " تانتشورا ، تانتشورا." أضف إلى ذلك أن من شأن وصولها أن يوضح حالة الأم، فهي لا تعرف شيئاً إلا انتظار تانتشورتها.

انتهت الغابة، وخرجت ليوسا إلى الحقول المرتفعة. وهنا، في مكان مكشوف، انبسط على نطاق واسع النهار الصافي، الدافئ، بجوانبه الحادة الرائقة : فالهواء فيه، إذا ما أرسلت طرفك بعيداً، كان يرن على الشمس، رنيناً مرهفاً خافتاً. وكان الرنين العلوي الغامض يبدو وحيداً. وفي الأسفل خيّم الصمت والسكون في أعقاب وقع خطى ليوسا. ولم تصدر الأرض تحت قدميها أي صوت، ولاذت بالصمت المطبق، وخيم عليها السكون. وعلى التلة بدت الغابة وكأنها تتحرك، وتتنفس دخان البتولا الضارب للبياض، الذي يكاد لا يلحظ في الجو، وهو ينطلق من الوجود الخريفي الناضج، من الدفء والشبع. ومن خلف الغابة كانت السماء تتدفق بهدوء وانتظام نحو الأسفل، خلف الأرض. كانت السماء عالية، خفيفة، لكن زرقتها ذبلت، وأصبح الإحساس بعمقها أقل، وفي غموضها ظهر التعب.

---

[1] مدينة : نسبة إلى كييف – (المترجم).

وعبر الحقل زادت ليوسا من انحرافها نحو النهير. كانت تتحرك بحذر، كمن يمشي خلسة، على الرغم من أنها كانت مرئية جيداً من شتى الجهات. في مكان ما هناك يجب أن يكون ثمة طريق. وقررت ليوسا أن من الأفضل أن تدور قليلاً، لأن سلوك الطريق اكثر أمناً. كانت تعرف جيداً أنه ليس ثمة ما تخشاه هنا، ومع هذا فلم تستطع التخلص من الثقة، المجهولة المصدر، بأن أحداً ما يراقبها، ولم يكن ذلك مجرد حدس بما يمكن أن يحدث حقاً، بل كان على ارتباط غريب بالماضي، بذكرى معينة ضائعة، ستسأل عنها الآن. وقد خيل إليها أنها، بذهابها إلى الغابة، أذعنت بشكل طائش لحيلة أحدهم، وأنها استدرجت إلى هنا ، لكن العودة أصبحت الآن غير ممكنة- إذ أن من شأن ذلك أن يجعل الأمر، الذي استدرجت من أجله من البيت، يحدث في الحال، في المكان نفسه. وخوفاً من ذلك، راحت تؤجل حدوثه، وتجره وراءها أبعد فأبعد.

عثرت على الطريق على كل حال، لكن وضعها لم يتحسن بسبب ذلك. راحت، وهي تصارع الإغراء في الاندفاع عبره، نحو الأسفل، وإطلاق ساقيها للريح، إلى أن تصل إلى القرية، راحت تتسلق التلة ببطء، كأنها تجرب الطريق، تختبر متانته وأمنه. كلا، لن تستطيع الجري حتى القرية، فعهدها بالجري بعيد. كان الطريق مهملاً، مليئاً بالأكوام المتحجرة، وكان يبدو وكأن الهواء فوقه قد جف، فشعرت ليوسا للحال بصعوبة التنفس. وخطر لها أن من الأفضل أن تسير عبر الحقل، لكنها لم تفارق الطريق، لم تستطع أن تنحرف خطوة جانبية واحدة، مذعنة لإرادة مجهولة، يستحيل التمرد عليها. وأخيراً أدركت ليوسا أنه ما كان عليها أن تطأ بقدميها هذا الطريق، وأنه أصبح، بالنسبة لها الآن، مثل الممر الطويل العتيق، المحاط بجدران عالية شفافة، لا مجال للقفز من فوقها، ولا للخروج منها، وأن هذا الممر سيقودها إلى شيء ما غير متوقع، وربما مخيف. كانت الأكوام الحادة تؤلم قدميها، من خلال الخفافة، لكنها لم تول الألم بالاً، بل كانت مشغولة بكل جوارحها، بأن لا تفاجأ بخطر آخر أكثر دهاء.

مشت ومشت، ثم توقفت : ففي وسط الطريق بالذات، رأت وكراً للنمل، شبيهاً بالقنفذ. تأملت طويلاً وباستغراب هذه الكومة الحية، التي لا تكف عن

الحركة : لماذا العش هنا، وليس على جانب الطريق؟ وكيف تستطيع المرور؟ ما العمل؟ ربما عليها أن تعود على أعقابها الآن؟ التفتت، فلم تر شيئاً خلفها – كانت الشمس تغمر كل شيء، فانبهرت ليوسا بضوئها. وبكل حذر، وبعد أن مدت يديها على الجانبين، لكي لا تصطدم بالجدار،قفزت عن طرف الوكر نحو ضفة الأمان، وسُرَّت لأن شيئاً لم يحدث. كان سرورها كبيراً لدرجة أنها استطاعت أن تبتسم.

«ماذا جرى لي؟ – وبخت نفسها – لماذا وصل بي الاستهتار هذا الحد في الواقع؟ فهل يمكن أن يحدث لي شيئاً هنا، حيث أعرف كل شجيرة على بعد الكثير من الكيلو مترات؟ يا للسخافة ! خرجت للنزهة، لأستنشق الهواء النقي، وهاك – استسلمت لبعض المخاوف الصبيانية الحمقاء. كل ذلك بسبب الأعصاب، الأعصاب، لابد من علاجها. الآن سأصل الأرض البراح، فأبدأ بجمع الفطر، ومن ثم إلى البيت. كل ما هو هنا عزيز على القلب – فهل يجوز أن أخاف شيئاً هنا؟ يالي، على كل حال، من حمقاء ».

سارت، وقد ازدادت مرحاً، وثقة، لم يكن قد بقي حتى الغابة إلا القليل.

وفجأة، وتمرداً على ثقتها هذه، وكبتاً لها، شقت الهواء صرخة خوف رقيقة مديدة وبعيدة جداً، لكنها لا تزال مسموعة.

– مينكا– ا – ا – ا.

جفلت ليوسا وتسمرت : لقد عرفتها، إنها صرختها هي. وبكل بطء وكأنها تحمل عبئاً ثقيلاً، التفتت نحو اليسار. كانت شجيرة البطم لا تزال في مكانها السابق، وسط الحقل. ففي وقت من الأوقات أشفق عليها أحدهم، وتجاوزها بمحراثه، فاستغلت ذلك، ونمت متحولة إلى عش، وانتصبت، واقتطعت لنفسها بعضاً من الأرض المحروثة، وبدأت تعطي المحاصيل. ونزولاً عند رغبتها العفوية الأولى، خطت ليوسا نحوها، وفجأة خرجت عن الطريق، لقد أطلق الطريق سراحها. لم تشعر ليوسا بالدهشة، فقد أصبحت تدرك أنها ليست هي من يختار إلى أين تذهب، وأن قوة غريبة، تعيش في هذه الأماكن، وتسمع اعترافها اليوم.

وعن قرب تبين أن عش البطم تعرض للنهب إلى حد كبير. فالشجيرات المقطوعة اليابسة ترقد على الأرض، أما الشجيرات الحية، ذات الخضرة النادرة، الممسوكة بشباك العنكبوت، فبدت في حالة يرثى لها : كانت أغصانها الأقوى والأفضل قد انتزعت عنها. لم يبق إلا الجوانب الضعيفة، التي يمكن الوصول إليها باليد، أما الوسط فأخذوه، وبقيت أسفل الجذوع العارية والعالية، بنصف قامة الإنسان، والتي توزعت على جوانبها الشجيرات السليمة. كانت بعض الثمار لا تزال تتدلى هنا وهناك. قطفت ليوسا عدداً منها – كانت خفيفة، حلوة – باردة كعهدها بها، لها طعم النعناع، وفجأة طغت على ليوسا وعصرتها تلك الصرخة، التي عثرت عليها بعد كل هذه السنوات. فتلفتت بخوف– لم يكن ثمة أحد، ومع هذا، وتحسباً للطوارئ، دارت من حول الشجيرة، بحيث لا ترى من جهة النهير السفلي.

حدث ذلك بعيد الحرب أيضاً – فالحياة، التي لم تكن قد استردت وعيها بعد، في أعقاب أربع سنوات ملعونة، كانت لا تزال تسرح قاسية شريرة : المجاعة، النهب، المحاكم والدموع. وللصيف الثاني على التوالي كان الفلاسوفيون[1]، الهاربون على طول النهر من مكان ما في الشمال، يبثون الرعب الشامل في القرى الصغيرة : فهنا، ذبحوا بقرة، اغتصبوا امرأة وقتلوها. وهناك، سرقوا متجراً، نوموا أسرة بكاملها بمادة ما ونهبوا كل ما لديها. وفي وقت من الأوقات عمد الرجال إلى تنظيم الحراسة ليلاً، لكن الهاربين كانوا ينفذون أعمالهم بشكل مباغت. صحيح أنهم نجحوا في الإمساك باثنين في المناطق السفلى، وتذكرت ليوسا أنها رأتهما، أثناء سوقهما إلى المنطقة. كانا جالسين في عربة واحدة، ظهراً إلى ظهر، بأيد مغلولة، وشعر طويل، وثياب ممزقة، وملامح حاقدة، كانا ينظران إلى الناس بتحدٍ مرهق.

---

[1] مجموعات عسكرية سوفييتية، تعاونت أثناء الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا الفاشية، والتسمية مأخوذة من اسم زعيمها فلاسوف ، وكان برتبة فريق في الجيش السوفييتي. وبعد الحرب اعتقلوا وسجنوا في الشمال البعيد.

كان الفلاسوفيون يهربون عادة، مع بداية الصيف، ومع نهايته كانت الإشاعات عنهم تخف، فتسترد حياة القرى الطمأنينة، ومن جديد تتجرأ النسوة على الذهاب إلى الغابة، وقطع النهر – إما للعمل في التعاونية، وإما لأي مكان. كان للهاربين، مثلهم مثل القراد، موسم معين، ما إن ينتهي، حتى يصبحوا لا يخيفون أحداً.

في شهر آب، قبيل منتصفه، أرسلت الأم ميخائيل و ليوسا إلى هذه الشجرة. على الأرجح أنها شاهدتها من قبل من خلال إزهارها الكثيف والبراق، ومن ثم تأكدت، وتأوهت : كانت الشجرة في ذلك العام، الذي كان عام قحط بالنسبة لموسم البطم، تكاد تتكسر من كثرة ثمارها. ففي الزرع العالي لم تكن مرئية عن الطريق، ثم إنها كانت قد تدلت نحو الأرض تحت ثقل الثمار، ولهذا فقد صانت نفسها، وأعطت لثمارها فرصة النضج التام.

كان قطفها متعة حقيقية. حتى ميخائيل، المعروف بكرهه لجني الثمار، لأنه لا يستطيع الصبر على تكرار الحركات نفسها آلاف وآلاف المرات، دبت فيه الحماسة للعمل. كانت ثمار البطم كبيرة، على عناقيد طويلة، وخالية من الأوراق وثقيلة – وكل ما عليك أن تسرع فتسندها بيديك من الأسفل. كان ميخائيل ينقل الدلو وراءه، أما ليوسا فقد عقدت ثوبها، ولم تكن تفرغه إلا حينما تشعر بالثقل على بطنها. وفي كل مرة كانت تصب الثمار. كانت سوية الثمار في الدلو ترتفع بمقدار كف، لا بل وأكثر، وكان من الممتع أن تمرر الثمار عبر اليدين، فتشعر وكأنهما تحت تيار من الماء بارد وناعم. وعلى الرغم من أنها كانت طرية، ناضجة، فإنها – وبمعجزة – لم تكن تتلف، وكانت ترقد إلى جانب بعضها ثمرة قرب ثمرة. وخلال ساعتين ملأ ميخائيل و ليوسا دلويهما بشكل طافح، وبقي على الشجيرة أكثر مما جنيا.

حملا ما قطفاه إلى البيت، وقررا العودة، فلم تكن لديهما رغبة في ترك الشجيرة حتى اليوم التالي. والآن، بعد أن عرفا الطريق إليها، خيل إليهما أن بوسع أي كان أن يكتشفها في أية لحظة. بعد الغداء كان القيظ شديداً، وكان ميخائيل الذي استسلم للكسل، بالكاد يجر قدميه صاعداً التلة، فتخلف

عن ليوسا كثيراً. لم تكن لديها رغبة في انتظاره، فخرجت لوحدها باتجاه التخم القصير المختبئ في الزرع، والمؤدي إلى الشجيرة. وحين لم تعد تفصلها عنها عشرون خطوة أو تزيد، تحركت الشجيرة على حين غرة، وقفز عنها إلى الأرض، كما الشبح، رجل غريب مخيف، يرتدي قبعة شتوية، ذات أذنين مربوطتين من الأعلى. حتى هذه القبعة لوحدها في هذا الجو الصيفي الذي لا تطاق حرارته، كانت تجعله رهيباً. كان ذلك مباغتاً، لدرجة أن ليوسا جمدت في مكانها، وبدلاً من أن تركن للفرار، ظلت تقف مكانها وكأنها تسمرت إليه. أطلق الشخص ضحكة عصبية، سريعة وسعيدة، ولوح لها بإصبعه أن تقترب منه، ولقد تمكنت من أن تتأمله : قصير القامة، عريض المنكبين، بوجه أسود، غير حليق، مما يخفي سنوات عمره، وعينين لا لون لهما تتوهجان ناراً بيضاء مجنونة.

هاهنا . هاهنا. كان يقف، وقد باعد بين ساقيه، وهو في جزمته، وهو على ثقة أنها لن تستطيع الهرب منه، لدرجة أنه سمح لنفسه أن يلعب معها لعبة القط والفأر، وأن يتسلى معها قليلاً، لكي يكون النصر بعدها أتم وأكمل – كان يريد، قبيل الاحتفال بها، أن يزيد من ضراوة الجوع لديه. ومن جديد عاشت ليوسا كل هذا الكابوس، الذي كان يخبئه لها ذلك اللقاء، فاقشعر بدنها. وابتعدت، وهي تتلفت، عن الشجيرة، باتجاه الحقل، لكنها تذكرت أنها لن تستطيع للفرار سبيلاً، وأنها لن تترك تقوم بذلك.

حين ضحك الرجل، ودعاها بإصبعه ناحيته، بدأت تتراجع. أما هو فقد قطب غاضباً، وحرك يديه، وكأنه يتساءل : وما جدوى هذه الألاعيب؟ واستمرت تتراجع شيئاً فشيئاً. ولم يتمالك نفسه فسار نحوها بحذر. وكأنه يحاول أن لا يخيفها، وعلى وجهه الذي شوهه الاضطراب البارد، فأماله جانباً، تراقصت ابتسامة قصيرة قاسية. وهنا، أخيراً، أطلقت ليوسا ساقيها للريح.

وثبت إلى الطريق، واندفعت تجري عبره نحو الأسفل، باتجاه القرية. أما الشخص، الذي تخلف عنها في الأرض المحروثة، حيث كانت جزمته تغرز في الأرض الطرية، وتتشابك في الزرع، فقد أوشك الآن أن يلحق بها

– صارت تسمع من خلفها لهاثه الصاخب، الشبيه بالشخير. فجن جنونها من الخوف، واندفعت تلوح بالدلو، وتغرف به الهواء. ومن خلفها لامستها يداه، لكنها في اللحظة الأخيرة، تمكنت من الإفلات منهما، وتركت الدلو – الذي راح يتدحرج على الطريق من خلفها وهو يقرقع.

– مينكا[1]– ا – ا .

لم تكد تطلق صرختها حتى رأت هيئة أخيها أمامها، كان يمشي الهوينا، متهادياً، وما إن سمع الصياح حتى جَمُدَ في مكانه. لكنه حالاً اندفع باتجاه ليوسا. وبدوره رأى الشخص ميخائيل فكبح خطواته. لم يكن ينتظر أن يرى أحداً آخر هنا، فارتبك. مرت ليوسا بجوار ميخائيل على عجل، لكنها تمهلت، ما إن جرت إلى مسافة آمنة، فقد أرغمها الخوف على أخيها علي التوقف. وعادت تصيح من جديد. وبعد أن تأمل الشخص ميخائيل ملياً، أدرك أنه ليس سوى صبي صغير، لا يزال غراً،فراح يتقدم نحوه بخطوات متسللة تهكمية.

مينكا– ا. اهرب يا مينكا ا. – صرخت ليوسا بصوت عالٍ.

تناول ميخائيل عن الأرض حجراً، وتهيأ. أما الشخص فقد أقعى كمن يتأهب للقفز، فوثب ميخائيل إلى الخلف. وهنا أطلق الشخص ضحكة شريرة متقطعة. ومن جديد حاول تخويف ميخائيل، لكن هذا لم يتحرك من مكانه قيد أنملة، وظل يقف متأهباً، وهو يضغط على الحجر في يده. وحينذاك اندفع الشخص نحوه فعلاً – اندفع، وللحال انعطف جانباً، وانطلق، وهو يعرج، قصداً على رجل واحدة، نحو النهير السفلي، دون عجلة، كالرجل القوي، الذي لم يرغب بالقيام بالأعمال التافهة. لقد قرر أن يختفي قبل أن يفوت الأوان، فلقد كان صراخ ليوسا قوياً جداً.

وكما ظهرت الصرخة فجأة، كذلك توقفت فجأة، وخيم على المكان ومن حوله سكون مطبق، واضح ومرح تحت تأثير الشمس. وضمنت ليوسا أن بمقدورها أن تتابع طريقها، بعد أن انتهت الذكرى. وبعد أن تحركت من

---

[1] مينكا : صيغة التدليل من اسم ميخائيل.

مكانها بصعوبة، كالمحكوم عليه، اتجهت إلى المكان عينه – إلى الأرض المراح، بحثاً عن الريجيك. لقد فكرت بالريجيك باعتباره خشبة الإنقاذ الضعيفة والوليدة : إذا ما قطفت ولو واحداً، حتى ولو كان متناهياً في الصغر، فسيبقى لديها الأمل بأن كل شيء سينتهي على خير. لكن ما هو يا ترى هذا الشيء، الذي سينتهي على خير؟ ما هذا الذي تخافه؟ إنها لا تعرف. إنها لا تعرف شيئاً. كانت تخاف حتى من التفكير في مسألة ما إذا كان ثمة ما يمكن أن تخشاه هنا، فقد خيل إليها أن أفكارها أيضاً يمكن أن تصل إلى مسامع أحدهم، فيفسرها بشكل خاطئ. كانت مرهقة، تتعثر في مشيتها، لكن تعبها لم يكن بسبب السير، فهي لم تمش إلا القليل، لا أكثر من ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات؛ بل بسبب أمر آخر، أكثر أهمية وخطورة – ربما بسبب الذكريات، بسبب هذه الذكريات البالغة الوضوح والصراحة، والتي يبدو كأنها اتفقت فيما بينها، فلازمتها اليوم في كل خطوة، وأرغمتها على أن تعيشها من جديد – لغرض في نفسها غير معروف. لقد بدا وكأن الحياة عادت القهقرى، لأنها، ليوسا، نسيت شيئاً ما هنا، فقدت شيئاً ما قيما جداً وضرورياً لها، والذي لا يمكن الاستغناء عنه، لكنه إذ تكرر، فإن الماضي، ما حدث في زمن بعيد، لم يختف تماماً، بل راح يبتعد جانباً، لكي يرى ماذا جرى لها بعد هذا التكرار، وماذا جاءها من زيادة، أو غادرها من نقصان، وهل استجاب أم مات إلى الأبد – فها هي ذي تحاصرها وتقتفي أثرها أبعد فأبعد : من اليمين يسير إيغرينكا متثاقلاً، وهو يترنح من الجوع، ويبذل قصارى جهده في جر المسلفة عبر الوحل الربيعي، ومن اليسار يتواثب على شجيرة البطم شخص مخيف لا تعرفه، في قبعة شتوية، وهناك أيضاً وأيضاً.

توقفت ليوسا. غير صحيح. ليس ثمة من أحد هنا. لا يوجد أي مكان يمكن أن تخشاه، إنها هنا لوحدها. وهذه المخاوف غير معقولة، كالقبعة على رأس ذلك الشخص في ذلك اليوم الصيفي الحار. إنه قلق فارغ : كل ما في الأمر أن أعصابها استعدت، بعد استلام البرقية عن الأم، لوقوع المصيبة، الهزة، وهي الآن تطالب بالتعويض عن العمل الذي قامت به عبثاً.

تلفتت من حولها مرة ومرة. نعم، لا أحد، باستثناء السكينة والشمس والهدوء. ففي هذه الشمس البالغة السطوع، وفي هذا الهدوء والسكينة الوافرين يشعر المرء أنه في أمان. إنها وحدها، لكنها وحدها وسط هذا الصمت الغريب المتربص، حيث كل البريق والاهتمام موجهان نحوها فقط.وليس ثمة من مكان تختبئ فيه، إنها مرئية بشكل تام. كلا يجب أن تهرب من هنا. "تهرب، تهرب" – راحت تؤكد. ولماذا خرجت من القرية؟ من الذي دفعها للمجيء؟ ما الذي نسيته هنا؟:

«نسيت؟» .. فجأة توقف تفكيرها عند هذه الكلمة، وقربها نحو ليوسا. نسيت... أخيراً هاهو ما كان يعذبها اليوم، منذ البداية، ودون أن يكشف عن نفسه، بذنب صامت قديم، عليها أن تتحمل المسؤولية عنه. وبالفعل فإن ليوسا "نسيت" كل شيء هناك في المدينة، في حياتها الجديدة – أيام العمل الطوعي في الربيع، حين كانوا يجهزون الحطب للتخزين، والحقول، حيث عملت، وإيغرينكا المطروح، وحادثة شجيرة البطم، والكثير الكثير من الأمور الأخرى، التي حدثت قبل ذلك – نسيتها تماماً إلى درجة الخواء. لقد نسيت أنه سبق لها أن سلفت، حرثت... نعم سلفت وحرثت – تصوروا. من الغريب أنها ألقت بهذا أيضاً، دون تمييز، من ذاكرتها، وهو ما كان عليها أن تفخر بها – فبالكاد يمكن أن تجد بين لداتها من سار وراء المحراث. منذ عهد بعيد جداً لم تمس الذكريات عن القرية، فتحجرت، وتلبدت في كتلة ثابتة، لا تمس، رُميت في ركن ناءٍ مغبر، كما يرمى سقط المتاع.

وهاهي ذي اليوم تثور فجأة.

أخيراً، وبعد طول انتظار، جاءت ميرونيخا إلى العجوز.

كانت العجوز ترقد في السرير خفيفة، لا وزن لها، لدرجة أن الشبكة تحتها لم تتقوس. لم يكن يناوب لدى العجوز سوى عينيها، أما جسمها، الممتدد على السرير، والجامد في سكون مطبق، فقد ظل بدون هزات ومشاغل كأنه غريب عنها. لم تكن ثمة حاجة للمسه : فمنذ عهد بعيد والعجوز ترقد وحدها، كأنها فقدت نفسها وجميع الباقين، ولا تستطيع العثور على نفسها. وقبيل الغداء دخلت الشمس الغرفة من الخارج، فشعرت العجوز، وهي تنظر إلى الشمس، بالدفء من ضوئها المرح، الذي لا يكل، بعد أن ملت تماماً لوحدها – حالة يرثى لها.

أما ميرونيخا، المتوجسة من الصمت المخيم على العزبة، التي تعرف أن كثيراً من الضيوف قد وصلوا إليها، فقد أطلت بخوف من وراء الحاجز، وإذ رأت العجوز لوحدها، دخلت عليها، وهي تصفق بيديها :

– يا سلام ! أنت حية أيتها الختيارة ؟

سرت العجوز بقدوم ميرونيخا أيما سرور، لدرجة أن الدموع تلألأت في عينيها، وتحركت في سريرها، تهم بالنهوض، وإذ تذكرت أن النهوض يتطلب كثيراً من الوقت، مدت لميرونيخا يدها المستسلمة.

– حية، كما ترين. لليوم الثاني أجلس، فقد تعافيت. أولم يخبروك؟

أمسكت ميرونيخا يد العجوز قليلاً، ثم أفلتتها، لكن اليد وجدت في نفسها القوة الكافية لترقد بجوار أختها، اليد اليسرى، وتلاطفها.

– لماذا لا يأخذك الموت؟ – جلست ميرونيخا على السرير، بجوار العجوز، وانحنت نحوها، وهي تتكلم – لقد جئت إليك لدقيقة، وكل ظني أنك رحلت، لكنك لا تزالين حية ترزقين. كما كنت ضارة، كذلك بقيت. لقد ملأت عيني بالدمامل.

– أولا تعرفين يا صبية أنني بانتظار رفقتك – ردت العجوز، وقد استساغت اللعبة. سوف أشعر بالضجر من الرقاد وحدي، فأنا أنتظرك. لكي نرقد في قبر واحد.

– لسوف أرفسك يا ختيارة بقدمي. إن قدميَّ حادتان، فقد أمضيت العمر كله في شحذهما على الأرض.

– إنك قد ترفسينني فعلاً، فهذا ليس بغريب عنك.

– أوه. هيا تيَّسري، ولا تنتظريني. فأنا مازلت قادرة على الجري، وإياك أن تقتربي مني. وبدلاً من الرقاد معك، الأفضل أن أبحث عن عجوز، ومن يدري فقد نرزق بطفل.

– لكنك يا صبية خلعت عدة الولادة قبلي، وعلقتها لتجف.

– إن لدي واحدة أخرى، أفضل من القديمة، ففي الصيف بادلتها بالثمار مع واحدة من المدينة. كانت امرأة مدنية قوية، وشابة تماماً، ولقد اتفقت معها. والآن إياك أيها الختيارة أن تعتبري نفسك ندّة لي.

– كفاك هذراً. فلقد أضجرتني باختلاقاتك.

– أنت من أضجرني. لقد أصبحت مملة للغاية. ليتك تموتين بأسرع ما يمكن. فأتخلص منك.

– لسوف تبكين يا صبية حين أموت.

– إذا كنت سأبكي، فهل تعتقدين أنني سأرثي لك؟

– هذا صحيح – وافقت العجوز، وهي تحاول إيقاف ميرونيخا، لكي – استغفر الله – لا يجرهما الحديث إلى التجديف. فمع ميرونيخا يسهل ارتكاب المعاصي، فهي نفسها لا تتذكر ما تقول. وفي شبابها كان من الأفضل عدم مناقشتها، فهي تغلب في النقاش أياً كان، ثم إن لسانها لم يثلم نهائياً بعد، ففي أية لحظة يمكن أن تقذف بكلمة لا تستسيغ الأذن سماعها، دون أن يرف لها جفن.

في السنوات الأخيرة فقط أصبحت ميرونيخا أهدأ، تجلس وتنكمش على نفسها، بعد أن كانت في حركة دائمة، وقد تحدث أربعين ثقباً في مكان واحد، دون أن تنتبه لذلك. وعلى الرغم من أنها تشكو من قدميها، فإنها حتى الآن يمكن أن تجري بسرعة فائقة، ومن غير المعروف إن كان اللحاق بها ممكناً. طيلة حياتها كانت شرهة للعمل، ومع هذا فقد حافظت على نفسها، ولم تترك العمل يقضمها. ولا يمكن أن تقارن بالعجوز : فميرونيخا أكثر استدارة وحيوية، والمهم أنها تستطيع السير، تذهب حيثما تريد. وتضع يديها السوداوين القصيرتين أمامها على شكل ملقط، وهما على أهبة الاستعداد، ووجهها أيضاً أسود، عريض، وصوتها أبح، ولو أن أي إنسان آخر تحدث على غرارها، إذن لكان فقد صوته من زمان، أما هي فعلى هذا النحو فقط كانت تكويه، كانت أصغر من العجوز بأربع سنوات فقط، لكن شكلها كان يوحي بأنها أصغر ليس بأربع، بل بأكثر.

فرحت العجوز بقدوم ميرونيخا : برقت عيناها، وظهرت فيهما دوائر بندقية – باهتة، وبان الاهتمام على وجهها – ماذا جلبت معها ميرونيخا، ما الذي سترويه لها؟ فمنذ مدة لم تريا بعضهما، بينما الحياة تمشي إلى الأمام بلا توقف، والحياة كم هي عريضة تكفي كل المدن والقرى، وتكفي جميع البشر، وكل شيء يتفق بدقة – بدقة، دون زيادة. قبل العام الماضي كان لدى العجوز مذياع على الكرسي الصغير، الذي لا مسند له، وكانت هي نفسها تحرك دائرته السوداء، الشبيهة بالزر : هنا يغنون، وهناك يبكون، وفي مكان ثالث يرطنون بلغة ليست لغتنا، وفي مكان رابع لا بلغتهم ولا بلغتنا – يمكن أن يتحطم على اللسان، وهم لا يكفون يرطنون ويرطنون. كانت العجوز تحب الأغاني القديمة، وترسل نينكا وراء

ميرونيخا لكي تستمعا سوية، لكنهم نادراً ما كانوا يغنونهـا، وفـي أغلـب الأحيان كانوا يطنطنون بشيء ما. كانت تطرب لسماع الأغـاني القديمـة الممدودة، فتشعر وكأنها تطير بجناحين فوق الأرض، ودون أن تبتعد ترسم دوائر كبيرة متناغمة، تشعر بالقلق، وتبكي في الخفاء على نفـسها وعلـى جميع الناس، الذين لم يجدوا الطمأنينة بعد. وحينذاك لم تكن تشعر بالأسف إذا ما جاء أجلها، وكان يخيل إليها أن هذه الأغاني تنشد في مأتم أحـدهم، بعد أن واروه الثرى، وترافقهم بينها وبين نفسها في الغناء، لـوداع هـذه الروح الغريبة، التي تحررت، والتي لابد أن تستقبل في العالم الآخر بغناء قديم كهذا.

لكن المذياع انكسر العام الماضي، ولم يبق لدى العجوز سـوى فرح وحيد – تبادل الحديث مع ميرونيخا.

– لماذا تأخرت في القدوم إلي؟ – لامتها العجـوز – منـذ الـصباح جهزت بربارة لكي تفتش عنك. أما أنت، يـا نافخـة الـريح، لا تعـرفين الاستقرار. متى تركنين في البيت؟ ليتك تصبحين بلا قدمين، يا ليت، يـا ليت.

– إنني يا ختيارة أصبحت بلا قدمين – قالت ميرونيخا، وهي تنحنـي مباشرة نحو وجه العجوز، فيهتز السرير – الآن أنا قاعدة عنـدك، لكـن قدمي تهدران وأي هدير. لقد أدميتهما، فمنذ عدة أيام وأنا أبحث عن بقرتي. ضاعت بقرتي، وهي لا تعود إلى البيت.

– يا إلهي في الصباح أصغي وأصغي، فلا أسمع لها صوتاً. أين هي؟

– لو كنت أعرف أين، إذن لقلت لك يا ختيارة، لكنني أنـا نفـسي لا أعرف. لقد طفت كل المروج بحثاً عنها، ورحت أجري وراءهـا، ألا تبـاً لها، وليست المرة الأولى التي تضل فيها، لكن قلبي ليس في مكانـه. ألـم تسمعي أن الدب افترس عجلة غولوبيف؟

– لم أسمع شيئاً. ذهلت العجوز، وبدأت تتحرك بضجة، ثم رفعت صوتها المنخفض – ما بالك تسألينني سمعت، أم لم أسمع، ومن أين لي أن أسمع، من يخبرني؟ تقولين إن الدب افترس عجلة غولوبيف؟

هو ذا ما تعنيه ميرونيخا : من غيرها يمكن أن يأتيك بخبر يُحرّك القلب هكذا؟ ليس عبثاً انتظار العجوز لها – كأنها كانت تعرف أن ميرونيخا لن تأتيها خالية الوفاض. كانت العجوز تنظر إلى ميرونيخا باهتمام، كأنها هي نفسها التي حرضت الدب على عجلة غولوبيف، والآن سوف تبدأ تروي لها كيف فعلت ذلك.

– افترسها، افترسها – أكدت ميرونيخا – وكان غولوبيف قرر الاحتفاظ بالعجلة للعام القادم، فبقرته عجوز، لا تدر الحليب. فكانت من نصيب الدب. أول البارحة، وبينما كان غينكا، رئيس الورشة، عائداً من الغابة، شاهد العشب أحمر مدعوكاً، فتوجس شراً. وتعمق في الغابة قليلاً فإذا بالعجلة هناك، ترقد بين الحشائش ، وقد غطيت بالنفايات. كان الدب قد شرب الدم منها، وتركها تفسد، فهو يحب اللحم النتن. ما إن رأى غينكا ذلك، حتى انطلق كالسهم، وطار إلى البيت في الجو مباشرة. – ومن جديد اهتزت ميرونيخا باتجاه العجوز وغيرت صوتها.– يقولون إن امرأة غينكا أمضت نهار البارحة كله في غسل سرواله، الذي كان يرتديه في الغابة، في مياه النهر، وإنها عادت اليوم إلى غسله، وإن نسوان الحارة السفلى يأتين الآن لأخذ الماء عن ضفتنا.

قالت العجوز بإدانة :

– كفاك سخرية، إذا كنت لم تختلقي هكذا، فلا داعي للسخرية. لو أن هذا حدث معك.

– لو حدث معي، إذاً لما تحركت من مكاني. لكنت قعدت، وبقيت قاعدة إلى أن يعود. وما إن يقترب من العجلة، حتى أشبعه دوساً : لماذا تعتدي على غولوبيف يا ابن الملعونة؟ وما كان ليخ ر الله ببال أنني أنا، بل كان سيعتقد أنه الموت جاء في طلبه. ولكنت قد أرعبته بحيث أن أية دبة لن تستطيع تنظيفه.

– منذ عهد بعيد لم أعد أتحمل سماع حكاياتك. لماذا لا تقصين كما ينبغي، كما يفعل البشر؟ أين افترس العجلة، في أي مكان؟

– إنك أنت نفسك يا ختيارة لا تتركينني أنطق بكلمة. وإلا لكنت رويت ذلك لعشرة صفوف. هل تذكرين فرع النهير السفلي باتجاه التلة؟

– وكيف لا أذكره؟ حسناً. إنني لم أفقد عقلي بعد.

– لقد التقاها هناك، تحت القرية مباشرة. لن يلبثَ أن يدخلَ القريةَ. فالتايغا أصبحت خالية من الطعام، ويستحيل أن يلجأ إلى وجاره. وسوف يبقى يحوم حول القرية.

– نعم، نعم – أومأت العجوز برأسها.

– لست أدري أين أبحث عن شيطانتي. وهل تعتقدين أنني سأبقى أجري في إثرها شهرا؟ لقد قطعت في البحث عنها مسافة طويلة. هل هي حية، أم غير حية ... يقول الرجال إن هناك بقرتين وراء الجبال، لا يعرف أحد لمن هما. لكن قدمايَ لا تسمحان لي بالجري إلى ما وراء الجبال. لو كان لجسدي الآن تينك القدمان الفتيتان، إذن لجريت وألقيت نظرة. أما على هاتين العصوين فقد أصل التلة، لكن الأرض سوف تشدني نحوها.

– لا تجري إلى ما وراء الجبال يا صبية. ستبقين هناك، وماذا سأفعل أنا بدونك؟

لم تستسلم ميرونيخا :

– كأن لاحديث لي إلا عنك. أحدثها عن البقرة، أما هي فلا هم لها إلا نفسها.

– إن بقرتك فقدت حليبها على كل حال.

– إن حزني ليس على الحليب يا ختيارة. المهم عندي أن أرى البقرة نفسها بعيني، لأعرف أن الدب لم يلتهمها. وبعدها فلتتسكع ما طاب لها التسكع.

– آه منك يا صبية، آه. لا شغل لك إلا هذه البقرة. حسناً. لو كنت مكانك لما أبقيتها، لما تعذبت معها، ولما هدرت عليها رمقي الأخير. أية فائدة ترين منها عدا العذاب؟ تستأجرين من يحصد لها الحشيش، وتستأجرين من ينقله لك، وإذ لم يكف التبن شتاء عليك أن تشتريه. ثم كم تكلفك من جهد؟ فأنت لا تكفين عن الحركة من العتمة حتى العتمة. هل لديك سبعة أفواه لا تكف عن طلب الأكل والشرب؟ يا إلهي، إذا كنت بحاجة هذا الحليب فتعالي إلى ناديتنا، وسوف تصب لك علبة كل يوم، وليس بمقدورك أن تشربي أكثر. أما نفايتك هذه فبيعيها وارقدي كالسيدة، ثم إنهم سيدفعون لك النقود ثمناً لها. لو كان الأمر معي إذن لأعطيتها دون مقابل، كي لا أتعذب معها.

– أو – وُ – وُ . – غنت ميرونيخا ساخرة – هلا نظرتم إليها. كانت ستبيع البقرة، ولن تأخذ النقود. يالك من ختيارة مسلية. كيف أتخلى عن بقرتي إذا كنت أقتنيها طيلة حياتي؟ إنها بالنسبة لي هي الموت الحي. لست أحتاج إلى حليبها، المهم أن تخور في الزريبة. وأي خمول هذا الذي ركبني بحيث لا أستطيع اقتناء بقرة؟

– ليتك تهلكين أنت وإياها. فلن أرثي لكما.

لم تكن هذه المرة الأولى، التي تطرقان فيها هذا الموضوع، والعجوز بينها وبين نفسها تشاطر ميرونيخا الرأي : من اعتاد العذاب مع البقرة فإنه لا يستطيع البقاء بدون هذا العذاب. ثم ما نفع المرأة بدون بقرة؟ فالعجوز نفسها ظلت حتى النهاية مشغولة بالدواب، وكانت بالكاد تتحرك، ومع هذا ظلت لا تكف عن تناول المحلاب "وعاء الحلب"، إلى أن منعوها عن ذلك، وهي إنما تجادل ميرونيخا لأنها تشعر بالغضب، إن لم نقل بالحسد : كون ميرونيخا تستطيع الاعتناء بالبقرة، بينما هي لا تستطيع. ولو أن ميرونيخا تخلصت من دابتها إذن لوجدتا نفسيهما، شاءتا أم أبتا، في وضع واحد، ولشعرت العجوز بالراحة. لقد أذعنت لعجزها، لكنها كانت بحاجة لصديقة في هذا العجز، وليس أية صديقة، بل ميرونيخا بالذات، التي كانت صديقتها مدى الحياة.

ودون أن تقول لميرونيخا شيئا، تمطت العجوز كي تجلس، وجلست بشكل أسهل من الصباح، ففي هذه المرة كانت واثقة من نفسها. لم تتحرك ميرونيخا، حتى أنها لم تحرك ساكناً لمساعدتها، كانت تعرف أن العجوز يمكن أن تهددها بسبب ذلك. والآن أصبحتا تجلسان متجاورتين، وأصبحت العجوز أكثر عجزاً مما كانت عليه : كان جناحاها يبرزان بشكل تبدو فيه وكأنها لن تلبث أن تخفق بهما وتطير. ألقت ميرونيخا عليها نظرة جانبية. ولم تتمالك نفسها :

– ضعفت كثيراً يا ختيارة.

– ضعفت – وافقت العجوز، دون أن تنظر إلى نفسها، فهي بدون ذلك تعرف أن هذا هو الواقع.

– لقد جاء أولادك، فماذا يقولون؟

– وماذا يقولون... جاءوا لينظروا إلي.

– لابد أنهم جاءوا لدفنك يا ختيارة.

– طيب وسيدفنونني، وكيف يمكن أن لا يدفنوا أمهم – وافقت العجوز بهدوء، دون أن ترفع نظرها عن النافذة، كأنها تتحدث مع أحد هناك.

– لا تزعلي، فهل سيبقون ينتظرونك إلى أن يأخذك الرب؟

– لا حاجة بهم لأن ينتظروني – قالت العجوز بلهجة خاصة، وبحزم وديع، ثم التفتت إلى ميرونيخا. كانت متشبثة بيديها بطرف السرير، وهي لا تزال خائفة من أن تقع. – لن أؤخرهم. إنهم يريدون العودة إلى البيت، ولست الوحيدة لديهم. وهل أنا لا أفهم ذلك؟ أما أنا فسأنتظر إلى أن تأتي تانتشورا، فما إن تصل تانتشورا حتى أبدأ أجهز نفسي. سيكون موتي سهلاً، إن قلبي يحدثني. سأودعهم، وأغمض عيني بنفسي، ثم أموت. وتقترب بربارة مني لتتفقدني، لتجد أنني فارقت الحياة، وأنني خفيفة جداً. فتخبرهم. كل ما أريده هو أن أرى تانتشورا. لقد تأخرت كثيراً، وأخشى أن يكون قد أصابها مكروه. قالوا إنها ستصل البارحة، فلم تصل، وقالوا

ستصل اليوم، ولم تصل أيضاً. إنني قلقلة جداً عليها، ولا أعرف بماذا أفكر.

– لا تتكدري يا ختيارة. لا يزال هناك متسع من الوقت، وسوف تصل تانتشورتك. وما الداعي للتكدر عبثاً؟ ربما تكون الطائرات عندها لا تطير. الآن الجميع يسافر بالطائرات. إنها تطير عندنا، لقد سمعتها، أما عندها، حيث تعيش، فربما تكون السماء سيئة، أو لربما لم تجد لها مقعداً في الطائرة. بالنسبة لي ولك يكفي أن نقطع الطريق فنصل إلى بعضنا، ولا داعي للانتظار، أما من هناك، فأنت نفسك تعرفين أن الطريق ليست قريبة.

– لن يضطروا لانتظاري – كررت العجوز، وهي تهز رأسها – كلا، كلا، لن يضطروا. لم أعد قادرة على التأخر هنا. هذا لا يجوز. فأنا أعيش الآن على حساب إنسان آخر. وصل الأولاد، وحين عرف الرب أعطاني القليل من نصيب إنسان آخر، لكي أمتع النظر بهم، وأتحدث وإياك قبيل الفراق. لقد آن أوان عودتي. قد أمكث يوماً آخر، وينتهي الأمر، وسأحزم أمتعتي. آن الأوان. فليودعني الأولاد كما يجب، وسيبكون على أمهم، لكي لا يكون قدومهم عبثاً. مهما كنت فإنني أمهم – سيأسفون. أذكر حين دفنت أمي كم بكيت عليها، علماً أنني لم أكن صغيرة السن. وكيف لا؟ ليس بيننا مخلد، جميعنا فانون. أما أنت يا ميرونيخا، ليس في اليد حيلة، ساعديهم على دفني ساعديهم. حتى ولو كنت تقولين إنني ضارة، وأية ضارة أنا؟ لم أكن إياها أبداً.

– تزعلين حتى من الكلام.

– هيا قولي – تلطفت العجوز – لن أزعل. هل تظنين أنني زعلت منك؟ فخلال حياتنا قلنا لبعضنا أكثر من هذا بكثير، ولم نختلف. هذا ما كان ينقصنا يا صبية أن أزعل منك. ما الذي كنت سأفعله بدونك؟ فأنا أنتظرك منذ يوم البارحة. وغداً أيضاً تعالي إلي، فنجلس قليلاً. على الرغم أننا عشنا طويلاً، فإننا لم نقل كل شيء لبعضنا، لم نشبع من الحديث. ولسوف أشعر هناك أيضاً بالضجر بدونك.

– ومن يدري يا ختيارة، فقد أموت قبلك.

– كلام فارغ، تموتين قبلي. لو أنك تتحدثين دون أن تثرثري. أولن تسمعي ما أخبرتك به للتو؟ إن ما قلته لك ليس تصوراً، وإنما قلت لك الحقيقة. فلا تبلبليني.

– إنني لا أبلبلك.

– إذن اجلسي ولا تجادليننني.

– لكنني، – رفعت ميرونيخا نفسها قليلاً، مدت نفسها نحو النافذة، من فوق العجوز – لكنني سأجري الآن، لألقي نظرة، فربما تكون الشيطانة قد عادت. سأنظر، وأعود أدراجي إليك، فأجلس معك قليلاً. أما أنت فابقي وحدك حتى عودتي.

– هيا اذهبي، حين يكون هناك داع فإنني لا أؤخرك.

– لا تظني بي الظنون، فسوف أعود بسرعة.

– اذهبي يا صبية، ولا تخطئي في الكلام.

بقيت العجوز وحدها من جديد، وبشكل خفي، وبلا أي سبب، تملكها حزن غير مسموع وخفيف؛ فجعلها تبكي. وللحال، ودون أن تذرف الدموع، ارتاحت، كأنها أدت صلاة طهارة قصيرة. وعلى الأرضية، بالقرب من العجوز، كانت الشمس تتراقص، فقربت رجليها منها، وحين راحت الشمس، تمسد وتدفئ العظام، دون أن تخشى هذا الهزال، شعرت بالتحسن تماماً. ومن جديد استبدت بها الرغبة في البكاء، كأنها بدأت تذوب من قدميها وتترسب. ثم وانتها الجرأة وحلت يديها المتشبثتين بالسرير، فأراحتهما من العبء الثقيل، وكانت تفكر أنها، إذا ما وقعت، فسوف تقع على الشمس، فتلصق بها، وفيما بعد تأتي ميرونيخا وترفعها. لكنها لم تقع. وللحال نسيت أنها يمكن أن تقع، ورلحت تنظر عبر النافذة إلى الخارج، حيث كان النهار يقترب من الظهيرة، وهو يتقصف، وكانت السماء العالية، الباهتة اللون تتقوس. لقد سحرتها الشمس، لكن ليس تلك الكرة النارية، التي كانت تسطع في السماء، بل ما كان يسقط منها على الأرض ويدفئها. اليوم الثاني على التوالي والعجوز تبحث في البقعة عن شيء آخر، عدا الدفء

والضوء، فلم تستطع أن تتذكر، أن تعثر. لم تكن تشعر بالخوف : إن ما يجب أن يتكشف لها سوف يتكشف من كل بد، وعلى الأرجح أن ذلك غير ممكن الآن، ليس وقته. كانت العجوز تؤمن أنها، وهي تموت، ستعرف ليس هذا فقط، بل والعديد من الأسرار الأخرى، التي لا يسمح للإنسان بمعرفتها ما دام على قيد الحياة، والتي ستكشف لها في خاتمة المطاف عن السر الأبدي – ماذا جرى لها، وماذا سيجري. كانت تخاف التخمين حول ذلك، ومع هذا فإنها في السنوات الأخيرة لا تكف تفكر أكثر فأكثر، بالشمس والأرض والعشب والعصافير والأشجار، بالمطر والثلج، بكل ما يعيش بجوار الإنسان، ويعطيه الفرح، ويجهزه للنهاية، واعداً بالعون والتعزية. وكانت العجوز تطمئن، إذ تدرك أن هذا كله سيبقى بعدها : ليس من الضروري أن تبقى هنا كي تسمع صوتها المتكرر والداعي، المتكرر لكي لا تضيع الجمال والإيمان، والداعي إلى الحياة والموت على السواء.

جاءت ميرونيخا مسرعة، وارتمت بقوة على السرير، بجوار العجوز، أما العجوز المشغولة البال، فقد تمالكت نفسها، بعد أن انفصلت عن النافذة، وعرفت ميرونيخا. لوحت ميرونيخا بيدها، وتذكرت العجوز أنها تقصد البقرة، وان البقرة كما كانت غير موجودة، كذلك لا تزال. أين بقرة ميرونيخا يا ترى، وأين اختفت؟ شرعت العجوز تفكر في ذلك كي تجهز نفسها وتعيدها إلى الحديث، الذي أضاعته، والذي لن تلبث ميرونيخا أن تستأنفه – إذ سيكون عليها أن تجاوب بشيء ما، لا أن تجلس مشدوهة.

قالت ميرونيخا :

– إن حمامكم يا ختيارة يتأرجح ويهتز.

– الحمام؟ – لقد وضعت العجوز الحمام في المكان الذي يجب أن يكون فيه، لكنها لم تفهم مباشرة، لماذا يتأرجح الحمام ويهتز.

وتابعت ميرونيخا بدهاء :

– بينما كنت أجري كان الحمام يلتفت إلى هنا تارة وأخرى إلى هناك، تارة على هذا الجانب، وأخرى على ذاك. هل يعيش فيه أحد مـــا، إحـــدى البعسات-[1] مثلاً.

– أية بعسات يا صبية، بماذا تخرفين؟ إنهم أولادي ذهبوا إلى هناك.

– جميعهم؟

– ولماذا جميعهم؟ ليوسا ذهبت منذ الصباح إلى التلة؛ أما بربارة فقـــد ذهبت إلى مكان ما في القرية. إنهما الرجلان – إيليا وميخائيل.

وزادت ميرونيخا من تضييق الخناق على الحمام :

– وما حاجتهما إلى الاستحمام نهاراً؟

– الاستحمام؟ إنك يا صبية، كما الصغيرة، قـــسماً بـــالله – غـــضبت العجوز – إنهما هناك لليوم الثاني، طيـــب إنهمـــا لا يـــستحمان، لكنهمـــا يتضيفان. يغسلان الحلق الذي أصبح مسدوداً، ولم يعد بوســـع الخبـــز أن يدخل.

– هل يشربان الخمرة؟

– كلا، لقد سخنت لهما ناديا ماء في الطست، وهما يشربان كؤوســـاً، يقرعان ويشربان من أجل راحة البال. إنها من الحلاوة بحيث لا يمـــلان. أولا تعرفين المثل : الرب أعطى قطعة نقود، والشيطان فتح ثقباً، وها هي قطعة نقود الرب تتدحرج لتحط في ثقب الشيطان.

– لكنهما ليسا وحدهما هناك يا ختيارة. كأنني سمعت صـــوت ســـتيبكا خارتشيفنيكوف يأتي من هناك.

– ستيبكا خارتشيفنيكوف؟

– كأنه صوته.

---

[1] تقصد البعثات .

– وما الغريب في الأمر يا صبية؟ ومم يخاف ستيبكا! فهو بدوره، لا يعيش دون شراب.

– لكن هذا هو الواقع يا ختيارة. الآن أصبح الذين لا يشربون قلة.

– قلة، قلة. كلما نظرت أراهم في الخارج يسيرون، يتناطحون. ما هذا الذي يجري في الدنيا يا صبية؟ لماذا يشربون إلى هذا الحد؟ أية حاجة دفعتهم إلى ذلك؟ إنهم إنما يدفنون أنفسهم، ولاشيء آخر. والنسوان، النسوان أيضاً يندفعن في إثر الرجال، فهل كان هذا في الماضي؟

– لا تتكدري. وما جدوى أن نتحدث عن الزمن الماضي.

– ألا تذكرين أن دانيلا الطحان كان يشرب، فكانوا لا يعتبرونه إنساناً. طيب. سكير وخلاص. وهكذا أسموه : دانيلا – السكران. كان وحده من يشرب هكذا، ولم يكن هناك أحد آخر. أما الآن فغولوبيف الوحيد في القرية كلها الذي لا يشرب، وهم الآن لا يعتبرونه إنساناً، لأنه لا يشرب، ويؤلفون النكات عنه.

– هكذا يا ختيارة، هكذا. لو يرغمونهم مرة وأخرى فلن يلبثوا أن يتخلصوا من الرغبة في الاستحمام بالمشروب. لكن أحداً لا يسألهم، ولا ينزل بهم أي عقاب. يتصرفون على هواهم. ترين أحدهم لا يملك شروى نقير لكنه يشرب، ويتبختر كما التاجر الكبير. وهكذا يروحون في القرية ويجيئون، ثم يتجمعون. إنه لا يساوي قلامة ظفر، لكنه يطلب المزيد، كل شيء قليل لا يكفيه.

– كلا يا صبية، حين كنت أستمع إلى المزياع[1] – وأشارت العجوز إلى الكرسي، حيث كان المذياع – كنت أسمعهم يتحدثون عن السكر أيضاً، ويقولون عنه إنه مجرد سكر، وهناك أيضاً لا يمدحونه.

– وما الفائدة من أنهم لا يمدحونه. إنهم يطمرون هذه الأحاديث بالنفايات. وهل يستمعون لها كثيراً؟ إنهم ليسوا بحاجة لمن يقول لهم، بل

---

[1] تقصد المذياع.

لمن يُسائلهم، وحينذاك يمكن أن تكون هناك فائدة. يساءل القريب والبعيد، سواء رئيت لـه أم لا، يجب أن يطلب من الجميع، أن لا يضحكوا على الشعب.

– صحيح يا صبية، صحيح. وإلا فإن الأمور سوف تزداد سوءاً.

– وأنا أقول لك

– في الزمن الماضي كانوا يعرفون الحرام، أما الآن فحتى الحرام نسوه.

– الحرام نسوه يا ختيارة والخجل نسوه.

– والخجل نسوه. صحيح. – تنهدت العجوز بإدانة، وبعد أن صمتت قليلاً – هاك ابننا : إنه يشرب حتى أتمنى أن لا تراه عيني. وعند الصباح يجمع أمثاله من السكارى، ويعود إلى العمل نفسه. ثم، وكأن شيئاً لم يحدث، يضحكون ويروون لبعضهم البعض مخازي البارحة. إنهم يضحكون. لو كنت مكانهم، إذن لاحترقت من الخجل.

– إنهم يا ختيارة يفضلون الاحتراق من الخمرة على الاحتراق من الخجل.

– طيب. هاك يا صبية ما أريد أن أحدثك به. فقد ذكرتني بالخجل – انتظرت العجوز إلى أن تجمع شتات ذكرياتها، فتعيدها إلى تلك الأيام الخوالي، التي كان يتناهى منها صدى خافت للحياة الماضية– حدث ذلك في تلك المجاعة – أوضحت العجوز – كانت بربارة صبية، فكانت تساعدني، وكذلك كان إيليا قد أصبح كبيراً : يأخذ من هنا، ويقطف من هناك، فنجا، وبقي حياً. أما ليوسا فقد ترعرعت – والعياذ بالله – مريضة. فيداها ورجلاها كانت هزيلة كالعيدان. أما وجهها الصغير فكان شاحباً، كان منظرها يدعو للرثاء، وإجمالاً كانت كأنها شمعة تذوب. كانت بحاجة إلى الرعاية إلى الأكل، لكن من أين؟ كان مينكا أصبح يمشي على قدميه، أما تانتشورا فكانت لا تزال تحبو، أو أنها كانت تمشي، لم أعد أذكر. جميعهم كانوا يطلبون الأكل، يبكون، وهل كان القليل كافياً لملء بطونهم؟ كان قلبي

يتمزق أشلاء. وماذا أقول لك، فأنت نفسك أنجبت اثنين – أوقفت العجوز نفسها، وابتعدت عن قصتها، ثم سألت، كي لا تنسى فيما بعد : – ألا ينوي ولداك القدوم الآن؟

– إنهما لا يكتبان إلي.

– ربما يأتيان بدون رسالة؟

– لست أدري يا ختيارة. سيأتيان عندما أموت.

– دعينا من ذلك. إنني أقول لك : كم تعذبت معهم. أوي ي ي. كان هو ينقل بعض الحمولات من التعاونية إلى المستودع؛ ونادراً ما كان يوجد في البيت. أما فيتيا، الذي قتل في الحرب، فكان يدرس في الدورات في المنطقة، ولم يكن يقدم أية مساعدة. كنت وحدي معهم. تتركين واحداً فإذا بآخر يجهش بالبكاء. ومع البقرة، جاء الأمر معاكساً، فلم تَعَشر[1] ذلك العام، وليس فيها حليب. ولم يطاوعني قلبي على ذبحها، فكيف سنعيش فيما بعد؟ وفكرت أننا سنجتاز هذه المحنة بطريقة ما، وبالمقابل سيكون لدينا الحليب لاحقاً. كانت بقرتنا زوركا تعيش في التعاونية، لابد أنك تتذكرين زوركتنا[2]. كانت بقرة جيدة، ولم يكن لديها قرنان، مازلت حتى الآن أتحسر عليها. ما إن بدأوا تسليم المواشي للتعاونية، حتى سلمها إيليا بنفسه، للتعاونية في الزريبة العامة. أوه كم بكيت. طيب. وزوركا تحفظ عزبتنا، فكانت لا تكف عن المجيء إلينا، وقبل هذه المجاعة، كنت أحمل لها المرق أحياناً، وكسرة من الخبز المرشوشة بالملح تارة أخرى. فهل يعتنون بها هناك، كما نعتني بها. كم من الدواب هناك. وهكذا كانت تظل تأتي إلينا في المجاعة. فبعد حلب الأبقار مساء تترك لحالها. وبسبب البعوض اللعين كانت الدواب تتعارك، تخور وتندفع. وتقترب زوركا من عزبتنا وتروح تخور وتخور. أشعر بالرثاء لها، فأفتح البوابة وأترك زوركا تدخل. ثم أخلصها من البعوض بواسطة الدخان، وأغسل ضرعها، فهي لم تكن تحب

---

[1] تعشر : يستخدم هذا الفعل للدلالة على أنثى الحيوان حين تكون حبلى.

[2] زوركا : اسم البقرة التي تملكها العجوز وأضافت (نا) فصارت زوركتنا.

أن يتسخ ضرعها. وفي ذات مرة، وبعد أن غسلت ضرعها بالماء الدافئ خطر لي أن أتبين إن كان فيها حليب أم لا. عصرت حلمة الضرع، وإذا بي أجده. ورحت يا صبية أحلب زوركا. لم يكونوا قد استخرجوا الحليب كله هناك. فبعد حلبة المساء كانت تعطيني علبة صغيرة. كنت مسرورة جداً بهذه العلبة، كنت أسكبها للصغار بكميات قليلة، والحمد لله على ذلك، إن الحمد لله أفضل من إن شاء الله.

وفي إحدى المرات، وبينما كنت جالسة تحت زوركتنا، التي لم تعد لنا، بل للتعاونية، سمعت وكأن الباب يدق، وكنت أكمل حلبها في المربط وأغلق الباب خلفي. أدرت رأسي وإذا بليوسا. كانت تقف وهي تنظر إلي بعينين واسعتين. لقد اخترقتني عيناها حتى شغاف قلبي. كانت قد أصبحت كبيرة، وتعرف أن زوركا لم تعد بقرتنا. بقيت جالسةً، أخاف النهوض -كأنني تحجرت. وفكرت، يا إلهي، أين كنت، لماذا لم تهلكني في مكاني منذ المرة الأولى؟ تملكني الخجل، وأي خجل. وبعد ذلك يا صبية بقيت فترة طويلة لا أستطيع النظر في عيني ليوسا. وحتى الآن مازلت أفكر : ترى هل تذكر أم لا؟ ولا أزال أظن أنها تذكر، وتدينني. وربما لهذا لم تعد تعيش معي، مع أم كهذه.

– لا تتكدري يا ختيارة، ومن أين لها أن تذكر؟ كانت آنذاك مجرد طفلة.

– كانت طفلة، لكن الذاكرة واحدة. إنها تذكر تماماً.

– طيب ولو كانت تذكر، أي ضير في ذلك؟ أم أنه كان من الأفضل لو ماتت من الجوع، بينما كنت ستكتفين بغسل ضرع زوركتك؟ وهل الذين ماتوا في تلك الآونة كانوا قليلين؟ أما أنت فقد ربيت أولادك.

– صحيح أنه ما كان أفضل، لكن ما فعلته لم يكن جيداً، وخجلي منه لا يمكن غسله. في حياتي كلها لم أسرق، وهاك، كان ذلك أسوأ من السرقة.

– بدون خجل يا ختيارة لا تبلى السحنة من الاستعمال. كفاك ثرثرة عن ذلك. وجدت موضوعاً مناسباً للحديث.

صمتت العجوز بإذعان، وهي مستلقية، ورأسها على الوسادة، ترفع قدميها. ازدادت ميرونيخا اقتراباً منها، ثم نظرت عبر النافذة من جديد.

– ألا ترينها؟ – سألت العجوز.

– لا أراها. حين ستأتي، الشيطانة – سوف أكسر عظامها. هل تعتقد أن صبري من حجر؟

– لا تخيفيها يا صبية قبل أن تأتي. فربما لم تأت بسبب خوفها منك.

– تلك الشيطانة تخاف. إنها لا تخاف الدب في الغابة، فكيف مني. ليته لا يلتهمها هذه المرة، إذن للقنتها درساً. فلقد أحرقت أعصابي كلها، ولم أعد بسببها إنسانة.

التقطت العجوز كلمة ميرونيخا الأخيرة :

– ولماذا لست إنسانة؟ إنني أنا من تفوح منه رائحة اليباس.

– لا تتكدري يا خيّارة.

– أنت جلست بجواري، ومن الواضح أنك جئت إلى هنا من الخارج. أما أنا فقد مضى علي وقت دون أن أخرج من العزبة، دائماً هنا، دائماً في مكان واحد – ودون أن تنظر إلى ميرونيخا قالت عنها وعن نفسها : – لقد طفح كيلنا أنا وأنت يا صبية .

– ولماذا طفح كيلنا؟

– وما حاجتنا لنعيش كل هذه الفترة؟ لو أننا متنا من زمان لكان الوضع أحسن. إذاً لما كنت تبحثين الآن عن بقرتك، ولما كنت أنا راقدة هنا، ولما كنت أقول بيني وبين نفسي ليت ميرونيخا لا تنصرف، ليتها تبقى جالسة، وإلا فسوف أضجر كثيراً لوحدي. إن الرب هو الذي رزقنا بك يا ميرونيخا، نعم هو هو. وإلا كيف كنت سأعيش بدونك؟

أغمضت العجوز عينيها، وهزت رأسها موافقة كلماتها ونفسها وميرونيخا. لم تنفتح عيناها، فقد بقيت وحدها، ناسية كل ما في الكون، بعد

أن ضاعت، إما في الحلم، وإما في طمأنينة غفوة مريحة. وراحت ميرونيخا، وهي تجلس بجوارها وتحرسها، تفكر أنه من الأنسب أن تموت مع العجوز في ساعة واحدة. لكي لا تبقى أي منهما لوقت لاحق. ظلت جالسة عند العجوز طويلاً إلى أن جاءت بربارة.

– احك لنا ياستيبان، احك كيف فكـرت بحماتـك – شـرع ميخائيـل يسترضي خارتشيفنيكوف، وهو رجل طويل أشـقر، جـاء إلـى الحمـام ليشاطره هو وإيليا عملهما الحلو – المر نفسه – احك لإيليا، فهو لم يـسمع القصة – أسقط ميخائيل رأسه و غضن وجهه ضاحكاً. – هيا يا سـتيبان، ابدأ.

فتحا زجاجة جديدة على شرف ستيبان. والآن أصـبح الأمـر أسـهل بالنسبة للمَجْة، فلم يعد ميخائيل يهاب لا إيليس ولا زوجتـه، فقـد قـاموا بزيارتين إلى العزبة، وتَمَوّن حتى بالحساء، ولما لم يكن لديهم ملاعق، فقد اضطروا لشربه من الطنجرة، من حافتها. كما جلب الزجاجات، التي خبأتها نينكا في الطحين وكدسها كما الحطب في الموقد، حيث لا يخطر ببال أحـد أن يبحث عنها، أما الصندوق فقد استخدمه للجلوس. وكان لا يزال حافيـاً، إذ أنسته الأمور الأهم، أن ينتعل حذاءه، وحشر قدميه تحت السرير، الـذي نام فيه إيليا ليلاً. كان إيليا هو الآن من يقوم بالسهر على قن الدجاج، وهو الأمر الناهي.

– هيا يا ستيبان احك – ألح ميخائيل.

– سمعتهم يقولون أن إيليا وصل.– راح ستيبان يفسر سبب ظهـوره، رغم أنه كان قد شرب معه – وفكرت أنه يجب أن أرى إيليا. فـنحن مـن

عمر واحد، سوية كنا نجري عبر القرية، ونتشيطن ـــ مد ستيبان يديه على طول الحمام، مشيراً إلى أنه كان من المستحيل عليه أن لا يرى إيليا. كـــان صوته قاسياً، قليل الحركة، ولذا فهو يساعده بيديه – وهكذا انطلقت. لكنني كدت أخطئ. كنت أندفع باتجاه العزبة مباشرة، دون أن أنظر إلى الحمـــام. إنسان جاهل. وفي اللحظة الأخيرة فطنت : ما هذا الاجتماع هناك يا ترى؟

– حسناً فعلت أنك جئت – قال إيليا مستحسناً – إن أمنا – كما تعـــرف – مستلقية، ولا يمكن أن نتركها، وهكذا فقد أقمنا هنا، لكي نكون، في حال حدوث مكروه، موجودين بجوار أمنا .

– حسناً جداً فعلت يا ستيبان – أكد ميخائيل – شربنا وسوف نـــشرب أيضاً. لا تقلق فلدينا الكثير من المشروب – انظر، الموقد ملآن. وكلها من نوع واحد – بيضاء ثقيلة.

فوخزه ستيبان :

– لكنك شربت بما فيه الكفاية. أخشى أن تصبح سكراناً جداً.

– كلا يا ستيبان، لماذا تتكلم على هذا النحو؟ لقـــد جئـــت، فاســـتقبلتك ضيفاً. إنك رفيق أخي هذا إيليا، وأنت عندي أيضاً تبدو مثل الرفيق، فنحن نعيش في قرية واحدة. لم يسبق لنا أن تخاصمنا أنا وأنت. لاشيء من هذا، على العكس، حتى أننا شربنا سوية. أما أنت فتقول لي مثل هـــذه البـــذاءة. كأنني سكران تماماً. كلا يا ستيبان لسوف أشـــرب أيـــضاً، فأنـــا أعـــرف عياري. وإذا دعت الحاجة فبوسعي أن أتجاوز العيار – وما المانع؟ ها قد التقيتما، فتبدو كما لو أنك تطلب مني أن آوي إلى الفـــراش، كأنـــه لـــيس بوسعي أن أجلس.

– اجلس، اجلس. أنت هنا رب البيت – فكيف أستطيع إصدار الأوامر لك؟

وتذكر ميخائيل من جديد :

– الأفضل يا ستيبان أن تحكي لنا كيف جرت القصة مع حماتك. كيف احتَلْتَ على حماتك، الخالة ليزافيتا.

– وماذا أحكي. القرية كلها تقريباً تعرف.

– فلتعرف القرية، لكن أخي إيليا لا يعرف. إنه من المدينة، فاحكِ له.

– بوسعي أن أحكي، فلساني لن يسقط – وافق ستيبان، وكأنه لا يريد ذلك، وهو لا يكف عن التظاهر بأن لا رغبة له في ذلك، وعلى حين غرة غمز إيليا :

إذن اسمع إيليا.

– إنني مصغ، مصغ – أجل.

– الواقع أنه ليس هناك من شيء مميز في القصة. لست أدري ما الذي وجدوه فيها. القصة عادية، وهل لدينا هنا القليل من القصص التي تجري في الأسر. حدث ذلك صيفاً. شربت على هذا النحو مع غينكا سوسلوف، لكن ليس في الحمام، كلا، بل في حاكورته. كانت امرأته قد أرسلته إلى هناك من أجل عزق البطاطا. وهكذا فقد قبعنا التلم وهات زراعة. وكنت أنا من جلب الزجاجتين، فقد كنت مديناً له بثمن التبن منذ الشتاء. وفكرت لماذا أحمل له الروبلات، فقد لا يأخذها. الأفضل أن آخذ معي نصفي لتر. أخذتهما، وحين وصلت قيل لي إن غينكا في الحاكورة. في الحاكورة، طيب في الحاكورة، سيان عندي. ذهبت إلى هناك. وما إن رأى غينكا نصفي الليتر حتى غرز القطاعة من مقبضيها في الأرض. لقد أدرك لأي غرض جلبتهما. بالطبع لابد من الاختيار : عزق البطاطا، أم الشرب؟ – وازن ستيبان الأمر بيديه، ثم نفضهما باشمئزاز، مبيناً أن هذه المسألة لم تكن موجودة عندهما. ولم يلبث أن تحمس، وراح يتحدث بمتعة ظاهرة –كنا جالسين. وقد أرسلنا ابن الجيران ليجلب لنا كأساً. ومن مشتلة الخيار قطف غينكا الخيار المتناهي في الصغر، وجلبه في جيبه، ثم جلب من جديد. كان كل شيء موجوداً. جلسنا، ونحن نطارد الكأس كما الكرة، من واحد إلى الآخر. يالنا من رجلين غير حضاريين، ومع هذا كان الأمر جيداً. لقد أقبلت على هذا الأمر باهتمام كبير، فأنا إنما ذهبت لأشرب، أما غينكا فقد خرج من البيت متأهباً لعزق البطاطا، كان لديه هدف آخر. طيب، البطاطا موجودة. وقال غينكا بعد أن أتينا على الزجاجتين : " الآن سوف أعزق

قليلاً كي لا تشك امرأتي غداً، وبعد ذلك أذهب وإياك إلى القرية ". فقلت: حسناً اعزق، بينما سأنظر إليك. وعاد يقول لي من جديد : " بدلاً من أن تجلس، الأفضل أن تحمل الشوكة إلى التلم، فتنتهي بسرعة ". نهضت، ونظرت، فإذا به لم يعد يفرق بين القطاعة والبطاطا. إذ راح يحفر حتى الجذور، وأقول له: " لكن امرأتك سوف تنتف شعر رأسك غداً على هذا العمل ". وافق على كلامي وقال : " لنذهب إلى القرية، ومساء، عندما يخف الحر سوف أنجز العمل ". وذهبنا. كان لا يزال معي نقود في جيبي. وكما لو أنه تلجلج، فقد أبطأ ستيبان قليلاً، ثم قال بحرص ومحبة : على كل حال لم أعد أذكر ماذا جرى معنا لاحقاً.

– هذا يحدث – أكد ميخائيل وهو يضحك بسرور، ويرفع رأسه. إن الأمر هكذا. وماذا جرى بعد ذلك، احكِ. وأنت يا إيليا اسمع ما جرى.

– وماذا جرى بعد ذلك، إن ما جرى بعد ذلك معروف. استيقظت كما في أعقاب القصف الذري، ولم أكن قد فتحت عيني حين رحت أسائل نفسي: في أي يوم نحن، هل هو اليوم الذي زرعت فيه البطاطا مع غينكا، أم أنه يوم آخر، وأين أنا – في البيت، أم خارج البيت؟ طيب. فتحت عيني بهدوء، كانت امرأتي ترقد بجانبي، فقد عرفتها فوراً. وفي السرير الآخر يرقد الأولاد – أولادي أيضاً. وهناك حماتي تصوب عينيها من ركنها نحوي. وبعد أن تمعنت ملياً، فكرت : لكن لابد من الوقوف على قدمي. ولم أكد أتحرك حتى قفزت حماتي، كما القطة، من مرقدها. لم أولها أي اهتمام، ونهضت. وفيما بعد فقط أدركت السبب، الذي جعلها تسبقني في النهوض. فهي، القرحة، لا يمكن أن تخطو خطوة واحدة إلا من أجل ضرري، ومنذ اليوم الأول تدور بيني وبينها حرب الأنصار. ولو ترك الأمر لها إذن لكانت قطعت رأسي بالبلطة منذ عهد بعيد، ولغرض دنيء، حتى دون أن ترسم إشارة الصليب. يالها من إنسانة متوحشة.

نهضت ، وذهبت إلى غينكا، لكي أعرف، حالته بعد ما جرى البارحة. لكن امرأة غينكا استقبلتني على العتبة بقولها : غينكا غير موجود. كنت أعرف أنه في البيت، وأنها تكذب بقولها إنه غير موجود. وتنتظر أن أعود

على أعقابي. ألا فلتخنقي بغينكاك، ما همي أنا، هو من ستسوء حالته. فهو لن يستطيع أن يشربك ليصحو – عليك أن تفهمي.

– إن ما قلته لها يا ستيبان هو عين الحقيقة – قال ميخائيل باستغراب – إنه كلام صائب جداً. أحسنت.

– ثم عرجت على بيتكا ساروكين، لكنه تظاهر أنه لا يشرب، ولم يشرب في حياته أبداً. " كلا – قال لي – وليس لدي نقود ". كأنني ما كنت سأعطيه. وعلى العموم فقد اضطررت للعودة إلى البيت. وكنت أعرف أن للفودكا البيتية كامل الحق في أن تكون موجودة في مكان ما في القبو لدينا. كانت امرأتي في الشغل، لكن حماتي في البيت. وصلت – وإذا الأمر كما توقعت : فقد وضعت الكرسي فوق المصيدة، وفوق الكرسي المغزل، وضغطته بمعجنها، وجلست تسحب الخيط. لقد حزرت قبلي إلى أين سأنزل. فهي إنما تعيش فقط من أجل أن تلحق بي الضرر، وليس لها من عمل آخر. وفكرت : طيب، سوف ننتظر. لابد أن تتحركي من مكانك. كان المهم بالنسبة لي أن أقفز إلى القبو، ومن هناك لن تخرجي حتى بواسطة الرافعة. لكنني تظاهرت أنني غير معني بالأمر، حيلة مقابل حيلة. خرجت من البيت، وبدأت أنتظر. لكن كم يمكن أن يطول الانتظار؟ إن رأسي يكاد ينشق نصفين. وفكرت، هل سيطول تعذيبك لي؟ ذهبت للاستطلاع فرأيتها جالسة كأنها مقيدة. فعرضت عليها باحترام : " ما بك يا حماتي تغزلين وتغزلين، لابد أنك تعبت، اذهبي وارتاحي قليلاً، تنزهي في مكان ما ". فقالت لي على الطريقة القديمة، بخشونة غير حضارية: " هنا، أنا مرتاحة ". وفكرت كم أود الآن أن أضربك كي ترتاحي أكثر. طيب وماذا يمكن أن تفعل معها؟ واضح أنها مستعدة لأن تموت هنا ولن تنصرف. وإذا ما أخذتها وحملتها مع المغزل إلى مكان آخر، فإنها ستبدأ بالصراخ، كأنني أريد ذبحها، وربما أفقد صبري، أو أضغط في مكان ما، لا كما يجب، وبعدها سوف أسأل. وفكرت : طيب، ابقي جالسة. اجلسي، ولا تتحركي أيتها الساقطة. – هدد ستيبان الأرضية بإصبعه المجدورة – وهكذا، وحين اكتشفت أنني في مأزق، تذكرت عندها أن هذا غير صحيح، وأنني لن أستسلم بهذه البساطة. لم يكن ينقصني إلا أن تملي علي سياستها.

أخذت الرفش من العنبر، وذهبت إلى إيفان. منزلنا كما تعرف على شكل براكة، أنا في شطر وإيفان في الشطر الآخر. وكذلك القبوان متجاوران، فخلف قبوي يبدأ قبوه مباشرة، بينهما حائط صغير يكاد يكون هَمَلاً، ففي العام الماضي كنت قد أنزلت لوحي خشب لكي أدعمه، بعد أن أوشك على التداعي. ذهبت إلى إيفان، وبحجة أنني أريد النظر إلى الحائط الصغير من هذه الجهة، نزلت إلى قبوه؛ وهناك ضربت بالرفش ضربتين، وإذا بكل شيء جاهز. تفضل. وهكذا انتقلت إلى جناحي، وتم كل شيء على ما يرام. وبعد أن نفضت ثيابي، تلفتت من حولي، فرأيتها – هاهي ذي علبة الدواء، واللمجة موجودة، فماذا ينقصني إذن؟ وأسمع حماتي وهي تتابع عملها. ففكرت : اجلسي، اجلسي، إنك تسدين لي خدمة، فلن تسمحي لأحد بالدخول إلى هنا. ولم أكن على عجل – أطبق ستيبان عينية بمرح وترقب – وهكذا فقد كادت، حماتي، أن تفقد عقلها، حين تناهى غنائي من هناك إليها : " عبر الوديان والمرتفعات..." . فطارت وكأن الريح حملتها، ولم أسمع إلا المغزل وهو يقع بصخب.

ضحك إيليا، وراح يتمعن ستيبان بفضول، ثم سأله – ليس لأنه لم يصدقه مباشرة، بل لكي يمتع نفسه وستيبان، ويطيل فترة تخيله تلك اللوحة الرائعة، التي تصور عبور ستيبان إلى القبو.

– وهناك شربت؟

– هناك، هناك – أكد ميخائيل بفرح، بدلاً من ستيبان، وهو سعيد أن القصة أعجبت إيليا– إذن هي تحرس فوق، أما هو فقد انتقل، كما الدودة، من قبو إلى آخر. والتصق. يا له من أمر. إنني لهذا أحترم ستيبان كثيراً.

– والأغنية لماذا؟

– هكذا – أصبحت الابتسامة الماكرة على وجه ستيبان أوسع – للتلذذ. لقد عاشت حياتها كلها دون أن تسمع الأغاني تأتي من القبو. إنسانة غير متحضرة.

– آه منكم، ماذا تفعلون هنا – قال إيليا بدهشة وحسد، وراح يهز رأسه، ويضحك من جديد– آه منكم.

– لابد أن يعيش الإنسان بطريقة ما. وهكذا، على هذا النحو، نعيش. من أجل التنويع في الحياة.

وعاد إيليا يستفسر :

– وبعد ذلك، ماذا قالت لك حماتك، حينما خرجت من القبو؟

– وماذا يمكن أن تقول لي؟ لتقل بعد ذلك كل ما يحلو لها.

– وزوجتك، ألم تقل شيئاً؟

– إنني يا إيليا أتمتع باللامبالاة تجاه زوجتي. وأنا لا أترك لها الحبل على الغارب. إن زوجتي مثقفة. حتى في الحلم ترى أنها الحرمة وأنا الرجل. والرجل هو الرجل، ومكانه هو الأعلى دائماً. – لم تكن همة ستيبان في سرد قصته قد بَرُدت بعد، ولذا فقد أطال في الكلام– بالطبع، لن أكذب فأدعي أن ليس لديها اعتراضات، خاصة، وكما يحق لك تماماً أن تحزر، فيما يتعلق بالمشروب. ويصدف في بعض الأحيان أن تعلن عن اعتراضاتها صباحاً في عيني مباشرة، وإذا كانت العينان مغمضتين، ففي أذني مباشرة، وبصوت عال، كمن يأمرك : " ارفع يديك ". لكن لدي – بالطبع– اعتراضاتي الرجالية على هذا الموضوع. فأطرحها أمامها بصوت مفهوم، لكي لا نثير النقاش عبثاً، وهكذا تعود الأمور إلى نصابها.

– كلا يا ستيبان – اعترض ميخائيل، وهو يلفظ الكلمات بصعوبة – هي حرمة، لكن بالإضافة إلى كونها حرمة، فهي امرأة. لا يجوز ضربها. سواء كانت حرمتك أم حرمتي، فهي بالإضافة إلى أنها حرمتك أو حرمتي، امرأة الدولة. إن بوسعها أن تتقدم بدعوى إلى المحكمة.

وهمهم ستيبان :

– وهل تحدثت عن الضرب؟ إنك يا ميخائيل لا تسمع ما يقال. ولماذا الضرب؟ الضرب هو التدبير المتطرف للعقاب. كما الإعدام رمياً

بالرصاص. إذا كانت الحرمة تعاملني بتفهم، فأنا أعاملها بتفهم. وعلى كل حال فإنني بدوري رجل الدولة، ولست أي إنسان بدائي. إنني وحرمتي محسوبان في عداد سكان دولتنا.

ـ إن ما تقوله صحيح جداً. حين تتحدث على هذا النحو، فإنني أشاطرك الرأي تماماً.

– إنني يا ميخائيل أدرك أن حرمتينا على نطاق الدولة هما امرأتان. لماذا تحدثني عن ذلك، فأنا بدوري إنسان متعلم إلى حد ما، أشترك في الصحف، وأقرأ.

– أعرف أنك تقرأ يا ستيبان. تقرأ.

– أشترك في ثلاث صحف – قال ستيبان مخاطباً إيليا، الذي لوح برأسه، وقد بدا عليه السأم – واحدة صغيرة من ناحيتنا، واثنتين كبيرتين – واحدة من المنطقة والأخرى الصحيفة المركزية " برافدا " إنني أقرؤها كلها. هناك البعض، الذين يشتركون فيها هكذا، من أجل الورق، للاستخدام المنزلي، أما أنا فلا يجرؤ أي كان حتى على لمس الصحيفة، قبل أن أقرأها من البداية إلى النهاية. إن " برافدا " المركزية تطبع يومياً، بدون عطلة أسبوعية، وأنا مع ذلك أقرؤها، لكي، يعني، أعرف الوضع الدولي والداخلي. فأنا أعرف أين حدث هذا الانقلاب أو ذاك، أو قام الكادحون بإضراب.

وبذل ميخائيل قصارى جهده لمتابعة الحديث :

– إن ما تقوله صحيح جداً. فالانقلابات تحدث والإضرابات. وأنا بدوري أعرف. أما في بلادنا فإن الحرمة هي بالإضافة إلى كونها حرمة، فهي إمرأة على كل حال. إن هذا بالنسبة لها نوع من الشتيمة، وعدم الاحـ – تـ – را– م. – كان ميخائيل يجزئ الكلمات الصعبة، ولكي لا يخطئ، كان ينطقها مع توقف، فقط بعد أن يستوضح ما الذي قيل وما الذي بقي أن يقال– وأنت يا ستيبان لا تخلط بين تلك البلدان وبين بلادنا، فأنا وأنت نعيش في بلادنا.

– أما أنا فاعتقدت أننا لا نعيش في بلادنا.

– كلا، كلا يا ستيبان، لا تخلط.

غمز ستيبان إيليا، وأشار بعينيه إلى ميخائيل، وكأنه يقول يكفي. جاهز، يتمتم بأشياء حتى هو لا يعرفها، ويضايقنا في متابعة الحديث. راح ميخائيل ينحني شيئاً فشيئاً، إلى أن استند رأسه إلى ركبتيه. لم يرد ستيبان عليه – ربما لا يحتاج إلا لدقيقة حتى لا يعود يسمع الأصوات، فيهدأ نهائياً، وحينذاك يمكن قلبه، كما الكيس، على السرير، ومتابعة الحديث بكل ارتياح. انحنى ستيبان قليلاً، وأوقف نظرته على منسوب الفودكا في الزجاجة كأنه كان يريد أن يتأكد مما إذا كانت تنقص أمام ناظريه. من يدري – فالزجاجة مفتوحة وبوسع أي مخلوق أن يدخل ويلعقها كأنها ملكه. كان ضميره يعذبه وهو يرى الزجاجات المفتوحة، التي لم تفرغ، كان ذلك عنده كمن يتمتع برؤية معاناة حيوان يحتاج إلى رصاصة الرحمة. إذا كنت مصمماً على القتل فاقتل فوراً، ولا تماطل. حاول ستيبان أن يلتقط نظرة إيليا، لكي يلمح له إلى أنه يكفي تهكماً من الزجاجة المسكينة. لكن إيليا كان ينظر باتجاه آخر.

شعر إيليا، بدوره، بالثقل بسبب الفودكا والأحاديث، لكنه كان، بالاختلاف عن ميخائيل، لا يزال محافظاً على توازنه. إن تلك اللحظة السعيدة والقصيرة، التي كان يجب التوقف فيها عن الشرب، قد فوتت منذ زمن بعيد، ولم يعد التحسر على ذلك مجدياً. فما العمل الآن؟ بالفعل ما العمل، ليت أحداً يعلمه. فقبيل قدوم ستيبان كان إيليا قد عرج على أمه فوجدها في شبه غفوة. ولم تسمعه وهو يدخل، أو أنها تظاهرت أنها لا تسمع، ولربما كانت تراقبه خلسة، وقد سر أنه لم يضطر لأن يتحدث معها، لأنه لم يكن يعرف ماذا يقول. لم يكن سكر إلى درجة أن يطلق الكلام على عواهنه. بدا كأن الفودكا لم تنل منه، وأن كل ما قامت به أنها أضافت عبئاً إلى ذلك الثقل، الذي سيبدأ مفعوله غداً، أو بعد غد. حين ظهر ستيبان ابتهج إيليا وانشغل، أما الآن، وبعد أن انتهت الأسئلة والأجوبة، التي هي أول ما يقال عند اللقاء، ولم يتطرق الحديث بعد إلى الذكريات، فقد لاذ بالصمت

من جديد، وهو يجد صعوبة في إرغام نفسه على مراقبة ما يجري من حوله، كأنه يجلس بين هؤلاء الناس، بمن فيهم ستيبان أيضاً، منذ عهد بعيد، لدرجة أنهم بدؤوا في وقت قصير يضجرون بعضهم البعض. كم يود أن يغمض عينيه الآن ويغفو، لكن ميخائيل أجبره على أن يبقى صاحياً، فهو لم يكن يريد أن يبدو مثل أخيه بحضور ستيبان، ولذا فقد حاول أن يصمد.

بعد الغداء عثرت الشمس، وهي تعرج من الجانب،على نافذة الحمام الصغيرة، فلم يلبث الحمام أن تدفأ، وأصبح الجو خانقاً. ولم يكونوا يرغبون في فتح الباب لكي لا يحشر أنفه أحد – لا الدجاجات ولا الكلاب ولا البشر. وهكذا فقد اضطروا للتحمل. فستيبان راح يتعرق، وتغطت صلعة إيليا أيضاً بقطرات العرق الصغيرة، أما ميخائيل فوحده من كان الأمر عنده سيان – حر حارق، أم برد قارس.

وإذ تذكر ستيبان حديثه مع ميخائيل، قال بتذمر واستياء :

– ما دام الأمر على هذا النحو فإن ما فيها من المرأة أصبح كثيراً، أما من الحرمة فلم يبق شيء. فلا يقتصر الأمر على مرافقتها إلى السينما، بل ويجب أن تعيش وإياها. فيما يخصني – على سبيل المثال – الحرمة تناسبني للحياة أكثر. فهي قادرة على أداء أي عمل، ولن تنتظر عودة الرجل من ورديته في العمل لكي يجلب لها دلو الماء. إنها قادرة على القيام بكل شيء بنفسها. ثم إنها صبورة، ولن تقيم الدنيا وتقعدها من أجل التفاهات. في جو الأسرة يمكن أن تحدث أشياء كثيرة – فلماذا يجب أن يعرف بذلك القاصي والداني في القرية، أو في المدينة، لمن يقطن المدينة؟ " إنني امرأة، إنني امرأة " – قلد ستيبان ساخراً – طبعاً لست رجلاً، الجميع يرى ذلك. طيب. وإذن؟ هل يجب حملك على السواعد على ذلك، أم تمسيدك من رأسك؟ أوليس عليك أن تفهمي لماذا يحملن على السواعد، وبعد ذلك تسألين. إنك إنسان مثل أي منا، لكنك من جنس آخر. حتى البرغوث يعرف الخلافات[1] بيننا في الجسم البشري، ولا داعي لطرح مطالبك بناء على هذا. طبعاً نحن لا نستطيع العيش بدونهن، لا أحد يجادل

---

[1] هكذا وردت في النص الخلافات، بدل الاختلافات.

في ذلك، هكذا بنيت الحياة. لكن تُرى هل يستطعن هـن العـيش بـدوننا؟ في كل الأحوال هن لا يستطعن أكثر منا. ما رأيك يا إيليا؟ إنني أقول إنهن لا يستطعن أكثر منا، تلك هي طبيعتهن. وثانياً فإن لـدى الرجـل خـارج أوقات العمل، عدا عن الحرمة، مشاغل أخرى، أما هي فيمكن أن تعتبر أنه ليس لديها.

– هذا صحيح – أجل – أكد إيليا بإيجاز. ولقد أعجبته الفكرة القائلة إن المرأة أكثر حاجة إلى الرجل من حاجة الرجل إلى المرأة. ونشطته، وظهر على وجه إيليا تعبير مراوغ – خداع. كالذي يحدث بعد نـزوة موفقـة، لا يعرف بها أحد بعد.

حدج ستيبان الزجاجة بنظرة جانبية، كاشفاً، شاء أم أبى، عن أنه يعتبر أن أحد أهم المشاغل الرجالية خارج أوقات العمل، والتي ذكرها للتو، هـو المشروب.

– صيف العام الماضي سافرت إلى المدينة – استأنف ستيبان – وهناك تفرجت على تلك النسوة بما فيه الكفاية. حقاً أنى نظرت لا ترى إلا النساء، حتى إنني رحت أتفحصهن عن قصد علني أرى ولو حرمة حية واحدة، من ذوات اللحم لا من ذوات النوابض. وإذا ما صدف وشاهدتها، فإن الفرحـة تغمرني أنهن بقين، وإلا فإننا لن نبحث عنهن كما نبحث عن مومياءات مـا قبل التاريخ. وهي إذ تسير، يدلك مظهرها على أنه كـان لهـا أم وجـدة، ويدلك على أنها إنسان موجود في الواقع، أما هؤلاء النسوة، خاصة أولئـك الأصغر سناً، فهن كالدمى المتحركة، تشبه كل منهن الأخرى، لدرجة أنـك تعجز عن التمييز بينهن. إنهن لم يولدن، وإنما في المعامل صنعن.

ودس إيليا جملة :

– بالمرس.

– ماذا تقول؟

– أقول بالمرس، أي بالمواصفات الرسمية.

– به، بالضبط. لكن بعضهن مخروط بشكل أفضل، وبعضهن بشكل أسوأ، ولا يوجد فرق آخر. ويسرن وهن يتبخترن : ها أنا ذا، انظروا إليّ. وهاكم رجلي، هذه اليمنى، وهذه اليسرى، كأنها وحدها من ذوات الأرجل، بينما الأخريات من ذوات العكاكيز. وهاكم دوارتي – إلى هناك، إلى هنا، إلى هناك، إلى هنا – يا للروعة. كأن أحداً لا يعرف لماذا وهب الإنسان هذا الجهاز. إن عليها أن تخبئها، هذه الدوارة، أما هي فعلى استعداد لأن تعريها تماماً. هاكم كم ادخرت من الشعر على رأسي، وهاكم أي عينين لدي : لست أراكم وأنتم أمام ناظري، أما انتم فتفرجوا عليّ، وتمتعوا برؤيتي. إن هدف حياتنا إنما يكمن، إذن، في أن تعرض نفسها، لست أدري كيف تتنفس هناك، حيث لا يراها أحد. لكن في حال حدوث شيء : أوي، أعصابي، جملتي العصبية. فيداها أعصاب، ورجلاها أعصاب، وذلك المكان، الذي تنمو منه الساقان، كله أعصاب. لا تقل لها كلمة. بت أربع ليالي عند عديلي. إن زوجته، إذن، من هذا النوع من النساء، فهو إن لم يدارها، وأزعلها قليلاً، تهرع إلى المستشفى. وأثناء وجودي كانت تهرع إلى هناك كل صباح. وسألتها مستفسراً : وماذا يوجعك؟ " على أساس الجملة العصبية". – "وماذا بالتحديد يوجعك على هذا الأساس، أي مكان؟".

– "وهنٌ عام، هذا ما لا يمكن أن تفهمه". وماذا يجب أن أفهم...ليس لديها أي وهن، بل غنج ودلال. ليس لديها ما تفعله، فتراها تتغنج، وتبني عليه نزواتها. هكذا هن النسوة. الموضوع ليس في أنهن نسوة أم غير نسوة، بل في أنهن لا يجدن القيام بأي عمل، وغير مؤهلات للعمل. وهن لن يلبثن أن ينسين الولادة. لست أدري – وهز ستيبان رأسه مهموماً – وإذا ما اندلعت الحرب؟ ماذا يمكن أن ننتظر من هؤلاء النسوان؟ ذرف الدموع والموت؟ في تلك الحرب ساهمت الحرمات بتحقيق نصف انتصاراتنا، أما الآن فلم يعد ثمة حرمات. هيا، قل يا إيليا.

– وماذا أقول؟ هذا صحيح.

– لقد قال هو – وأشار ستيبان إلى ميخائيل المنحني أشد الانحناء – إنه لا يجوز وصفهن بالحرمات، وإن في هذا إهانة لهن. ولماذا إهانة؟ وما الشيء السيء في هذه الكلمة؟ ولماذا لا أشعر بالإهانة حين يقولون لي

موجيك[1] ؟ لا بل العكس، فإنه إذا ما دعاني أحد بالرجل فـإنني أسـتاء، وأزعل، كأنني لا أستطيع أن أكون موجيكا، وأكون في الوقت نفسه مناسباً للعمل وللبيت. إنني موجيك ومازلت موجيكا – وماذا أحتاج أكثر من ذلك؟ والشيء نفسه ينسحب على الحرمة. يا سلام، أزعلوها. خذ أمك – العمـة آنا، لقد أمضت حياتها كلها حرمة، ولم تزعل من أحد. فلتجرب الأخريات أن يكن حرمة مثلها. ليس بمقدور أحد، أياً كان، أن يقول بها كلمة سوء، لا يحق له. إن لسانه لا يطاوعه.

وتلعثم ستيبان على حين غرة، فسكت، وكأن الإلهام جاءه – دعنا يـا إيليا نشرب نخب أمكم – قال ستيبان بهدوء وتلذذ، ذلك التلذذ الذي يـشعر به الصياد، وهو يراقب الطائر الساقط، مدركاً أن الطلقة كانت ناجحة جداً، ومغتبطاً لنجاحه – هيا يا إيليا. إن شرب نخب العمة آنا ليس بحرام.

– هذا عين العقل– فجأة، تناهى إليهمـا صـوت ميخائيـل – فـصل ميخائيل رأسه عن ركبتيه، وركز نظرة دقيقة ثاقبة على الزجاجة، بانتظار إرغامها على القيام بما عليها القيام به، وأضاف مؤكداً – من الـضروري جداً أن نشرب نخب أمنا. صب يا إيليا.

حدجه ستيبان بنظرة جانبية :

– فكرنا أنك نائم.

– ربما كنت نائماً، لكن بوسعي أن أشرب نخب الأم في الحلم أيـضاً. هكذا يا ستيبان. فنحن إنما اشترياها لنشرب نخب أمنا، وليس نخـب أحـد آخر. اسأل إيليا، يقل لك. – وأطلق ميخائيل ضحكة مبحوحة، وهو يتـرنح – لكننا نسينا. لقد فعلت عين العقل يا ستيبان أنك ذكرتنا. عين العقل تماماً. وإلا فإننا نسينا. نسينا، وانتهى الأمر. وماذا تأخذ منا؟ نشرب هكذا ببساطة، كأنه لا أحد نشرب نخبه. إنها غلطة منا بالطبع. لم نكن نعتقد أننا سنشرب نخبها حية. هذا هو الأمر، اسأل إيليا، يقل لك.

---

[1] قروي ، فلاح ، فظ .

– كفاك حديثاً عن ذلك – قاطعه إيليا.

تلعثم ميخائيل، وحدج إيليا بنظرة عليلة مقطبة، وقال ببطء :

– إذا كان يكفي، فليكن ذلك. إذن الأمر لا يعجبك.

وقال ستيبان :

– إن أمكم جيدة.

– لم تمت – قال ميخائيل بلهجة لم تعد مرحة، دون أن تفهم هل هو يشكو أم يطري – وهكذا فلم تمت. لا تزال حية. إذا كنت لا تصدقني، فاذهب وانظر بنفسك – ثم تطاول لتناول الكأس، فسارع ستيبان، الذي خاف أن يسقط، وناوله كأسه عن القن – نخب الأم يجب أن يشرب حتى الثمالة – طالب ميخائيل، وكان أول من شرب، كما هي العادة، ثم دفع بالكأس على الأرض باتجاه إيليا فالتقطه إيليا، ثم تقارع مع ستيبان بصمت.

– لك الحق التام في أن تنسى، فقد كنت صغيراً– قال ستيبان فيما بعد، مخاطباً ميخائيل. ودون أن يسمع، أقعى ميخائيل من جديد على صندوقه، وقد التف على نفسه، فالتفت ستيبان إلى إيليا – ألا تذكر يا إيليا كيف انتقمت أمكم له، لهذا؟ وكيف لا تذكر، إنك تذكر بالطبع. فقد أمسك دينيس أغابوفسكي، ليته يختنق في العالم الآخر، بأخيك مينكا في حقلة الحمص، وأصابه في ظهره بطلقة ملح. إنك تذكر دينيس، ذلك الوحش، كان آنذاك يحرس حقلة الحمص – ياله من بطل. وقد وقع مينكا بين براثنه. لقد تآكل ظهره كله، فكان منظره مرعباً. ولم تترك أمكم الأمر يمر هكذا، فحشت طلقتين بالملح وتوجهت إلى دنيس وملحت له مؤخرته من كلتا السبطانتين لدرجة أنه أمضى فترة طو – يـ – لـ – ـة لا يستطيع الجلوس ولا الرقاد، فكان يدب على يديه وركبتيه. ألا تذكر.

– أذكر – أجل – ابتسم إيليا – ولقد أرادوا محاكمتها، لكن القضية لم تلبث أن طويت.

– إذاً لكنت قد أريتهم كيف يحاكمونها! أمن أجل دينيس! لو أنه كان إنساناً.

– بماذا تتمتمان هناك – سمعهما ميخائيل، وطالب: أغنية. هاتوا أغنية.

قال ستيبان بدهشة:

– إنك بسبع أرواح يا ميشكا. وما الأغنية التي تريد؟ ربما تلك التي تتحدث عن الدببة وهي تحك مؤخرتها، يعني، بمحور الأرض، أم عن شيء آخر؟ أغنية جيدة. إنها بالضبط تناسبني وإياك.

– لا . – رفض ميخائيل – أريد أخرى. أغنيتي الشعبية الروسية المفضلة. – ورفع رأسه، وحافظ عليه معلقاً، ثم رفع عقيرته :

«ليتهم يقدمون لنا، إذاً لشربنا...

وهوى رأسه، فاستند إلى ركبتيه. واختتم ميخائيل غناءه، منتحباً : «لكنهم لم يقدموا لنا – فلم نشرب».

ابتسم ستيبان :

– يا له من تلميح.

عاد ميخائيل يكرر المقطع نفسه، إذ لم يكن يعرف أكثر من ذلك، وبعد أن تحرك، هوى من الصندوق نحو الأسفل، على الفراش، بكل سهولة، ودون صوت، لكأن أحداً رفعه.

تفرج إيليا وستيبان عليه، واقترح ستيبان :

– ربما نغني حقاً ؟

– هيا. فالمنادمة تتطلب الموسيقى – كانت الفودكا الأخيرة قد جعلت إيليا أكثر تصميماً، وفي عينيه توهجت أضواء ممتدة.

وقال ستيبان منبهاً :

– لكننا لن نغني هذه، الحديثة، التي يبثونها بالراديو. إنني لا أحبها، فهي... إنها مسلية، عند غنائها، ليست مسلية بقدر ما هي مدغدغة، كأن أحداً يداعبك، كما يداعب الطفل. لكن ما إن تغني – هل تذكر لعبة الصغار.

" أما من أصغى، فهو غبي ".

والشيء نفسه هنا أيضاً. كأنك عرضت نفسك غبياً، لأنك أصغيت. ولاشيء آخر. الأفضل أن نغني أغانينا، تلك التي تلامس شغاف القلب، بدون خداع.

– ربما نغني أغنيتك المفضلة؟

– وما أغنيتي المفضلة؟

– تلك، التي غنيتها لحصانك في القبو.

ضحك ستيبان :

– وليكن – يمكن أن نبدأ بها.

وبصوت متزامن انفجرا بالأغنية القتالية المعروفة : " عبر الوديان والمرتفعات ". وراح ميخائيل يصاحبهما، مغمغماً.

- ٩ -

باستثناء الأم، لم يعد أحد ينتظر تاتيانا. لو أنها كانت ستأتي، إذن لكانت قد وصلت، فهي لا تعيش في أمريكا، وحتى من أمريكا يمكن الوصول في ثلاثة أيام. على الأرجح أن رسالة ستصل منها فيما بعد، بأنها كيت وكيت لم تتمكن، لم تكن في البيت، أو شيء ما من هذا القبيل. والطريف في الأمر، ماذا ستسأل عن الأم، وهي تجهل ما إذا كانت حية أم لا؟ وفي كل الأحوال لابد أن تكتب وتسأل، فهنا لا يمكن الصمت والاكتفاء بالتحيات لجميع الأقارب والمعارف، دون أن تأتي على ذكر الأم. لكن هذه مشكلتها، ولتخرج منها كما تريد، طالما لم تجد من الضروري أن تأتي. وماذا يمكن أن يكون لديها هناك؟ لا أحد يعرف بالطبع، ومن الصعب الحكم عليها غيابياً. شيء واحد واضح وجلي : إنها غير موجودة هنا، ولا شيء ينم عن وجودها.

وحدها العجوز ظلت تنتظر دون توقف. فكانت تختلج لدى أي صوت خلف النافذة، وتتحول إلى آذان صاغية لدى كل حفيف عند الباب. إنها لا تذكر أن هذا من عادة ابنتها، لكن كان يخيل إليها أن تانتشورا، ما إن تدخل العزبة، حتى تقترب خلسة، وتنظر إلى أمها في الخفاء، وبعد ذلك فقط تكشف عن نفسها، ولذا فقد كانت لا ترفع عينيها عن الباب، لكي تمسك ابنتها، ما إن تطل عليها. كانت عينا العجوز جيدتين، وبالنسبة لعمرها لا داعي للتذمر؛ لكنهما كانتا تتعبان من التحديق في مكان واحد، كأنهما

اضطرتا كثيراً لحمل السياج الثقيل المعلق فوقهما. ولم تكن العجوز تـرأف بهما، فكانت ترغمهما على النظر، فما حاجتها الآن لادخارهما، لأية حاجة؟ إنهما تكفيان لتفحص تانتشورا، ولا حاجة لها بهما بعد ذلك. وعندما كانـت عيناها تدمعان بسبب التعب والألم، عندها فقط كانت العجـوز تغمـضهما، تاركة شقاً ضيقاً بالتناوب، في هذه العين تارة، وفي تلك تارة أخرى، يمكن أن تختلس منه النظر، على هذا النحو كانت تريحهما.

وكلما تطاولت فترة هذا الوضع المضني الفارغ، كلما تناقص الوقـت المتبقي لديها للانتظار. كانت العجوز تدرك أن تانتشورا يمكـن أن تـصل اليوم فقط، وأن هذا هو الموعد الأخير، الممنـوح لهـا، ومـع يـوم غـد ستفترقان، هي وهذا الموعد، الذي سيذهب في اتجاه مختلف تماماً. لم تكن العجوز تعرف ما الذي سيجري غداً، ولم تكن تحاول معرفة ذلك : مـا دام ثمة أمل كانت تأمل وتصدق أن تانتشورا ستلحق، ولن تسمح بـألا تلقـي عليها أمها النظرة الأخيرة. وإذا لم تصل في هذه الدقيقة، فسوف تصل في الدقيقة التالية، لا يزال هناك وقت، ولا داعي لأن تعذب نفسها، سوف تأتي من كل بد. وبعد الظهر بوقت طويل حدث أن راح قلب العجوز يدق بشكل أقوى، وفسرت العجوز ذلك على أنه أحس بتانتشورا، التي أصبحت قريبة جداً، ولن تلبث أن تصل. وانتفضت العجوز كما لو أنهـا عـادت شـابة، واستعجلت. كانت ترغب في أن تستقبل ابنتها وهي جالسة، كي لا تبين لها منذ النظرة الأولى عاجزة تماماً، ولا تصلح لشيء، وفي عجلتها، فاتهـا أن تراقب نفسها كما يجب، فكادت تقع، لكنها تمكنت من البقاء فـي الـسرير بمعجزة، ولم تتحطم. ولم يكن لديها الوقت حتى لتصب شتائمها على نفسها على خطئها، ولم تكد تستقر في جلستها، حتى حركت رأسها باتجاه البـاب، واستعدت. وبالفعل فقد سمع وقع خطوات، وتحركـت الـستارة، ودخلـت بربارة. وظنت العجوز، بعقلها المتحمس، الـذي لا يرضـخ، أن بربـارة جاءت تنبئها بقدوم تانتشورا، لكن تلك راحت، وكأنما لتغيظ أمها، تروي لها ما يتحدث به الناس في القرية عن حلمها. ماذا يمكن أن تنتظر منها، إنهـا بربارة ولا تزال بربارة. ودون أن تصغي إليها، انصرفت العجـوز بكـل

كيانها نحو الباب، فعما قريب سيحمل لها الهواء وقع خطوات أخرى وصوتاً آخر... عما قريب. لكن ذلك تأخر. ولم يحدث.

ظلت جالسة طويلاً، وكانت تفقد نفسها أحياناً، وتسهو، وحينذاك كان يخيل إليها أن إنساناً آخر حل محلها هنا، والأمر عنده سيان، أتت تانتشورا، أم لم تأت، ولهذا السبب فهو لا يسمع شيئاً، وعندها كانت ترغم نفسها على الإصغاء بانتباه أكثر. وكانت نينكا لا تكف تروح وتجيء، وشفتاها ملوثتان بالسكاكر، أما بربارة فكانت تهمهم بشيء ما وهي تتحرك في أرجاء العزبة، فتصر أخشاب الأرضية المزقزقة على وقع خطواتها. استاءت العجوز منهما لأنهما تشغلان سمعها وتمنعانه من العثور على ما يتوق إليه، بين كل ما يحيط بها. وبعد ذلك عادت ليوسا من التلة، وشرعت تسأل أمها إذا كان يؤلمها شيء. فهزت العجوز رأسها، كانت تريد من ليوسا أن تنصرف. وبالفعل فإن ليوسا لم تلبث أن انتقلت إلى الغرفة الأخرى، واستلقت هناك على سرير ميخائيل – من الواضح أنها أتعبت قدميها بسبب السير لمسافة بعيدة، بعد هذا الانقطاع الطويل، فقررت أن تتركهما ترتاحان قليلاً.

في نهاية الأمر شعرت العجوز بالتعب، وأنها غير قادرة على متابعة الجلوس، ثم إنها بدأت تشعر بالطنين في رأسها بسبب تنصتها المستمر. وتذكرت أن الفرح والترح يحبان المباغتة، والقدوم على غير انتظار، ولامت نفسها لأنها بالغت في الانتظار. فحالت بذلك دون وصول تانتشورا. لقد صدق المثل : قل للغبي أن يصلي شه، تره يفلق جبهته تعبداً. وما السوء إذا نظرت إليها تانتشورا خلسة، قبل أن تكشف عن نفسها، ورأتها في وضعية الرقود؟ ليس في ذلك ضير عليها، على العجوز. لكنها بالمقابل ستأتي، وسترى العجوز ابنتها أمامها، وتذرف لها آخر ما في مآقيها من الدموع، مباركة لها. ولا داعي للاستعجال، لا داعي، فعلى كل حال لن تستطيعي أن تقفزي، وتهرعي للقاء، فاردة جناحيك – يديك الخفيفتين. لا داعي للنقاش ... كنت ترقدين – إذاً فابقي راقدة، طالما أنك غير قادرة على ما هو أكبر من ذلك.

رضخت لنفسها ورقدت. والآن ليتها تتخلى عن التفكير في أي شيء، وأن تتخفف من الانتظار كما من الألم، وأن تسترخي بكل جسدها، وتتلهى، مدخرة نفسها للفرحة القريبة. استدارت العجوز في سريرها في وضعية أنسب، لكي لا تحس بوزنها أبداً، وحاولت الاستسلام للسكون – للسكون الحنون الجذاب، الذي سيخرجها، بعد أن أصبحت خفيفة، من السرير، بصوت غير مسموع، ويفتنها بخرير بعيد – بعيد.

كانت الشمس لا تزال في مجال الرؤية، وكان ضوؤها الذهبي غير ساطع ودافئاً، فتدفأت به العجوز، وإذ شعرت بالدفء، استكانت ببطء، وهي تذكر نفسها ولا تذكرها، تعرف ولا تعرف ماذا تحتاج في نهاية هذا النهار الهادئ والمشرق. كانت اليوم قد رحلت في إغفاءات كثيرة، إغفاءات كلها مرهفة حذرة. وكانت الآن تدرك جيداً أنها تغفو، وهي جاهزة للاستيقاظ في أية لحظة، فبعد أن هدهد قلبها جسمها، استأنف مناوبته، وكانت اهتزازاته الحذرة لا تسمح للعجوز بأن تروح في سبات عميق. ولذا فحين مثلت تانتشورا أمامها لم تصدق العجوز، فقد أخبرتها الذاكرة بأن عينيها مغمضتان، وبالتالي فهي غير قادرة على رؤية تانتشورا حقيقة، لكن ذلك لم يكن حلماً أيضاً، فهي لم تكن نائمة فعلاً، بل كانت دائماً في منتصف المسافة إلى النوم – كلا إن هذه الرؤيا الضعيفة، المعذبة، إنما رسمها أمامها، وهو يتلاشى، ذلك الانتظار عبثاً، الذي يتحرر منه، فظلت العجوز مطمئنة. وهنا أيضاً، في غفوتها المشرقة، كما عادت تفكر بتانتشورا، وفهمت ذاتها – كانت تولد من تلقاء نفسها، فتتوارد نحوها من خارجها، وكأنها جاهزة، ولم تكن تسبب لها العذاب، بل تحمل لها المواساة. وفيها راحت تبحث عن الشيء نفسه- ما الذي يمكن أن يكون وراء تأخر تانتشورا. لم تسافر وحدها، بل برفقة زوجها، ولكن لم يكن ثمة داع لاصطحابه. فهو عسكري، والرب، على كل حال، لا يحب العسكريين – وهكذا فقد رآهما في مكان ما معاً، فأوقفهما، دون أن يستوعب أن هذا العسكري خاص بتانتشورا، وليس غريباً، وأنهما في عجلة من أمرهما للوصول إليها هي، العجوز. وفيما بعد يبدو أنه لمس على رأسه وتركهما وشأنهما، لكن التأخير حصل، وقد سبق السيف العذل. إن الذنب ليس ذنب

تانتشورا، كل ذلك بسبب زوجها. لكنهما الآن أصبحا قريبين، ولن يلبثا أن يكونا هنا.

شعرت العجوز بالارتياح، وتنفست الصعداء، وبعد أن ترنحت قليلاً، رفعت جسمها، الذي لا وزن له، إلى حيث يصعب على الأصوات الجانبية الوصول.

منذ عهد بعيد لم تر تانتشورا، لكنها لا تدري منذ متى. فهي لم تكن تحسب هذا الفراق بالسنوات، بل بشعورها الأمومي – لم تكن تميز بين الثلاث، الخمس والعشر سنوات، التي كانت لها شيئاً واحداً : إن عهد تانتشورا بالبيت بعيد، أبعد من جميع أولادها. فبعدها جاءت ليوساء وبان إيليا، العائد من الشمال، هذا عداك عن بربارة، التي تأتي كل شهر، بينما تانتشورا لم تأت، ولم تأت. مرة كتبت أن زوجها سينقل للعمل في مكان آخر، وأن الطريق إلى هناك يمر قريباً جداً من البيت، ولذا فإنهما سيعرجان في الطريق من كل بد. كانت العجوز آنذاك لا تزال قادرة على السير، فانشغلت وبذلت قصارى جهدها من أجل استقبال ابنتها، وإكرام وفادة صهرها، الذي لم يسبق لها أن رأته حياً، أمامها. وبانتظار وصولهما كانت تغسل أرض العزبة كل يوم، ولكي لا يفاجئانها كانت تجهز مختلف ألوان الطعام، حتى إنها أجبرت ناديا على شراء زجاجتي نبيذ من المتجر، ولفترة طويلة ظلت تخبئهما عن ميخائيل، تحت وسادتها. وفيما بعد اضطرت، على كل حال، أن تعطيهما لميخائيل، لأن تانتشورا لم تأت، لقد نقلوا زوجها فعلاً، لكن ليس إلى حيث أرادوا نقله، بل إلى هذه الكييف[1]، حيث لا يزالان يقطنان حتى اليوم. وفي ذات مرة أرادوا نقله من كييف إلى مكان ما، خارج البلاد، ومن جديد كتبت تانتشورا أنه سيحصل قبيل ذلك على إجازة، وحينذاك سيأتيان لوداعهم، وفي هذه المرة لم ينقلوا صهر العجوز لسبب ما، كما لم يمنحوه إجازة. شعرت العجوز بالحزن لأنها لم تتمكن من رؤية تانتشورا من جديد، وبالفرح لأن ابنتها لم تسافر لتعيش في

---

[1] المقصود مدينة كييف عاصمة أوكرانيا حالياً بعد انفصالها عن روسيا.

مكان أبعد، إلى أناس غرباء تماماً، حتى إنهم لا يتكلمون لغتنا، والتي لن ترتاح للحياة بينهم. على هذا النحو استمرت الأمور حتى اليوم.

نادراً ما كانت تانتشورا تكتب، ومع هذا فقد كانت تكتب أكثر من الآخرين، وكانت رسائلها ترد باسم العجوز مباشرة. هي وحدها كانت ترسل الرسائل باسم أمها، فكانت العجوز، وهي تأخذ بيدها المظروف الجميل، بأطرافه المخططة بالأحمر والأزرق، نهباً لمشاعر الاعتزاز والانتظار : الآن سوف تعرف ما أرادت تانتشورا أن تقول لها. لكنها لم تكن على عجلة من أمرها، فكانت تتفحص الرسالة طويلاً تحت الضوء، وتتمعن في الصورة والخاتم على المظروف، وبعد ذلك فقط، كانت تفتحها بكل حذر، وهي تسعى جاهدة لكي لا تلحق الضرر بالمظروف، ثم تخرج الورقة المغطاة بالكتابة. لم تكن العجوز تجيد القراءة، وكان بوسعها، أن تحتفظ بالرسالة، غير المقروءة، من الصباح حتى المساء، متأملة غموضها، ومحاولة النفاذ إليها بروحها. وفيما بعد تبدأ مرحلة القراءة، فكانت العجوز ترغم ناديا وميخائيل وكل من كان يأتي إليهم، على قراءتها : كانت تخشى أن يقرأ الناس المختلفون الرسالة بشكل مختلف. ولم تكن العجوز تطمئن إلا بعد أن تتطابق القراءات كلمة كلمة، ثم تخبئ الرسالة تحت رأسها، لكي تطيل من سعادتها، وترى تانتشورا في الحلم أيضاً.

لم تكن تتمتع بمثل هذه السلطة على الرسائل، الواردة من ليوسا وإيليا، إذ لم يكونوا يقرؤونها لها إلا مرة واحدة، وأحياناً لم يكونوا يقرؤونها البتة، بل كانوا ينقلون لها ما ورد فيها بكلمتين أو ثلاث، وكفى، فكانت العجوز تجد نفسها مضطرة للاكتفاء بهذا القليل. وكانت الظنون تساورها في أنهم لا يخبرونها حتى، بكل الرسائل، ليس لأنهم لا يريدون أن يقولوا لها، بل لأنهم ينسون، ولا يدرون ماذا يقولون : بكل بساطة ليس فيها شيء مميز، ينبغي إبلاغ العجوز به، فلا سبب لكتابة الرسالة. كان إيليا يسأل على عجل، وكأنه يمزح، كيف تتنفس الأم هناك؟ – أو : كيف أحوال الأم؟ – وغالباً ما كان الاهتمام بالأم ينتهي هنا، وبالتالي فإن رواية ذلك للعجوز لم تكن بالأمر السهل فعلاً. ومن ليوسا كان يصدف أن تصل رسائل طويلة مسهبة، خاصة إذا كان صمتها قد طال. وفي هذه الرسائل كانت تفرد للأم مساحة

أكبر، وكانت تكتب فيها شيئاً من قبيل " قولوا للماما إن الأدوية تساعد في كل الأعمار " – هذا حين كانت العجوز ترفض تناول الدواء، وتقول إن الحبوب لا تنقذك من الختيرة. – أو " احرصوا على أن تلبس الماما في الشتاء بشكل أفضل ". – كأن الأم لا تعرف بدونها أنه لا يمكن أن تعيش في البرد باللباس الصيفي. أما إيليا فالحمد لله أنه لم يكن يسدي النصائح. لم يكن هذا ما تحتاجه العجوز منهم، بل كانت تريد أن تعرف كيف يعيشون هم أنفسهم، وكيف يلبسون في الصقيع كي لا يموتوا، وماذا يأكلون، ما داموا لا يقتنون لا بقراً ولا دجاجاً ولا خنازير. وفي نهاية الأمر أرغمت العجوز نفسها على أن تصدق أن الناس في المدينة أيضاً لا يجوعون، لكنها لم تكن قادرة على أن تفهم كيف يتمكنون من ذلك بدون الاقتصاد المنزلي، وكيف يمكن العيش بدونه إجمالاً. كان ما تكتبه ليوسا وإيليا عن نفسهما من القلة لدرجة أن العجوز كانت تلاحق ناديا بأسئلتها الملحاحة المدققة، كأن تلك أخفت شيئاً، أو أن شيئاً فاتها عن غير قصد، أما ناديا فكانت تقف حائرة، لا تعرف بماذا تجيب : من أين تأخذ أكثر مما ورد في الرسالة؟ فلن تختلق من عندها أشياء على لسان إيليا، الذي كانت ترد منه مرة واحدة في العام قصاصات قصيرة، بحجم راحة اليد. كانت قراءة رسائل ليوسا وإيليا للعجوز عذاباً حقيقياً، وغالبا ما كان هذا العذاب من نصيب ناديا، أما ميخائيل، فعلى سؤال الأم ماذا يكتبون، كان يمكن أن يلوح بيده : هكذا... لاشيء – ثم ينصرف، وتبقى ناديا.

كذلك قلما كانت تانتشورا ، ترضي العجوز تماماً، لكنها كانت تغفر لها الكثير، فقد كانت علاقتها بهذه الرسائل من نوع خاص. فهذه الرسائل كانت مخصصة للعجوز – لقد أرادت تانتشورا أن تكتبها خصيصاً لها، وكتبتها، وقد نقلوها وحملوها خصيصاً من أجلها، ولكي لا تضيع، مهرت المظاريف، التي كتب عليها بخط تانتشورا، اسم العجوز، بالأختام الرسمية. وما كانت تانتشورا ترغب في أن تقوله لها، لم تقله بواسطة أحدهم، بل مباشرة، لكأنها ترى أمها أمامها. لم تكن تكتب " قولوا للماما "،بل كانت تكتب " أماه "، وهذا النداء الحنون الوحيد " أماه " كان يرغم العجوز على أن تتجمد من فرط السعادة والخوف، وكانت تشعر، تحت وقع هذا النداء،

بالإبر الباردة المستقيمة تسري عبر جسدها. لم تكن العجوز تذكر أن تانتشورا كانت تناديها على هذا النحو في البيت، ليس لأنها لا تذكر، بل لأن تانتشورا لم تكن تخاطبها بهذه الكلمة : فمثل هذا النداء لا يمكن أن تنساه حتى أكثر الأمهات نسياناً. إذن فابنتها اكتشفت هذا النداء لها هناك، في الجانب الآخر. كانت العجوز تهمس، بشفتيها فقط، هذا النداء الموجه لها " أماه"، فتسمع فيه أنين اليتم والألم، فيتملكها الرعب، وتروح تبكي مغافلة نفسها، وهي تفكر بأنها لا تذكر بداية الدموع، وتوهم نفسها بأنها ذرفتها لسبب آخر تماماً. أن تبكي بالاتفاق مع نفسها يعني أنها أذعنت لمخاوفها، وكان ذلك أسوأ، حيث يكون من الصعب البحث عن الأمل.

إن الأمل يأتي من عند الرب، فكرت العجوز، لأن الأمل خفر، خجول، طيب، أما المخاوف، التي تأتي من الشيطان فهي ثقيلة الظل وفظة – إذن فلم الرضوخ لها؟ أم أنها لا تعرف من أين تأتي؟

وفجأة أشرقت العجوز، ونطقت بذلك النداء نفسه بسهولة، من طرفي شفتيها الضيقتين، فلم تسمع فيه إلا ذلك الحنان، الذي ينطق به صوت تانتشورا الناعم. و راح هذا النداء يتكرر بدونها، بدون العجوز، بدون شفتيها – بصوت تانتشورا وحده، الذي تردد قريباً واضحاً، كما في اليقظة، لكنه كان يضعف ويضعف، إلى أن تلاشى أخيراً في صمت مطبق. ومع ذلك فقد ظلت العجوز تشعر بالإشراق والبهجة النابعين من قوة هذا النداء وعاطفته. وظلت لفترة طويلة، وبتلذذ، تشتم نفسها، لأنها وكما الخاطئة الأسوأ، قبل ذلك، سمعت في هذا النداء الشيء الغريب عنه، وغير الموجود فيه، وأنبت نفسها أمام ابنتها على طرشها.

ومن يعرف أفضل منها أن تانتشورا شبت في الواقع أكثر حناناً من شقيقتيها. لم تكن العجوز لتشكو أبداً لا من ليوسا ولا من بربارة – فلم يكن ثمة من سبب للشكوى، لكنها كانت تميز تانتشورا عنهما. فهي على كل حال كانت الأخيرة، البطن الأخير، فبعدها لم تنجب العجوز أحداً– ولذا فقد كانت الأم توليها من الاهتمام أكثر مما تولي شقيقتيها الأكبر، ومن ثم لم ترغب، وهي التي لم تألف الحياة بدون الصغار، أن تطلق سراحها، لقد

كانت الأمور دائماً تسير على النحو التالي : ما إن يلحق أحد الأولاد فيقف على قدميه، حتى يظهر آخر، فتنصرف الأم إليه، تاركة الأول جانباً – ازحف، أو اذهب حيثما تريد، المهم أن تحافظ على حياتك وأن لا تزعق، فالآن ثمة من يستعجلها، وهكذا فقد تخلفت بجوار أمها، وكانت أبداً تجري إلى جنبها، كالمربوطة إليها، وهي تتلعثم. ماميتكا، ماميتكا. وهذه ال " ماميتكا " – من أين جاءت بها؟ ففي القرية لا يبدو أن مثل هذه اللفظة كانت موجودة – ربما تعلمتها من الغرباء، أو سمعت صوتاً لقنها إياها في الحلم؟ لكن ما إن شبت ، حتى راحت تناديها، كما يناديها الجميع، ماما، لكنها غالباً ما كانت تتذكرها، وتروح تدمدم بها ضاحكة : "ماميتكا، ماميتكا "، فكانت العجوز تسر من مزاحها هذا، وإن كانت تعمل على صده. وهاك الآن " أماه " الجديدة ". ما هو الشيء المقلق بعد " ماميتكا "، الذي جعل العجوز تكاد تخرج عن طورها؟ لماذا تتكدر إلى هذا الحد، لو أنها تفكر.

لم يقتصر الأمر بالطبع على أن تانتشورا كانت الأخيرة. فالأخيرة كان يمكن أن تكون أي واحدة. فهي تتلقى الاهتمام الأكبر، والقلب الأكبر، لكنها تقدم لك عطفاً أقل. هذا يحدث كثيراً. كلا إن تانتشورا كانت بحد ذاتها أقرب إلى أمها من حيث شخصيتها. وإذا ما تحدثنا عن الشخصية فإن طبيعة العجوز إنما انتقلت إلى ليوسا بالدرجة الأولى – فهي بدورها صلبة وأبية، ولا تتساهل مع أحد، إلا فيما ندر. كان لديها من الصلابة والإباء في البيت ما يكفي ثلاثة. حتى وهي طفلة، كانت إذا ما زعلت، تدير وجهها جانباً، ويستحيل أن تسترضيها بشيء. كيف أصبحت ليوسا الآن، هذا ما لا تعرفه العجوز، على الأرجح أنها تشذبت بين الناس، وتكسرت طباعها الحادة على الأطراف القاطعة، وتعلمت الأصول في التعامل. إن الحياة مع الطبع الصعب أصعب – إنها متعلمة، ويجب أن تعي ذلك، ولا يدل مظهرها على أنها تعيش بشكل سيئ. لم ترغب العجوز في سؤالها، ولو سألتها لردت بكلمة " جيد " – فافهمي كما يحلو لك. جميعهم يقولون ذلك لكي تتركهم وشأنهم، وحدها بربارة تروح تشكو، حتى ولو كانت حياتها من لبن وعسل، خالية من المشاغل والمعاناة. إنهما شقيقتان، لكن الفرق بينهما شاسع. كانت بربارة قد أصبحت صبية، وهي لا تزال تبكي من ليوسا ومن

الأولاد، وتكاد تبكي حتى من الذبابة. ترعرعت فاترة الهمة، وشبت فاترة الهمة، كل المشاكل تصب جامها عليها، أما هي فتراها جاهزة لأن تضع رأسها تحت كل منها.

لم تكن تانتشورا شبيهة بأي من شقيقتيها. كانت وكأنها تقف في الوسط، بينهما، بطبعها المتميز – الناعم والمرح – الطبع الإنساني. كانت تغضب وللحال ترضى، تزعل، وعلى الفور تنسى زعلها، أما إذا ما اضطرت إلى البكاء ... إنها هي وليس غيرها المقصودة بالقول : دمعة تتدحرج وأخرى تعود أدراجها. كانت أبداً تذهب إلى حيث الناس، لا تخشى لا الشيوخ ولا الصغار، تحب الضحك والحديث، ليس لمجرد أن تبتهج، بل بما يتناسب والزمان والمكان ويتماشى مع الارتياح العام. ونادراً ما كانت تفوت واحدة من سهرات الشباب، وإذا ما تأخرت في البيت كانت الفتيات يهرعن إليها، ليس لأنها كانت تتزعمهن – أبداً، ليس الأمر كذلك، بل لأن السهرات تكون بدونها مملة، خشنة، ولم يكن ثمة من يرد على الصبيان، حين كانوا يبدأون التحرش بهن، رداً يسهل بعده العثور على ما يجب أن يقال للجميع، لكل واحد أفضل من الآخر، أو الضحك بلطف في إثر فتى وفتاة ملهوفين، قررا التسلل خفية من على الجذوع المقطوعة، قرب مجلس القرية، حيث يلتم شمل الساهرين – مجرد ضحكة لطيفة، كما لو أنها بينها وبين نفسها، بعد أن تدير وجهها نحو الجهة التي ابتلعت فيها العتمة العاشقين، هذه الضحكة الهادئة الحذرة، لن تلبث، كما الإشارة، أن يتلقفها الجميع، فتهب القرية عن بكرة أبيها من النوم، مذعورة من الصخب. ولم يكن أحد بدونها يختار تلك الأغنية، التي تذبل، وتتضفر في العشب، وراء الجذوع المقطوعة، لكن ما إن ترفعها الأصوات القوية حتى تزنر القرية من طرفها إلى طرفها بالفرح والحزن.

ولقد عرضت على أمها " ضعي رأسك هنا يا أمي " فهي تعرف أن أمها تحب أن تخمش بالمشط في رأسها، في شعرها الشائب، ولم يكن بوسع أحد، حتى لو أخذنا العجائز، أن يضاهي تانتشورا في إتقان تمشيط رأسها، وملامسة ذلك المكان بالذات، الذي يتوسل أن يلامسوه، دون إلحاق الضرر بشعرة واحدة. ومن بين بناتها كانت تانتشورا وحدها التي تدخل الغبطة

على قلبها بذلك. كانت تحرك بسرعة- بسرعة، فهي تردد : " يالك من بطل مقدام يا ماما "-. " ولم أنا كذلك؟ "- تسأل الأم باستغراب. " لأنك أنجبتني، وأنا الآن رأيت هذه الدنيا ". كانت تانتشورا تضحك، وترفع شعر العجوز. وتمسده. وتتظاهر العجوز بالزعل : " آه منك. تهذرين وتهذرين، لكنك أنت نفسك لا تذكرين شيئاً ". - " كلا، إنني أذكر. إنك بطل مقدام فعلاً، حتى إنك لا تعرفين مدى بطولتك، فأنت أفضل الجميع. قولي لي هل نحن جيدون بالنسبة إليك أم لا؟.- " لست أقول إنكم سيئون ".- " يعني جيدون. والفضل في ذلك كله يعود لك، فلم يكن بمقدور أحد أن ينجب ويربي هؤلاء الناس الجيدين، لا أحد – ليكن في علمك. لقد حالفنا الحظ معك. من لديه أم مثل أمنا؟، هنا يكمن السر. كانت العجوز تتسمر وترتبك عند سماع هذا الكلام، فهي لم تكن تعرف أن بالإمكان النطق بهذا بصوت عال، وبالكاد يمكن أن تعثر في القرية، حيث لم يألفوا الملاطفات، على من سبق له النطق بذلك حتى الآن. إنه لمن الواضح أنه ما كان بمقدور أحد غيرها أن ينجب أولادها، لكن هل يمكن أن يدور الحديث عن ذلك؟ لماذا؟ كانت الأم تصاب بالذعر، فتزيد من انحناء رأسها فوق طرف ثوب تانتشورا. " سوف تعمرين طويلا- طويلاً. أكثر من الجميع لأنك أفضل الجميع، ولن نسلمك لأحد، ولا لأي شيخوخة ".- " لا تهذري " – قاطعتها أمها. " إنني لا أهذر، حتى إنني لا أستطيع أن أتصور أن بمقدورنا أن نبقى بدونك في وقت طويل من الأوقات". كانت الدموع تفترش عيني العجوز من هذه الكلمات المفعمة بالحنان، فكانت تنهض على عجل : " يكفي لهذا اليوم لقد أطلنا، والعمل واقف ".

كانت تشعر بالخوف من مثل هذه الأحاديث، لكنها نادراً ما كانت تجري، عدة مرات فقط، وكان ذلك خوفاً ممتعاً مروضاً، مثل خوف العروس من ليلة الدخلة. فيما بعد، ولفترة طويلة، ظلت تعاني منها في دخيلة نفسها وكأنها بشكل عفوي، غير مقصود، تتذكر الكلمات الواقعة والحقيقة، الململمة بكل حرص في ذاكرتها، لكي تدفئ روحها عند اللزوم. وبالفعل فأي أم يمكن أن لا تكون حنونة إزاء ذلك ؟! وهل كان بمقدورها أن لا تصدق تانتشورا، إذا كانت هذه تعاملها أبداً بعطف ودفء،

وتشاطرها، كأنها صديقة لها، مالا تقوله كل ابنة لأمها. وحتى حينما تزوجت طلبت في رسالتها مباركة والديها، فلم ترفض الأم، لم تجرؤ، وإن كانت تشعر بالمرارة لأنها لا تعرف من يكون زوج ابنتها.

وهكذا ما إن ارتحلت تانتشوراها حتى توارت. في الآونة الأخيرة أصبحت العجوز على استعداد لأن تعتبر نفسها، لابنتها، الملومة في ذلك. لكن أين يكمن ذنبها، هذا ما لم تكن تفهمه، فلم يكن بمقدورها هي السفر إلى تانتشورا، التي تعيش في مكان بعيد جداً، لدرجة أن العجوز لم تكن قادرة على الوصول إلى هناك حتى بعقلها، فما بالك بالسفر في الطرقات، لكنها كانت تفهم شيئاً آخر : لا يجوز للأم أن تنقطع عن رؤية ابنتها هذه الفترة الطويلة. إنها تشعر بوطأة ذلك أمام نفسها وبالحرج أمام الناس وبالخجل أمام ابنتها. وإذن : أي أم هي إذا كانت قد استطاعت الصبر على مثل هذا الفراق؟ وما الذي فعلته لكي تلتقي ابنتها؟ كل ما قامت به هو الانتظار. لو أنها حركت ساكناً. لكن كيف تحرك بحيث تكون هناك فائدة؟ يا إلهي، لو أن أحداً يخبرها. لم تكن العجوز تخاف على ليوسا، وكانت على ثقة أنها لن تقف مكتوفة اليدين أمام من يحاول إزعاجها – فهي ليست من هذا النوع، أما بالنسبة إلى بربارة فعلى العكس، يمكن أن يزعجها أي كان، لكن بربارة كانت قريبة، تكاد تكون أمام عينيها. وأما إيليا فهو رجل، وهو قادر على حماية نفسه، وحدها تانتشورا، وكما لو أن الأمر عمداً، قطعة مرمية، فكان قلب العجوز ينفطر بسببها أكثر من الباقين، ولا يعرف الطمأنينة لا في النهار ولا في الليل. لو أنها تنظر إليها، ولو عبر الشق، ولو مرة واحدة، لكي تفهم ما الذي جرى لها، وكيف تعيش في ذلك الجانب النائي، بين الناس الغرباء، بعيداً عن أمها. ومن خلال وجهها، بدون كلام، يمكن أن تعرف الكثير، وعندها ستقرر ما إذا كان عليها أن تصلي من أجل ابنتها، أم تبتهج. ثم إنها كانت تود أن تنظر إلى تانتشورا قبيل الموت، ولو لمحة خاطفة، لكي تتخلص من الخطيئة، التي تجثم على صدرها لأنها لم ترها لفترة طويلة، ولكي تتطهر أمام الله، وتمثل أمام محكمته باطمئنان، بابتهاج وإشراق : ها أنا ذا آنا، عبدة الرب، لا أحمل السوء معي.

لكن اليوم هو الموعد الأخير : إن لم تأت تانتشورا قبل حلول الظلام، فلا داعي للتشبث بالأمل بعدها.

وبعد أن أكدت لنفسها أن تانتشورا ستصل من كل بد، وأنه لم يبق عليها إلا الصبر وعدم مضايقتها في الإقتراب رويداً رويداً، غفت العجوز بارتياح – في البداية كان نومها مرهفاً، تصيخ السمع لكل نأمة، دون أن يغيب عن بالها لحظة أن تغفو، ومن ثم، وكما يحدث دائماً، فقدت زمام أمرها، وضاعت، مخلفة في السرير كيساً فارغاً، بدلاً من الإنسان. أما أين كانت، وماذا فعلت، هذا ما لا يعرفه أحد.

أعادتها الأصوات، التي سمعتها، وهي لا تزال بعيدة، حيث لا يمكن أن تفهم عما يدور الحديث. كان السمع أول ما عاد إلى العجوز، لكنه كان ضعيفاً، ولم يكن يلتقط إلا الدمدمة الغامضة والمتقطعة، الشبيهة بالبقبقة، كأن أحداً يلقي الأحجار في المياه. والآن لم تعد العجوز تلك، التي كانت تستيقظ في الماضي على الفور، كما لو أنها لم تكن نائمة، فهي الآن بحاجة إلى الجهد والوقت، لكي تستجمع كل ما يحتاجه الإنسان – السمع والعينين والذاكرة، كأنها تفككت أثناء النوم إلى أجزاء، راح كل منها يسعى جاهداً لنسيان وظيفته.

فتحت عينيها. وفي البداية لم تميز أي شيء: كان غبش المساء يخيم على الغرفة، لكن الغبش تحول إلى درجة الظلام الدامس. ولم تكن النوافذ مضاءة إلا من الجانب الآخر، من الخارج، وعبر الزجاج لم يكن ينفذ من الضوء إلا القليل. كان صوت ليوسا الجلي والقوي يوبخ أحدهم : " ألا تخجلان؟ الأم ترقد، بين الحياة والموت، أما هما فقد خرجا عن طورهما." لم تشعر العجوز بالخوف فوراً، فقد لحقت أن تميز رأس ميخائيل، المنحني فوق الطاولة، ومن الطرف الآخر للطاولة كان يجلس إيليا. وتحرك، وهو يهم بأن يقول شيئاً ما لليوسا، فأحست العجوز، أكثر ما رأت وفهمت، أن الرجلين ما زالا في حالة السكر، يدوران فيها كما الذبابة في السم، وقد وضعت فيه القشدة طعماً. وعند قدمي العجوز أطلقت بربارة أنيناً عميقاً،

خارجاً من أعماقها. لكنها لم تر ليوسا، كان صوتها يأتي من اليمين، من هناك، حيث توجد الخزانة الصغيرة، تحت أيقونة العذراء.

وهنا تملك الخوف العجوز. وبعد أن تقوست في السرير، صرخت، لكنها لم تصرخ متسائلة، بل منادية، مطالبة أن يردوا عليها :

– تانتشورا !

وقبيل الانحناء فوق العجوز، زفت بربارة بشراها :

– لقد استيقظت ماتوشكا.

– تانتشورا – نادت العجوز من جديد، وقد أعطت السمع كل ما بقي لديها، حتى تتنفسها.

– لم تصل بعد يا ماما – فرقع مفتاح النور، وإذا بالغرفة، وكأنها قلبت، كما القفاز، على الجهة الأخرى، بحيث أصبحت الجهة الساطعة من الأعلى. كانت ليوسا هي التي تقف عند مفتاح النور – لم تصل تانتشورا بعد – كررت قولها، إذ رأت أن العجوز لا تفهم.

حجبوا الضوء عن أعينهم بأيديهم، وضيقوها، فخيل للعجوز أنهم يختبئون، لأنهم لا يريدون أن يقولوا الحقيقة لها، فلم تصدقهم، ولفتهم، وهي تهز رأسها، بنظرة متوسلة ممطوطة إلى أقصى حد، لم تتحملها إلا ليوسا، ثم انقطع نفسها، كأنها تسلقت جبلاً شديد الانحدار، ولم يبق لديها من القوى ما يكفي لخطوة واحدة. لم تكن تانتشورا هنا، وكان على العجوز أن تدرك ذلك منذ البداية، حالما استيقظت : فلو كانت تانتشورا حاضرة لدار الحديث عن شيء آخر. تأخرت في النوم. وظلت تهز رأسها، وهي لا تصدق لا نفسها ولا هم، وكانت عاجزة عن أن تنبس ببنت شفة – وراح رأسها في توسل يائس، كما لدى المتسولة، يهتز على الوسادة، أما حلقها فلم يستطع التخلص من الوجع، الذي ألم به ومن العجز عن استعادة أي بصيص أمل بوصول تانتشورا. ومن النافذة، كما من المرآة، المدهونة من الجهة الأخرى بالأسود، لم يكن ينعكس سوى الغرفة المغمورة بالكهرباء، وخلف الزجاج لم تكن تنزّ حتى بقعة متناهية في الصغر.

استندت العجوز على مرفقها، وكادت ، وهي تندفع نحو الأمام، تسقط من السرير، ثم سألت ببطء وحزن :

– أين؟ أين هي؟

وتجمدت، وهي تصيخ السمع، كانت عيناها لا تتوقفان عند شخص محدد، بل كانتا تنظران بشكل أوسع، لكي لا يفوتها ذلك الذي سيأتيها بالجواب.

قالت ليوسا بهدوء :

– لو كنا نعرف، فما الداعي لأن نخفي عنك أين هي؟ افهمي من فضلك : نحن أنفسنا لا نعرف شيئاً.

ضغطت بربارة بيدها على صدرها، زيادة في التأكيد :

– قسماً بالله يا ماما أننا لم نرها. لن أكذب عليك. لم نرها.

– سوف تصل – تابع إيليا بانتعاش، لا بل وحتى بما بدا وكأنه ابتهاج، فهو على الأرجح كان سعيداً أن الحديث انتقل منه ومن ميخائيل إلى موضوع آخر. – لم تصل اليوم، ستصل غداً. أجل.

– والبارحة قلتم لي الشيء نفسه، لكن أين هي؟

– هذا ما لا نستطيع أن نخبرك به، حين تصل ستخبرك بنفسها.

– البارحة قلتم لي الشيء نفسه، لكن أين هي؟ – كررت العجوز، مشتتة الذهن، كأنها تهذي، ولم تسمع ما قالت، لأن هذه الكلمات، عندما لم تعثر على جواب في المرة الأولى، عادت أدراجها، ولدى دخولها ترددت صدى أسفاً فيها نفسها. فما الداعي للسؤال عن ذلك الآن؟ ولم؟ كانت الآن تعرف : كلا، لن تأتي. فقد انقضى الوقت، الذي منح لها، ولم يعد للانتظار فائدة. لم تأت تانتشورا، لم تأت. هكذا لم ترها العجوز.

أنزلت رأسها على الوسادة، وبدأت تبكي.

ودمدم إيليا :

– تفضل. لقد بدأت.

تحركت بربارة بصخب :

– ماتوشكا، ماتوشكا.

شيء آخر انقطع في العجوز بغتة، شيء ما انفقع، مقترناً بأنين قصير، وما إن تلاشى هذا الأنين حتى تكيف مع رنين الأمس، الذي انحفر في ذاكرتها مذ كانت عزباء، والذي تردد دقات ناعمة، حاملة البشائر، دقات لا تنقطع، لا بل على العكس، تتابع كل منها الأخرى. وانجذبت العجوز نحوه بقوة لدرجة أنها لم تكن قادرة على التفكير في المقاومة. في البداية لم يكن عليها أن تسير إلا قليلاً، فهو قريب جداً، لكن الرنين لم يلبث أن راح ينأى، وهو يسحب وراءه العجوز، أبعد فأبعد، لكنه ظل يتردد صافياً واضحاً، لكي لا تفقد الإيمان به، ولكي تعرف إلى أين يجب أن تسير. وكانت بالكاد تذكر أنها قبيل ذلك كانت تشعر بالألم لسبب ما، وأنها كانت تبكي لخسارة ما، والآن خف الألم، وكان السير في أعقاب الرنين سهلاً وساراً، الآن كانت العجوز تبكي من الفرح، من أن كل شيء ينتهي على ما يرام.

كانت العجوز تبكي دون أن تغطي وجهها، ودون أن تحرك يديها الراقدتين على جانبيها. كانت عيناها مفتوحتين، ومنهما كانت تنض الدموع الداكنة النادرة، وتسيل بطيئة على وجهها. كانت تبكي دون حركة، صامتة، دون أي صوت. فقط كانت الدموع تتدحرج. كان وجهها هادئاً تقريباً، ولهذا كان يبدو مضحكاً. كل ذلك كان متنافراً مع بعضه البعض، وكان يبدو غريباً ورهيباً لدرجة أنه صعق بربارة، الجالسة قرب أمها : إذ ما إن استفاقت، حتى صرخت، وراحت، وهي ترتمي على العجوز، تهزها بكل ما أوتيت من قوة. ووثبت ليوسا، واقترب إيليا، وهو يلقي نظرة من وراء ظهر شقيقتيه. أما ميخائيل فقد نهض قليلاً، ثم عاد وحط في مكانه.

شرعت العجوز تئن. أخيراً انتزعت ليوسا بربارة عنها، فأمالت العجوز رأسها جانباً، متوسلة أن لا يلامسوها. وبغية إبعاد بربارة المجنونة عن أمها، قعدت ليوسا قرب العجوز، التي تحركت بنفسها، بحركة منها،

وابتعدت عن ابنتيها ناحية الجدار، وهي تمسح بكفها دموعها الصامتة عن وجهها.

قال إيليا، وهو يعود إلى الطاولة :

– ما بالك يا أم تخيفينا على هذا النحو؟ إنني أقول لك : لم تأت اليوم، غداً ستأتي – أجل. لابد من الانتظار.

تابعت ليوسا :

– من يعرف ما الذي أخرها– وقطبت : هي نفسها لم تكن تصدق ما تقول، لكنها تابعت:– سوف ننتظر بالفعل، فنحن لسنا في عجلة من أمرنا الآن.

كانت العجوز تسمعهم ولا تسمعهم، كانت تسمع الكلمات، التي كانوا يحاولون تشجيعها بها، وتميز من كان ينطق بها، وبصوت من، أما ما كان في هذه الكلمات فلم يكن يبلغ وعيها. كانت تمر بها مر الكرام. كانت ترقد، وهي تنظر أمامها بعينين لا تريان، وتشعر بخواء ساخن في داخلها، وتذكر أنها إنما ترقد هناك فقط لأنها لم تلحق أن تموت. لكن لم يبق ثمة من داع لبقائها هنا، لم يبق أي سبب. وكل ما بقي هو الصبر قليلاً إلى أن تعود روحها، التي ظلت كل هذا الوقت تعيش على الانتظار والأمل، إلى صفائها، وتجعل العجوز ترتضي بالخسارة، التي ألمت بها، وتخفف عنها من العذاب والشفقة، لكي لا تترك في نفسها أي شيء زائد، لا شيء عدا ذاتها. لم تكن ترغب في التحرر العاجل، إذ كانت تعرف أن كل شيء سيجري، كما هو مقدر له أن يجري، وأن مصيرها قد وصل غايته، ولم يبق عليها إلا أن تتوقف. راحوا يتحدثون، ويتحدثون، وهم يظنون أن حالة أمهم تحسنت، وأنهم هم من ساعدها بكلامهم. لم تكن ترد عليهم، لكن ذكر تانتشورا المتكرر كان يدفع العجوز مرة إثر مرة، ويعيدها باستمرار من هناك، حيث بقيت لوحدها. ولقد أدهشها النور الكهربائي، لكنه ذكرها بذلك الضوء، الذي فات تانتشورا، والذي لا يمكن أن يعاد ولا أن يتم الحصول عليه بأية كهرباء. وللحال انتعش الوجع فيها. وفي الخوف، الذي لم يرغب في التحمل أبداً، ولا قطرة واحدة، انتفضت العجوز، فرأتهم قريبين جداً

منها : هاهي ليوسا، وهاهي بربارة، وإيليا وميخائيل ... لكن تانتشورا غير موجودة، وما كان بوسعها أن تكون موجودة هنا.

ــ لــ قد حــ صــ ل لها شيء. – بدا وكأن العجــوز تكــرر هــذه الكلمات وراء أحدهم، وما إن كررتها حتى استبد بها الخوف. لـــ قــد – حصــ – حصل لها شيء. – قالت بصوت أكثر قــوة وإلحاحــاً. إنكــم لا تخبروننني الحقيقة . إنكم تخدعونني. أعرف.

قالت ليوسا، وهي تنهض عن السرير بدهشة وزعل : ما هــذا الــذي تقولين يا ماما؟ ماذا تقولين؟ ما الذي يجب أن نخبرك به؟ بماذا نخدعك؟

– تخدعونني، تخدعونني – وبدورها راحت العجوز تحاول النهوض، وتحركت بصخب، فوقع المنديل من على رأسها، كاشفا الــشعر الــشائب، القصير والنادر – إنني أعرف أنكم تخدعونني. تخفون عني لكي لا أعرف. تقولون : غدا، غدا، لكن غداً لن يكون بعد الآن. أنتم تعتقدون أنني فقــدت عقلي تماماً، ولست أفهم شيئاً. – كانت بشعرها المنفوش ووجهها المرتجف تشبه المجنونة فعلاً. – إن تانتشورا كانت ستطير إلى هنا، إليَّ على جنــاح السرعة، لو كان كل شيء على ما يرام، أما أنا، فأنتظر وأنتظر كالصغير، كالطفل ...

وصرخت بها ليوسا :

– من فضلك توقفي يا ماما. هل تفكرين بهذا الذي تقــولين؟ لا أحــد يخدعك. هل تفهمين أم لا؟ نحن أنفسنا لا نعرف أين تانتشوراك.

أرغمت اللهجة، التي قالت بها ليوسا ذلك، وصوتها الذي كان يــصعب ألاّ يرضخ المرء إليه، الجميع على التوقف، وأوقفا العجوز : فقد صــمتت بخوف، وارتجف فمها المفتوح، وحاولت شفتاها أن تنطبقا، ففشلتا.

– إذا كان قد حدث لها مكروه، فلن يقر لي قرار في العالم الآخــر – قالت العجوز شاكية.

– إننا لا نعرف هل حصل لها شيء، أم لم يحدث.

سحبت العجوز يدها من تحتها، ونزلت ببطء في سريرها، في رقدتها. وعلى جناح السرعة بدأ الدم ينحسر عن وجهها، الذي دب فيه الشحوب شيئاً فشيئاً. وفي السكون المطبق كان يتردد بجلاء تنفس بربارة، المشوب بالصفير الثقيل.

– وهناك، حيث تعيش، هل بدأت الحرب، أم لا؟

وبخوف ألقت العجوز نظرة جانبية على ليوسا، وانكمشت، وهي تضغط جسمها داخل السرير.

رد عليها إيليا :

– في كييف؟ لقد استولى الألمان على كييف – أجل. هذا ما أتذكره جيداً.

– إذن هو السبب – هزت العجوز رأسها، تعبيراً مريراً عن صواب رأيها، وشرعت تندب : لماذا هي هكذا؟ لماذا لم تعرف من الناس؟ هل كنت لأذهب إلى هناك؟ عمن أخذت هذا الفجور؟ أما أنا فأنتظرها. وهل بالإمكان الخروج من هناك الآن؟ طيب. إنها هي التي دفعت رأسها داخل الأنشوطة، شيء لا يصدق.

قاطعها إيليا :

– مهلاً يا أم، مهلاً، هل جئت من القمر؟ فالحرب لدينا، متى انتهت؟

– لا فرق.

– كيف " لا فرق "؟

– وأين هي إذن، أين؟ لماذا ليست هنا؟

– لقد عدت إلى " أين هي ". كأننا في حكاية الثور الأبيض يا أم. أجل.

– حسناً، كفى – ضرب ميخائيل الطاولة براحته، ونهض، بعد أن ترنح – لن تأتي تانتشوراك، ولا داعي لانتظارها. فلقد أرسلت لها برقية لكي لا تأتي.

جفلت العجوز

– ماذا يقول؟ – فهي لم تصدق.

– أقول إنني أرسلت لها برقية لكي لا تأتي، فلا داعي لأن تسافر إلى هنا.

– أوي، ماذا فع-ل-ت؟ – تأوهت بربارة.

– ومتى لحقت أن ترسل لها برقية؟ – سألت ليوسا على عجل.

– ما إن استيقظت الأم حتى أرسلتها.

– ولماذا بقيت صامتاً حتى الآن إذن؟

– لقد أطار السكر كل شيء من رأسي. نسيت.

– وهل تذكر الآن تماماً أنك أرسلت البرقية؟

– أنكر تماماً.

– ربما رأيت ذلك في الحلم، وأنت سكران، كما تقول؟

– كلا لم أره في الحلم. أرسلتها. بوسعكم التأكد من ذلك في مركز البريد. لقد دار – الحديث عن ذلك الآن فتذكرت أنني أرسلتها.

قال إيليا مبتهجاً :

– هل رأيت الآن يا أمي أنه لم يحصل شيء لتانتشورتك. إنها حية، سليمة، وهذا ما نتمناه لنا – أجل. أما أنت فإنك تخرجين عن طورك بسببها، وتخرجيننا أيضاً. لقد قلت لك : لابد من الانتظار، فينجلي كل شيء. تلك قاعدة عامة – المهم التريث وعدم التسرع.

لم تكن العجوز تسمعه.

– لماذا فعل هذا؟ – همست، وتجمد وجهها في يأس متسائل – لماذا فعل هذا؟ – عادت تسأل، وتهز رأسها، كأنها لم تصدق ميخائيل، وترجوه،

تتوسل إليه أن يعترف أنه إنما يمزح، وأنه لم يرسل أية برقية ثانية إلى تانيانا.- لماذا فعلت هذا يا ميخائيل؟

- لماذا، لماذا ... لقد تحسنت حالتك، وخطر لي أنها ستسافر عبثاً، وستتكبد المصاريف.

- لكنني أردت أن أنظر إليها. لماذا فعلت هذا؟ - سعلت العجوز، فضغض الإنزعاج على حلقها. - أردت أن تقعد بالقرب مني. أن تقول لي شيئاً. فأنا أمها، ولست أياً كان. لقد أردت أن أودعها، فلن أتمكن من رؤيتها بعد الآن. لماذا فعلت هذا؟ لست أحتاج منها لشيء، لا هدايا ولا غيرها - فقط أن أعرفها، وأن أرى قبيل النهاية كيف أصبحت الآن. - لم تكن العجوز تبكي، لكن صوتها تحول إلى أنين حزين، يكاد يكون نشيجاً.- وأنت ماذا اقترفت؟ لقد انتزعت مني سعادتي الأخيرة، وحجبت عني آخر بصيص أمل. لقد تركتني قبيل الموت بدون تانتشورا. لم ترثِ لي. لم تر أنني كنت أنتظرها بفارغ الصبر.

- بالفعل بأي حق رحت يا ميخائيل تقرر، دون أن تستشيرنا، هل على تانيانا أن تسافر أم لا؟ حينذاك كنت صاحياً، على ما أظن، وبالتالي كان عليك أن تفهم ماذا تفعل.

وأدلت بربارة بدلوها :

- ليس لديك لا وجدان ولا ضمير.

وجاء الإنزعاج إلى العجوز مترافقاً مع المساندة.

- لقد فعل ذلك قصداً - قالت العجوز ببطء كأنها تتذكر، ثم جلست. ومن جديد انتفش شعرها المكشوف، ونشبثت يداها النحيلتان، المرتجفتان، بالسرير. - لقد فعلت ذلك قصداً، إنني أعرف. قصدت أن تحزنني. حتى ولو قبيل الموت، تريد غمي، لا تريد أن تتركني أرحل قريرة العين. وهكذا أعدت تانتشورا لكي تسخر مني.

- لا تجمعي يا أم كل هذا الكلام الفارغ. لماذا أفعل ذلك قصداً، ماذا تختلقين؟

– قصداً، قصداً – انقطع نفس العجوز، ثم أمسكت صدرها بيديها، وهزته بلطف، كي تهدئه – هل تظن أنني سوف أبقى صامتة؟ لن أبقى، فلم أعد أخاف أحداً. منذ عهد بعيد وهو يبحث لي عن الموت، إن حلقه يغص بي أنا العجوز. ما نفعي؟ ومع ذلك يجب أن يقدم لي – وهكذا فهو يغضب، ولا يكف عن تدبير المقالب لي.

– ثوبي إلى رشدك يا أم، بماذا تهذين؟ – وقام ميخائيل بخطوة باتجاه سرير العجوز.

صرخت بربارة :

– لا تقترب، لا تقترب من ماتوشكتنا. يا سلام عليك. ليس لك الحق في الاقتراب.

– تقول تهذين؟ – قالت العجوز بتحد، وسكتت، كأنها تغري ميخائيل بالنقاش. كان يقف الآن وسط الغرفة، وهو يتمايل.

– أولا تذكر كيف أثرت هلعي؟

– لست أذكر شيئاً.

– في ذات مرة جئت سكراناً : " ترقدين يا أم "

– " أرقد بانتظار موتي ". فيقول : " هل تعرفين أن الناس عندنا لا يعيشون الآن سوى سبعين عاماً، لا يجوز أكثر؟ – " كيف لا يجوز؟ كانوا دائماً يعيشون إلى أن يأتي الموت، ولم يكن أحد يطردهم.

ويقول: " كانوا يعيشون، أما الآن فلا يجوز، أنا نفسي قرأت ذلك في الجريدة ".

وفطنت ليوسا :

– إنه متوسط العمر في بلادنا، على الأرجح هذا ما كان يقصده.

– ما معنى هذا؟

– معناه يا ماما ... أن كل إنسان يعيش قدر ما يستطيع. أحدهم أكثر، وآخر أقل، وحين حسبوا ذلك، تبين أن الإنسان في بلادنا يعيش في المتوسط سبعين عاماً. هاك مثلاً، إذا عشت تسعين عاماً ...

– لست بحاجة إلى تسعينك – ماذا أفعل بها؟

– إنني أقول على سبيل المثال. أنتِ تعيشين تسعين، بينما يعيش آخر خمسين فقط، وسيكون لكل منكما سبعون. هل تفهمينني؟

– وكيف لا أفهم؟ لو أنه قال لي هذا، إذن لما رحت أنقل إليكم. ثم إنني أثرت هلع ميرونيخا. رويت لها ذلك، فقالت لي : " أنت يا ختيارة لا تتكدري ". لكنني رأيت أنها هي قد خافت، خافت، خافت، هذا أكيد. وهكذا جلست وإياها ونحن نرتجف من الهلع. وقلت لها : " إن رجليك تسيران، اذهبي إلى يفورشا، فهو يقرأ في هذه الجريدة أيضاً، ربما يكون قد سمع ". وذهبت. لكن هل يمكن أن تفهم شيئاً من يفورشا؟ فقد قال لها : " هل تعرفين يا ميرونيخا أنه لا يوجد في المتجر صابون أسود؟ "

– " فعلاً لا يوجد ".

– "بالضبط، والآن سوف يتوفر، فقد صدر القرار التالي:

–" كل العجائز يحولن إلى صابون أسود، لأنه لم يبق لدى ربات البيوت ما يغسلن به".

– قالت له : " إياك يا يفورشا أن تغسل أسنانك فوقي، فأنا لست ناتاليتك، ولن أتحمل".

لكنه زاد من مخاوفها بقوله : " لا تصدقي، لا تصدقي. عما قريب سترين بنفسك. ففي قرية الينابيع قاموا أول البارحة بهرس كل العجائز لصنع الصابون الأسود، وسيصلون إلى هنا بعد أيام ".

– هكذا. شيء لا يصدق. إنه بدوره لا يستحق الإطراء، ولماذا لا أقول الحقيقة؟ جلست أنا وميرونيخا، نحن العجوزتين – بين الموت والحياة، ولم

تعد تجرؤ على الذهاب إلى البيت. فمن لديه الرغبة في أن يتدلى مخنوقـاً؟ فنحن معمدتان، ولدينا ربنا.

صفقت بربارة بيديها، ونشجت :

– ماذا يصنعون ! ماذا يصنعون ! أن يسخر من ماتوشكتنا على هـذا النحو ! ما الذي يجري في هذا العالم؟

– متى قلت لك هذا يا أم؟ – تحايل ميخائيل، ومسح براحة يده وجهـه المبلل بالعرق. كان بالكاد يقف متماسكاً عل قدميه، وكان من السهل علـى من يراه أن يكتشف أنه يشعر بالغثيان. كان كل الغثيان، الذي خلفته فودكـا البارحة واليوم قد اندفع نحو حلقه، فكان يبلعه بتشنج، محاولاً دفعـه إلـى الأسفل. وبعد أن احدودب، راح ينتقل من قدم إلى أخرى، ولم يعد يذكر هل نهض بنفسه من وراء الطاولة، التي كان بالإمكان الاستناد إليهـا، أم أنـه اقتيد إلى هنا، إلى وسط الغرفة، عنوة. وكانت أمه، كما الشبح، تتـراقص أمام عينيه تارة، وتختفي تارة أخرى فجأة، لم يسبق له أبداً أن رأى العجوز بشعر مسترسل، فشعر بالخوف منها، لكن كان يكفي أن ينقل نظـره إلـى إحدى شقيقتيه، حتى تروح الغرفة، وهي تدخل في تفاريجها، تتجمد بخوف، وتهبط الأم في السرير برضوخ، لكنها لا تلبث أن تختفي، ترتفع في الجو، وتروح الغرفة تدور، وهي تصر في أركانها. لكن ما روته العجـوز بـدا وكأنه أدهشه هو نفسه، فسأل، بعد أن نظر إلى بربارة، وأوقف الـدوران :

– متى قلت لك هذا يا أم؟

– إنه لا يذكر. لا يذكر شيئاً. قال ونسي. طيب. أمـا أنـا فلأصـب بالجنون.

– لا أذكر حقاً.

– ماذا يعني هذا يا ميخائيل؟ – بدأت ليوسا بما يقرب مـن اللطـف، وبلهجة مشوبة بالاستعطاف، لكنها رفعت صوتها فجأة : – ماذا يعني هذا؟

– إنني أسألك. إن هذا يتجاوز كل الحدود. حتى إنني لا أعرف كيف أسمي ما تسمح لنفسك بالقيام به مع الماما. هذا طغيان. إنه الطغيان بعينه، لا بـل

أسوأ. من الذي منحك الحق في أن تسخر منها على هذا النحو؟ من؟ ولماذا تتحملين هذا يا ماما؟ أوليس لديك من يحميك؟ هل هو وحيد لديك؟ أما أنا فأعيش، دون أن أعرف شيئاً، وكل ظني أن كل شيء عندكم هنا على ما يرام، وأن الأمور تسير بسلام.

ألحت بربارة على العجوز :

– اسمعي يا ماتوشكا، اسمعي. إن ليوسانا تقول الحق. لقد تمادى في الوقاحة ! وهل يعتقد أن القصاص لا يشمله؟ يشملك يا عزيزي، يشملك. فلقد شمل من هم أسوأ.

– في نهاية الأمر كان يمكن أن تخبرينا، عن طريق أحدهم، بنوع المعاملة التي تتلقينها هناء لا أن تتحملي هذه النزوات. فأنت على الأرجح تستحقين شيخوخة هادئة، ونحن لن نسمح بالسخرية منك لأي كان، سيما لابنك، من لحمك ودمك. إذا كان لا يريد أن تعيشي لديه، فلا داعي، يمكن أن نستغني عن ذلك.

اغتاظ ميخائيل فجأة :

وماذا؟ ربما يأخذها أحد منكم؟ هيا. خذوها. إنني أقدم بقرة لذاك الذي يأخذها. ما رأيكم؟ – ومد يده، مشيراً إلى العجوز، ثم ضحك بحدة وتهكم قارص – ما بالكم؟ أعطي بقرة. من منكم أكثر حباً للأم؟ خذوها. ما بالكم تفكرون؟ أنا كيت وكيت، أما أنتم فجميعكم أخيار. طيب من هو أفضلكم؟ – ثم خطا نحو ليوسا.– أهو أنت يا ترى؟ هل تأخذين الأم لتعيش لديك؟ هل ستعتنين بها؟ ستبيعين البقرة، وتكسبين المال. الأم ليست بحاجة للكثير، فهي كما ترين – لا تأكل تقريباً. وستكفيها البقرة، وتطمرها. إنها بحاجة لعدالتك. فأنت الأكثر عدلاً لدينا، وتعرفين كل شيء. تعرفين كيف تسهرين على الأم، بحيث تكون أمورها في منتهى الروعة. ولسوف تفرشين لها الشراشف النظيفة، وتلقين عليها المحاضرات. خذيها بسرعة، قبل أن يسبقك أحد.

قالت ليوسا، بصوت مختنق :

– لقد جن. إنك مجنون.

ومن مكان ما ظهرت ناديا واندفعت نحو ميخائيل :

– توقف الآن هيا، توقف. لا تفضحنا. انصرف.

لكنه دفعها :

– لم ينقصنا إلا أنت.

صرخت ناديا :

– لا تصغوا إليه، لا تصغوا، لا تصدقوه.

ضحك ميخائيل من جديد، وشعر كيف دب المرح في الخمار، الذي كان يعذبه، فقد راح يعوي ويرقص فرحاً.

– لقد جننت – كل شيء واضح. ولا يجوز أن تترك الأم مع مجنون. إذن ربما تأخذينها أنت؟– سأل بربارة بمرح. فالبقرة لا يمكن أن تضرك أنت أبداً. ولن تشعر الأم بالسأم مع أسرتك. وهناك سوف تشعر بالطمأنينة أكثر. الحياة تحت جناح الابنة أفضل دائماً. فالابنة لن تفرط في الشرب، ولن تزعلها. إذن؟ هيا وافقي، وافقي، ما بالك ساكتة؟

– ارتبكت بربارة :

– لكن ليس لدينا مكان. فسونكا بانتظار ولد جديد. وإلا لكنت أخذتها.

– تقولين لا يوجد مكان؟ وللبقرة أيضاً ألا يوجد لها مكان؟

– كلا، للبقرة يوجد، في الزريبة.

– للبقرة يوجد مكان. أما للأم فلا يوجد. فلا يمكن أن تضعي الأم في الزريبة. أما هي – و أشار إلى ليوسا – فستأتي بعد خمس – عشر سنوات وتقول إن هذا يتجاوز كل الحدود. وحين ذاك سأرد لها الصاع صاعين. فأنا لن اسمح أبداً بان تعيش الأم في الزريبة. ويهمني بدوري أن تعيش كانسان. – ثم استدار نحو إيليا – وأنت، يا إيليا، كيف تنظر إلى الأمر؟ ربما تأخذ أمنا؟ ستأخذها إلى حرمتك، وستسهر تلك على العناية بها، أما

أنت ففي العمل دائماً، ولن تجد من تتبادل معه كلمة لطيفة. وأمنا، كما ترى، قليلة الكلام. وسوف تناسبها. وبعد كل ما قاسته عندي، سوف ترتاح لديكم.

قال إيليا بعصبية :

– لقد أفرطت في الشراب يا ميخائيل. أنت نفسك لا تفهم ماذا تفعل – أجل.

صاحت ليوسا :

– هل يعقل أنك لا تفهم أنه لا يجوز نقل الماما إلى أي مكان الآن؟

– إذاً لا أحد يرغب؟ – دار ميخائيل في مكانه، ومن جديد لف الجميع بنظرة مجنونة – لا أحد. ولا أحد يحتاج إلى البقرة. إذاً ما رأيكم بدون البقرة؟ وهذا لا يناسبكم أيضاً. واضح. – وفجأة بعد أن ملأ رئتيه بالهواء : – إذاً فلتذهبوا عني أنتم جميعاً، تعرفون إلى أين ... ولا تقولوا لي إنني كيت وكيت، لا تنبحوا علي. أما أنت يا أم فارقدي ونامي. ارقدي، حيث كنت ترقدين. فهم يحبونك أكثر وأنت ترقدين هنا.

ثم اندفع عبر الباب.

وفي الصمت المر والمتوتر، الذي أرخى سدوله الثقيلة، شرعت العجوز تتضرع :

– يا إلهي، دعني أرحل، سأذهب. ابعث لي موتي، فأنا جاهزة.

وفي الحمام مد ميخائيل يديه المرتجفتين، في العتمة، وتناول زجاجة من المدفأة، وعثر على الكأس فوق القن. وبعد أن ضغط عليه من الأعلى بإصبعه، وظل يسكب فيه من الزجاجة إلى أن بدأت الفودكا تسيل عبر حافته، ومن ثم سكب الكمية الزائدة على الأرض، وكرعه دفعة واحدة، وسقط على السرير، حيث كان إيليا نائماً قبل ذلك.

- ١٠ -

صممت العجوز على أن تموت تلك الليلة، دون تأجيل. فلم يبق لها ما تفعله في هذه الدنيا، ولم يعد ثمة داع لتأجيل قدوم الموت. مادام الأولاد هنا فليدفنوها. وليشيعوها كما هو متعارف عليه بين الناس، لكي لا يضطروا للعودة إلى هذا الهم مرة أخرى. وعندها ستأتي تانتشورا أيضاً، وسيضطر ميخائيل أن يبعث لها برقية أخرى، لكي تأتي. هذا شيء لا مناص منه. أصبحت العجوز تفكر بها دون ألم، وهي تعرف أنها لن ترى تانتشورا على كل حال. عبثاً راودتها الآمال، وعذبت نفسها والآخرين. وإلا لكانت الآن ترقد جاهزة من زمان، ولكانت قد نسيت أنها كانت موجودة، وكانت حية. لكانت قد نسيت كل شيء، وتحررت من كل شيء. صحيح أنها لو رأت تانتشورا، إذن لكان الموت أصفى وأبهى، وهذا ما كانت العجوز تأمله. حسناً. ما الفائدة؟ تنغيص الروح؟، إن ما تحتاجه ليس التنغيص، بل أن تطلقها مع التوبة، فلتتركها تطير. آن الأوان.

كانت العجوز ترقد في السرير، تنتظر حتى تهدأ العزبة، لأنها كانت تعرف أن الموت جبان، يخشى الضجيج، فلا يأتي فيه. آووا إلى الفراش في هذا المساء باكراً، مباشرة بعد الفضيحة، التي أثارها ميخائيل، لكنهم لم يتمكنوا من أن يغفوا، فكانوا يتقلبون ويتأوهون. فليس بالأمر البسيط أن ترمي من رأسك كل ما تلفظ به، وتنسى – هذا ليس زراً تفتح به الكهرباء وتغلقها : ضغطة – نور، ضغطة – عتمة. ربما تكون نينكا وحدها من

غفا، وحتى هذه كانت تتمطق بشيء ما وهي في الحلم – إما أنها نامت وفي فمها سكرة – وإما أنها أجهدت لسانها بالحلاوة نهاراً، لدرجة أنه لم يجد لنفسه مستقراً حتى الآن.

فكرت العجوز بالموت طويلاً، وكانت تعرفه معرفتها لنفسها. وخلال السنوات الأخيرة أصبحا صديقين. وغالباً ما كانت العجوز تناجيه، بينما يقبع الموت في مكان ما جانبي، يصغي إلى همسها الحصيف، ويطلق التنهدات متفهماً. ولقد اتفقا على أن ترحل العجوز ليلاً : في البداية تغفو، كما جميع البشر، كي لا تخيف الموت بعينيها المفتوحتين، وفيما بعد يقترب ذاك ببطء، فينزع عنها الحلم الدنيوي القصير، ويعطيها الراحة الأبدية.

ليس صحيحاً أن الموت واحد لجميع البشر – على شكل عجوز شريرة، نحيلة، كما الهيكل العظمي، وعلى كتفيها منجل. ثمة من اختلق ذلك، لتخويف الأولاد والحمقى. كانت العجوز تؤمن أن لكل امرئ موته الخاص به، خلق على شكله وصورته، وهو يشبهه تمام الشبه. وهما كما التوأم، لديهما العمر نفسه، جاءا العالم في يوم واحد، وفي يوم واحد يعودان أدراجهما. فالموت، الذي يبقى بانتظار الإنسان حتى النهاية، يستقبله في داخله، وبعد ذلك لن يتخليا عن بعضهما لأي كان. وكما يولد الإنسان لحياة واحدة، كذلك يولد الموت لميتة واحدة، وكما لم يتعلم الإنسان العيش، فيعيش كيفما اتفق، دون أن يعرف اليوم الذي ينتظره، كذلك هو الموت يفتقر إلى الخبرة في مجال عمله، وغالباً ما ينفذه بشكل سيء. فيسبب للإنسان العذاب والخوف دون قصد.

أما عن نفسها فكانت العجوز تعرف أن موتها سيكون سهلاً. إذ كان لديهما متسع من الوقت لكي يريا بما فيه الكفاية كيف يعيش الناس ويموتون، ولا داعي في النهاية لأن يعذب أحدهما الآخر – ثم إنه لم يبق لديهما من القوة ما يكفي لذلك. لن تبدي العجوز مقاومة، ولن يغضب هو من أنها جرته وراءها هذه الفترة الطويلة : فهي لم تفعل ذلك قصداً، ولم تكن تخاف الموت أبداً– إلاّ حين كانت شابة، طائشة، لكنها كانت دائما تعتبره ملاذاً آمناً للتخلص من العذاب والعيب. وإذا كانت لم تدعُه حتى

الآن، فهي لم تكن تطرده عن نفسها، ولم تكن تنوي أن تعيش أكثر من الآخرين. لقد عاشت كيفما اتفق، والآن حان الوقت لدعوته. يكفي.

لكن العجوز لم تكن تفهم لماذا يموت الصغار. وكانت تعتبر أن من الحرام أن يضطر الوالدان إلى إنزال أولادهم إلى القبر، حتى إنها كانت مستعدة لأن تعطي هذا الحرام للرب. فالموت لدى الصغير صغير مثله، لا يعقل، وبينما هما يلعبان قد يلامسه عن غير قصد، دون أن يعرف ماذا اقترف. لكنه هو، الرب، أين كان، وإلى أين كان ينظر؟ حرام، حرام حين يضطر الطفل، الذي ولد للتو، ولم يدرك بعد ماذا يجري له، ولماذا يرى النور في عينيه، ويشعر بالجوع في بطنه، لأن يضيع نفسه فوراً، دون أن يرتكب قطرة من وزر، يستحق مثل هذه المعاملة عليها. لماذا غرروا به إذن فأنجبوه؟ لماذا أروه هذه الدنيا، وأعطوه الصفة البشرية؟

كانت هي نفسها قد دفنت خمسة، وضعتهم بجانب بعضهم البعض لكي لا يضجروا فرادى. أربعة منهم مرضوا على الأقل، أما الخامس، وهو صبي صغير، فقد مات دون أي سبب. ففي المساء كان لا يزال سليماً معافى، وقد استسلم للنوم بكل هدوء، وعند منتصف الليل بدأ يصرخ، كما يصرخون جميعاً، حين يكونون بحاجة إلى شيء، فأيقظ أمه. رفعته من الأرجوحة، واحتضنته، وأعطته ثديها، ظناً منها أنه استيقظ بسبب الجوع، ولم تلبث أن راحت بإغفاءة، وهي منكبة فوقه. وفيما بعد تناهى إليها أنه استلقى إلى الوراء، لكنها تابعت الجلوس، وأبقته قليلاً لكي يغفو تماماً. وحين همت بالنهوض شعرت وكأن أحداً لكزها في خاصرتها : ما باله ليس دافئاً؟ تفقدته، فإذا به قد فتح فمه قليلاً. كل ظنها أنه يريد الرضاعة، لكنه إنما أراد أن تحمله، لكي يموت قرب أمه، وليس لوحده. لكن لماذا؟ ما هي ذنوبه؟ وأية ذنوب لديه إذا كان لا يستطيع السير حتى، ويتفرج فقط على الآخرين، كيف يسيرون، إذا كان لا يجيد الكلام حتى، ولا يفهم إلا إذا كان الآخرون يتحدثون إليه بحنان أم لا؟ إذا كان لا يجيد أي سلوك بشري– باستثناء الأكل والنوم، وحتى هذا الأمر لم يتقنه هناء بل قبل ذلك، حين كان يسوى نبتة بشرية، ليس برغبته، ولا بصلاته.

في غضون حياتها اضطرت العجوز أكثر من مرة لمواساة نفسها : الرب رزق، الرب أخذ. لكن هذا المثل لم يكن مناسباً هنا. كيف يمكن أن يأخذ ما لم، إذا تمعنا في الأمر، يعطه أبداً، بل اكتفى بأن وعد به وأراه؟ والأكثر من هذا، كيف يمكن، بعد أن أوهمت الصغير أنه موجود، وأنه إذ ينام، لن يلبث أن يستيقظ، ويفتح عينيه لكي يتعلم ويدرك أكثر مما كان يعرف. ويجيد وينمو أكبر مما كان – كيف يمكن بعد هذا اقتلاعه من جذوره الصغيرة، التي بالكاد كان يقف متماسكاً عليها، ورميه بين الأقدام؟ حرام، حرام.

وهناك ثلاثة آخرون لم تضطر العجوز لدفنهم – فهؤلاء قتلتهم الحرب. ولما كانت الأم لم تر موتهم، ولم تعرف قبورهم، فإن ذلك قد أرغمها على تحمل مصيبة أخرى: كان يخيل إليها دائماً أنها أضاعتهم بنفسها، لأنها لم تكن حريصة عليهم بما فيه الكفاية. أما ما الذي كان يجب أن تفعله لكي تصونهم، فهذا ما لم تكن تعرفه حتى في الوقت الحاضر، لكن لابد أنه كان عليها أن تفعل شيئاً، لا أن تجلس مكتوفة اليدين ولا تحرك ساكناً. فكانت النتيجة – جلبوا ثلاثة إشعارات استشهاد، إشعاراً عن كل واحد. لم يكونوا فتياناً، بل كانوا قد أصبحوا رجالاً، ولم يبق منهم سوى ثلاث وريقات.

وهكذا فإن لديها من تغادره، ولديها من تغادر إليه، وعدا أبنائها فإن لديها أباها، أمها، أخوتها وأخواتها. فمن كل أسرة أبيها الكبيرة لم يتخلف هنا أحد غيرها، وكان آخر أخوتها قد توفي العام قبل الفائت. وكان عجوزها قد التحق بالحرب بدوره، لكن قدر له في تلك الفترة العصيبة أن يموت ميتة طبيعية : فقد فرزوه إلى جيش العمل، وهناك توعك، ولم يتحمل المرض، لكنه مات ميتة ناجحة، حسب معيار تلك الآونة – تمكن من الوصول إلى البيت، وكان الوقت صيفاً.

تقبلت العجوز موت عجوزها على أنه القدر – لا أكثر ولا أقل. فحتى ذلك الوقت كانت قد اعتادت تدبير شؤون الأسرة بدونه. كانا يعيشان مع بعضهما، لا يجوز القول بشكل سيء تماماً، لأن ثمة من يعيش أسوأ منهما بألف مرة، كما لا يجوز القول بشكل جيد. كلا لم يكن يشرب، ومن يدري

فلربما كان من الأفضل لو أنه كان يشرب. فالغباء البشري، كما الرغوة في القدر، لابد من رفعها بشيء ما، والفودكا، إذا لم يبالغ المرء في تناولها، فإنها للكثيرين دواء : تشرب، وتغني أغنية، تتخيل، فتلين، وتابع انسلاقك. لكن هذا الغباء كان يستمر لديه شهوراً. وحينذاك كان ينغص حياة العجوز – هذا لا يرضيه، وذاك لا يناسبه. كل ما كانت تقوم به لم يكن مناسباً برأيه. وكانت هي نفسها تستغرب من أين لها كل هذه القدرة على تحمل تقريعاته، التي كانت تتوالى ليلاً ونهاراً. وبعد ذلك كان الغباء ينقلب فجأة على جنبه الآخر، كان يلوذ بالصمت، ويستطيع أن لا ينبس ببنت شفة على مدى نصف عام. ولحسن الحظ أنه لم يكن يتواجد في البيت كثيراً : تارة يذهب للصيد وأخرى بحثاً عن العمل، وفي بعض الشتاءات كان ينقل المواد من المدينة إلى المستوطنات الريفية، وحينذاك، في سنوات ما قبل الحرب، كانت المواد تنقل على الخيول، فكان السفر يستغرق وقتاً طويلاً.

وكان أكثر ما أدهش العجوز في وفاته أنه، وهو الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الحرب،حيث يصول الموت ويجول، قد تمكن من العودة إلى الديار، واستقبال موته الشخصي بكل هدوء واطمئنان. ولقد وجدت في ذلك إشارة خفية، فتصالحت مع العجوز على الفور. " يا إلهي اغفر لنا خطايانا ... " – بدأت صلاتها، ما إن رأت أنه فارق الحياة. إنها لم تقل خطاياه، بل قالت خطايانا. وكانت دموعها وحزنها حقيقية. فلقد كان – على الرغم من كل شيء – أب جميع أولادها – الأحياء منهم والأموات والأموات الشهداء. إن الحقيقة هي الحقيقة : إن لديها من تغادر إليه ولديها من تغادره.

وأصاخت السمع : في مكان ما خلف النافذة تردد رنين جرس إحدى الدواب، وعبر العزبة تمشى تنفس البشر، متلاطماً كالأمواج، لكن من غير المفهوم هل كانوا نياماً أم لا. كلا، مازال الوقت مبكراً. الأفضل أن لا تستعجل.

كانت العجوز تعرف جيداً كيف ستموت، كانت معرفتها بذلك جيدة كأنه سبق لها أن جربت الموت أكثر من مرة. وحقيقة الأمر أنه لم يسبق لها، ومع هذا فقد كانت تعرف، وترى الصورة كلها بوضوح، أمام عينيها. ربما

أن هذا يتكشف لكل إنسان فيما بعد، قبيل وفاته، لكي يستعرض، وهو ما يزال مالكاً ناصية ذاكرته، حياته برمتها، حتى النقطة الأخيرة. وعن البداية كانوا قد حدثوه، حين ترعرع، وأصبح يفهم العلة والمعلول، وإنه لمن الخطأ والجور أن لا يطلع على النهاية.

لسوف تغفو، لكن ليس كما كان يحدث دائماً، بشكل لا تلحظه، بل بشكل جلي واضح – كأنها تنزل درجات تقود إلى مكان ما في الأسفل، وتتوقف على كل درجة، كي تتمعن وتميز كم بقي أمامها من الدرجات. وحين ستصل أخيراً إلى الأرض، المغطاة من الأعلى بالقش الأصفر، وتدرك أنها قد غفت الآن بشكل تام، سوف تنزل للقائها، عبر السلم المقابل، عجوز نحيلة مثلها، وتمد لها يدها، وما عليها هي إلا أن تضع راحة يدها فيها. وبخطوات متناهية في الصغر سوف تتحرك العجوز باتجاه اليد الممدودة، وقد أخرسها الخوف والفرح، اللذان لا عهد لها بهما من قبل، وفجأة ينداح ها هنا، عن يمينها، فضاء رحب نظيف، كما في أعقاب المطر، يتوهج بالضوء المشرق الأخرس. وتشرع الروح تستعجلها بنفاد صبر؛ فتزيد العجوز من سرعتها. لن يكون عليها السير طويلاً، وللحال تقريباً سترى العجوز أنها وصلت. وفي اللحظة الأخيرة ستراودها الرغبة في التراجع عن المكان، الذي قادتها إليه قدماها، أو الالتفاف من حوله، لكنها تجد نفسها عاجزة عن هذا وذاك، وتتوقف في المكان المطلوب بالذات. وفيما بعد، وإذ تفقد السيطرة على نفسها، تمد يدها، كمن اقترف ذنباً، لكي تصافحها، فتشعر أن يدها تدخل بكل حرية، كما لو أنها ترتدي قفازاً، اليد الأخرى، المفعمة بالقوة الخفيفة اللذيذة، والتي تنعش مجمل جسمها العاجز. وفي هذه اللحظة يتردد الرنين من اليمين، حيث الفضاء الرحب. في البداية يتردد قوياً، احتفالياً، كما في الزمن الغابر، حين كان الشعب يبشر بولادة ولي العهد، بعد انتظار طويل، ولا يلبث الرعد أن يستبعد منه، وفوق رأس العجوز يسبح نشيد الأجراس، وهو يدور. وفي اضطراب غامض تتلفت العجوز من حولها، فترى أنها لوحدها، وأن تلك، العجوز الأخرى، قد اختفت.

وحينذاك تذهب، بسعادة وتفان، لا تخاف أحداً، باتجاه اليمين، إلى هناك، حيث يتردد رنين الأجراس. سوف تسير أبعد فأبعد، بينما يبقى أحدهم مكانها، يتابعها بعينيها وهي تبتعد، يقودها من ورائه الرنين، وهو يخف رويداً رويداً.

ولا تكاد تغيب عن الأنظار حتى تسقط عيناها، وتختفيا في التبن، كما يختفي السلمان – حتى المرة القادمة. وتتسوى الأرض، ويحل الصباح، الصباح الحي.

كلا إنها لا تخاف أن تموت، فلكل شيء مكانه. لقد عاشت وتفرجت بما فيه الكفاية. لم يبق في داخلها ما تنفقه، فقد أنفقت كل شيء، – خواء. لقد استُهلكت حتى الثمالة، وتبخرت بالغليان حتى آخر قطيرة. لكن ما الذي رأته في حياتها يا ترى؟ لم تعرف إلا شيئاً واحداً : الأولاد، الذين كان لابد من إطعامهم وسقيهم، وغسلهم، والتحضير سلفاً لكي يكون لديهم ما يأكلونه ويشربونه غداً. من الواضح أن ثمانين عاماً كثيرة على الإنسان، على كل حال، طالما أنها استنزفت لدرجة أنه يمكن رميها الآن، لكنها وهي تنظر إليها الآن من على عتبة موتها، لم تجد بينها كلها فرقاً كبيراً ، وهي تتابع عاماً بعد آخر، مرت متشابهة على عجل : عشر مرات في النهار كانت العجوز ترفع رأسها نحو السماء، لكي ترى موقع الشمس، وتكتشف – أصبحت عالية، أصبحت منخفضة، بينما لم تنجز أشغالها كلها حتى الآن.

إنها الأشياء نفسها دائماً : إزعاجات الأولاد، خوار الدابة، انتظار الحاكورة، وهناك الشغل في الحقل وفي الغابة وفي التعاونية – دوامة دائمة، لا تجد فيها متسعاً من الوقت للراحة، والنظر إلى ما حولها، والتزود، بعينيها وروحها، من جمال الأرض والسماء، " عجّلي، عجّلي " – كانت تستحث نفسها، وتنقض تارة على هذا الشغل وأخرى على ذاك، ومهما عملت فلم يكن لذلك نهاية ولا حدود. على هذا النحو مرت كل حياتها – حيث تبدو، من جهة السنوات، طويلة مختلفة – فكم حملت العجوز على كاهلها من أعباء، لكنها فقيرة من حيث ما بقي في الذاكرة : كل أمر مشابه الآخر، وكل عام مشابه لقرينه، وكل اهتمام لغيره. عاصرت

العجوز السراج، وعلى أيامها انتقلوا إلى مصباح الكيروسين، أما الآن، ومنذ عهد بعيد، فيشخطون الكهرباء – كل ذلك لم يتم بين عشية وضحاها، كما يبدو، لكن هذا كانت تستنير به، بعضه أضعف، وبعضه أسطع، في جلبتها، التي لم يكن يكفيها ضوء النهار، ومع الأسرة الكبيرة لا يمكن أن يكون الأمر مختلفاً. وعندما لزمت الفراش، وعندما تغلبت عليها الشيخوخة، عندها فقط جاءت السنوات، وصرَّت شتاءات طويلة وَسْنى فوق رأسها – انظري يا عجوز، انظري، ولا تقولي إن العام أطول من العام، وكان لديك منها ما يكفي.

لكنها لم تشك من حياتها، كلا. وكيف يمكن أن تشكو مما هو خاص بك، ولا يخص أحداً آخر غيرك، والذي كان من نصيبك وحدك، لا يشاركك فيه أحد؟ لقد مرت، فليكن، فهي لن تبدأ للمرة الثانية. ولهذا تكفي الإنسان حياة واحدة، ويكفيه أنَّ لديه واحدة – فاثنتان ما كانتا بكافيتين؛ ولقد عاشت العجوز حياة لا تعقيد فيها : أنجبت، اشتغلت، ولفترة قصيرة كانت ترتمي في الفراش قبيل اليوم الجديد، وتثب من جديد، وتدب نحو الشيخوخة – كل هذا في مسقط رأسها، دون أن تغادره إلى أي مكان، كما الشجرة في الغابة، وهي تقوم بالضرورات البشرية، على غرار ما فعلت أمها. الآخرون كانوا يسافرون، يتفرجون، يتعلمون الجديد – لكنها بالمقابل كانت تصغي إليهم عندما يتفق لها، فتدهش لقصصهم، ثم إنها أنجبت، هي نفسها، الكثير من الأولاد،الذين يسافرون لا أسوأ من الآخرين، لكن لم تتمنّ، بل لم يخطر ببالها قط أن تشغل مكان أحد لكي ترى، على غراره، الكثير، وتؤدي الأعمال بسرعة مثله. ليس بوسع المرء أن يخرج من جلده، فهو ليس بالأفعى. ولم تشعر بالحسد تجاه أحد أبداً، مهما كانت حياته جيدة، ومهما كان وجهه جميلاً– فلم يكن ذلك بالنسبة إليها بأفضل من أن يرغب المرء في أن يتخذ له من الأمهات أماً غريبة، أو من الأولاد ولداً غريباً. فلكل حياة روعتها. ولقد كانت لديها، بدورها، أفراحها العزيزة المشرقة، التي لم تكن لدى أي كان، كما كانت لديها أتراحها الغالية، التي كانت تصبح، مع مرور الزمن، أغلى وأقرب للقلب، والتي لولاها لفقدت منذ عهد بعيد نفسها في المشاغل والتفاهات. كانت بعد كل مصيبة تعود فتجمع نفسها من العظام

القديمة، وتقويها بالماء الحي، وتدفعها : هيا تحركي، عيشي، فبدونك لن يطأ أحد مكانك، وبدونك لن يصبح أحد أنت. تابعي حياتك ما دمت حية، ولا يجوز بطريقة أخرى. كانت الحياة بالنسبة إليها فرحاً تارة، وعذاباً تارة أخرى – فرحاً معذباً، فهي لم تكن تعرف أين يلتقيان وأين يفترقان ولا أيهما أكثر نفعاً لها. فقد كانت تقبلهما في نفسها من أجل نفسها، من أجل استمرارها ولكي تتوهج بنارهما الخفية.

كانت العجوز ترقد وتصغي – تصغي إلى العزبة، التي تتنفس في الليل باهتمام، وهي تسبح في ضوء النجوم الساحر المتلألئ، تصغي إلى الأرض الوسنى، التي تقوم العزبة عليها، وهي تطلق التنهدات الخافتة العفوية، وإلى الدوران الساطع العالي للسماء فوق العزبة، وحفيف الهواء على الجانبين – وما كان يساعدها في أن تسمع نفسها وتشعر بها، ذاك الذي كان يغادرها نهائياً إلى فضاء الليل، تاركاً الجسم نهباً للخفة والخواء.

وفجأة بدت لها حياتها طيبة، مطواعة وموفقة. موفقة أكثر مما لدى أي كان. وهل من مدعاة للتذمر في كونها وهبتها كلها للأولاد، مادام الإنسان إنما يأتي إلى هذه الدنيا لكي لا يعاني العالم من قلة البشر، ولكي لا يشيخ بدون الأطفال.

تذكرت ما قاله لها ميخائيل بعد ولادة بكره فولودكا. لم يكن سكراناً من الخمرة، بل كانت قد أسكرته الدهشة من أنه، وهو الذي لا يزال شاباً يافعاً، أصبح أباً، وقام بأول مساهمة في استمرار الجنس البشري. لقد قال لها :

– انظري يا أم : أنا منك، هو مني، ومنه سيخرج أحد ما، وأضاف بمرارة المتنبئ وغموضه : على هذا النحو يسير كل شيء.

عند ذاك فقط أدرك أن كل شيء يسير على هذا النحو، سار وسيبقى يسير إلى أبد الآبدين، حتى نهاية العالم، أدرك ذلك عندما توقفت هذه الحقيقة البسيطة، التي لا تفوت أحداً، عنده، وألقت عليه حلقة جديدة من سلسلتها، التي لا تنتهي. وعندما أدرك جيداً، كما يدرك الكبار، وحيداً مع نفسه، أنه فان، فناء كل ما في الدنيا، عدا الأرض والسماء، وهذا ما دفعه

لأن يذهب إلى أمه ويقول لها ما تعرفه منذ عهد بعيد، وما كانت تظن أنه يعرفه بدوره.

وفي لحظة ما خيل للعجوز أنها موجودة في بيت صغير رث، ذي نوافذ صغيرة مغلقة من الداخل، وأن تلألؤ النجوم الساحر ينفذ عبر الجدران والسقف. وكل نافذة من النوافذ هي ذكرى عن أحد الأولاد : هنا عن ليوسا، وهنا عن بربارة، وهنا عن إيليا، عن ميخائيل وعن تانتشورا. وفي الأعلى يوجد صف من النوافذ الصغيرة جداً، المسدودة بعوارض، والتي لا داعي لمسها – إنها ذكريات عن أولئك الذين لم يعودوا على قيد الحياة. وكما المصاب بالروبصة، كانت العجوز تسعى من نافذة إلى نافذة، دون أن تترك وراءها ظلاً، وهي لا تعرف أيها تفتح، وفي أيها تنظر، وأيها تختار.

إن كل حياتها هنا، في هذه النوافذ الصغيرة. افتحيها يا عجوز، وانظري مكمن ثرائك، وأية ذكريات، تبقى بعدك وتحرك أجمات الثمار المطواعة على ضفة النهر، وأغصان البتولا عند طرف الحرش، أو تفوح في وجه أحدهم، مثيرة لديه هواجس مبهمة ومقلقة، لم يكن لها فيه شيء. ومن شدة النعس سقط للتو عصفور صغير من على غصن عال في الغابة، وكاد يصل الأرض، لكن هذه ليست حياتك بعد، وليست ذكرياتك هي التي أقضت مضجعه، وهي تتحول إلى حفيف، إلى همس، إلى أصوات متفككة مبهمة، بل ذكريات شخص آخر.

تحركت العجوز، وهي تسوي جسمها المتخدر، فتحرك أحدهم في الغرفة، لكأنه يستجيب لها، راجياً أن لا تنساه، ولسبب ما ظنت أن الذي يتحرك هو إيليا – لقد نام اليوم في العزبة.

هاك إيليا ... ما الذي يمكن أن نختاره عنه من ذاكرة الأم الطويلة، وإلى ماذا تنظر، بحيث لا تغضبه ولا تغضب نفسها؟ فاليوم حتى الذكريات يجب أن تكون هادئة، مشرقة، ودية، ولا يحسن أن تقض أية مرارة، أية صرخة خاطئة، قادمة من الماضي، ليلة الوداع الأخيرة هذه. عما قريب سيؤون الأوان، عما قريب.

هاك إيليا ... ترعرع إيليا غريب الأطوار : ففي حاكورتنا يوجد كل شيء بوفرة، لكنه يتسلل إلى حاكورة الجيران، ويعطي لقمته الأخيرة لأول عابر سبيل، في الوقت الذي ننام فيه على الطوى، ولم يكن بالإمكان أبداً أن تتنبأ بما يمكن أن يقوم به بعد لحظة. فقد صدف أن أرغمناه مرة، وكان لا يزال غلاماً، على البقاء عند العربة المحملة بالقمح، الذي تم جمعه للذهاب إلى الطاحون – وفجأة اندلعت الحرب، ولعلع الرصاص. إنه إيليا، فبدلاً من الجلوس على العربة، وطرد الدجاج بعود يابس، تسلق العنبر، ومن هناك راح يصوب عليها بالبندقية. فقضى، هكذا، دون سبب، على خنزير وخنوصين. وفي مرة أخرى، وكان قد أصبح شاباً، قام بفعلة نكراء. فقد وصلت إلى التعاونية لجنة تفتيشية من إحدى الجهات. وكان إيليا مع فتيين آخرين يحرثون الأرض وراء النهير الأعلى، لزراعتها في الربيع، وما إن ظهرت اللجنة، حتى نزع ثيابه كلها، وأصبح عارياً كما ولدته أمه، وراح يسير خلف المحراث، وهو يصفر. كان ثمة نساء في عداد اللجنة، وقد خاف الجميع من الاقتراب منه، وهكذا فقد غادروا دون أن يطلعوا على نوعية الحراثة. ويبدو أنهم وجهوا اللوم فيما بعد إلى رئيس التعاونية، لأنه انقض على العجوز، زاعماً أنها هي التي علمت ابنها أن يسير عبر التلم عارياً.

لكن ما تذكرته العجوز الآن شيء آخر. فلقد أخذوا إيليا إلى الحرب أيضاً، لكن عندما أوشكت أن تنتهي، فلم يخض غمارها، إذ بينما كانوا يدربونه، توقفت الحرب، والحمد لله. ومن البديهي أنهم لم يكونوا يعرفون ذلك عندما ودعوه.

كان يوماً جافاً عاصفاً، والشتاء على الأبواب، وكانت العربة جاهزة، تنتظر في المربط. وكان كيس السفر معبأ، والبوابة مشرعة، ولم يبق إلا الوداع. اقترب إيليا من أمه، وكان قصير القامة، هادئاً، لكنه في الوقت نفسه يبدو مختالاً بالذهاب إلى الحرب، والمهم أنه كان شبه غريب في الدقيقة الأخيرة هذه. رسمت عليه إشارة الصليب، وقد تقبل مباركتها، ولم يرفضها، إنها تذكر جيداً أنه لم يتحمل ذلك على مضض، أو شفقة بالأم، بل

تقبلها عن قناعة، كان ذلك واضحاً في عينيه، اللتين ارتجفتا، وأشرق فيهما الأمل للحظة. وللحال شعرت العجوز بالاطمئنان عليه.

جرَّ تذكر هذا السفر وراءه سفراً آخر. لم يكونا متشابهين، وعلى الرغم من ذلك فقد كانا في ذاكرة العجوز متجاورين دائماً.

ففي الصيف استعدت ليوسا للسفر إلى المدينة نهراً. وصلوا المرسى باكراً، قبل فترة طويلة من الباخرة، وقد تجمعوا على الضفة. وكادوا يختنقون من الدخان، الذين استعانوا به لطرد البعوض الكثير. أحاطت بليوسا صديقاتها، اللواتي كن يحسدنها ويرثين لها، وبالقرب منهم كانت ثانتشورا تدور، أما العجوز فقد جلست وحدها على جذع شجرة واطئ، منغرس في التربة، غير بعيد عن الفتيات، وهي ترصد بكآبة وإذعان ظهور دخان الباخرة فوق الجزيرة. وأخيراً ظهر، لكن الفتيات، حادات البصر، رأينه قبلها، فعَلا صخبهن على الفور، ورحن يطلقن الصيحات، ويضايقن ليوسا، ويسدين لها النصائح، يقاطع بعضهن بعضاً. ظلت العجوز تجلس بصمت واكتئاب.

رست الباخرة، وشرعت ليوسا تمد يدها لصديقاتها على عجل، وكانت أمها آخر من مدت له يدها. ضغطت العجوز كفها الحارة المرتبكة، ودفعتها في كتفيها – اذهبي، ثم ابتعدت بدورها قليلاً عن جمهور المودعين، حيث بإمكانها أن ترى بشكل أفضل. رفعوا المرساة بسرعة، وحركت الباخرة عجلاتها، وأقلعت، ومعها ابتعدت ليوسا عن الضفة، وأبحرت. كانت تقف عند الحاجز، خلف الشبكة المعدنية البيضاء، وراحت تلوح بيديها لصديقاتها، ولسبب ما لم تكن ترى أمها، على الرغم من أن العجوز صرخت لها مرتين أو ثلاثاً، وفيما بعد، ولكي تقع عليها عينا ابنتها، راحت، كالممسوسة، تقفز وترمي بيديها عالياً.

ومن على المتن المائل، الذي كاد يغرف الماء، أبعد المسافرون إلى الجانب الآخر، وها هي ليوسا تكاد تذهب ... وأوشكت العجوز أن تجهش بالبكاء. وبغتة ألقت ليوسا نظرة أخيرة على الضفة، ودفعت بالشاب، الذي يرتدي قميص البحارة المخطط، والذي كان يحاول دفعها بعيداً عن عيني

أمها، وهرعت إلى الخلف، ثم راحت تلوح لأمها بالمنديل، الذي نزعته عن رأسها، بحرارة ويأس ومرارة. كان وجهها وجلاً، أبيض، وللحال اغرورقت عيناها بالدموع. واندفعت العجوز للقائها، ووصل الماء إلى ركبتيها، لكن الباخرة كانت قد زادت سرعتها، ولطمت بكل قوتها، ومن خلفها ضربت الشمس في إثرها، برقة، مطاردة، ومحولة إياها إلى لعبة متلألئة. كان الشعور، الذي راود العجوز آنذاك، أنهما تفترقان إلى الأبد.

بغتة انقطعت ذكرياتها عن أولادها، وبرز أمامها نهار ناء – ناء، يرتبط أيضاً بالنهر. كان ذلك بعيد مطر قصير، غزير مدرار، من سحابة صيفية واحدة، عبرت من هناك بالمصادفة، وعاد الجو مشمساً، وبدأت الروابي تنشر بخارها، ومن على الأشجار والأجمات راحت تتساقط القطرات الثقيلة المقعقعة. وهنا وهناك، على العشب تتزحلق القطرات كما الجعلان، وفي النهر لا تزال الفقاعات تسبح ولا تزال الرغوة تسير – كل شيء يلمع نظيفاً، متحمساً، يفوح حاداً، نضراً، ويرن على شدو الطيور والماء الجاري. والأرض، التي أسكرها المطر فتحت أبوابها على مصاريعها، وراحت تتنفس متعبة، بتلذذ، والسماء من فوقها عادت عميقة، صافية وزرقاء.

لم تكن عجوزا – كانت لا تزال صبية، وكل شيء من حولها فتي، ساطع وجميل. كانت تمشي وضفة النهر، تخوض ماءه الدافئ الطازج بعد المطر، تغرف الماء بقدميها، وتاركة من خلفها موجة تتأرجح الفقاعات من فوقها وتنفقئ. والرمل على الضفة داكن واسفنجي، والضفة منخفضة، ومقابلها مباشرة تقع الجزيرة، وهناك في مكان ما عند الرأس تصطخب المياه. كان المجرى المائي طويلاً، قوياً ومكشوفاً، يبدو فيه الجريان واضحاً جلياً، بسيله العريض والمستقيم.

إنها لا تكف تمشي وتمشي، دون أن تسأل نفسها إلى أين، لماذا، لأي سبب، ومن ثم لا تلبث أن تخرج إلى الضفة، وتضع قدميها الحافيتين المرنتين في الرمل، مخلفة الآثار، وتروح تنظر إليها طويلاً بدهشة، وهي تؤكد لنفسها أنها لا تعرف من أين جاءت. ابتلت تنورتها الطويلة، وراحت

تلتصق بجسمها، فترفع طرفها بمرح، وتدسها تحت زنارها، ثم تعود إلى الماء، وهي تطلق ضحكة خافتة، وتأسف أن أحداً لا يراها الآن.في هذه اللحظة كانت تشعر بالمتعة والسعادة أنها تعيش في الدنيا ، وتنظر بعينيها إلى جمالها، وأنها توجد في خضم الحياة الأبدية العاصف، البهيج والمتناغم، وأن رأسها يدور وتشعر بالوجع الحلو والقلق في صدرها.

وحتى الآن، ما إن تذكرت العجوز ذلك اليوم، حتى توقف خفقان قلبها : لقد حدث ذلك، حدث فعلاً، والله شهيد.

وفكرت : هل يعقل أن ذلك الجمال لا يزال يظهر للناس حتى الآن، وهل يعقل أن الجمال لم يذبل ولم يخفت في غضون الفترة، التي عاشتها في هذه الدنيا، وهل بالإمكان، إذا ما قطعت النهر إلى الضفة الأخرى، مقابل القرية، حيث كانت آنذاك، أن تجده، ولو مرة، بالشكل نفسه، وبالنضارة والبهجة السابقتين؟ كم حدث من تغيرات في هذه الدنيا – فهل يعقل أنها الوحيدة، التي بقيت على حالها؟

شعرت بالحزن والأسى، وفي الحال راحت تلوم نفسها : لن تكون جيدة، إذا ما تمنت أن يشيخ كل ما في الدنيا، ويموت معها.

في الماضي البعيد، وكانت بربارة لا تزال طفلة، وجدتها العجوز ذات مرة في الزقاق، وهي تقف على ركبتيها، وتحفر الأرض بشظية.

– ماذا تفعلين هنا؟ – سألتها أمها.

– أحفر.

– لماذا؟

– كانت القطة تحفر هنا، فجاء الكلب مسرعاً وطردها. وقد رأيت ذلك. فهل ستطردينني؟

– كلا، لن أطردك.

ضحكت الأم في خاطرها، وانصرفت. وحين عادت بربارة إلى البيت استفسرت أمها :

- هل عثرت على شيء هناك، حيث حفرت؟

- لم أكن أبحث عن شيء، كنت أحفر هكذا. لكن الثور النطّاح طردني. روحي اطرديه، واحفري.

- لماذا؟

- هكذا. احفري وبس. وسترين.

- وماذا سأرى؟

- لا أعرف. سترين شيئاً ما. إنه ممتع.

ولهذا السبب شعرت العجوز الآن، وبعد الكثير – الكثير من السنوات، بالرغبة في أن تقرفص في مكان ما، في الحقل، وتحفر الأرض، على غرار بربارة، وهي تتمعن نفسها باهتمام وتأثر، وتبحث عما لا يعرفه أحد فيها حتى الآن. إنهما يضحكان : الكبير والصغير، على اعتبار أن أحدهما بدأ يفقد عقله، بينما الآخر لم يكتسبه بعد. صحيح أن الكبير والصغير هما وحدهما القادران على أن تتملكهما الدهشة بشكل مرهف وحاد، لوجودهما ولما يحيط بهما في كل خطوة.

برد الليل، وأصبح أقسى، وراح ألقه الصافي البارد، وهو ينفذ عبر النوافذ، يحط على الجدران. لم تنس العجوز كيف تشدو السماء، وتلعب في هذا الوقت، وبأي حماسة تتلألأ النجوم، وكيف يتحرك الهلال قريباً، مختالاً. أما على الأرض فيخيم الهدوء والموت والسكون – كل شيء يغط في النوم، كل شيء في ذهول سحري عميق.

قررت العجوز، إذ ارتعشت : حان الوقت. إنه الوقت المناسب، لقد دخل الليل نصفه الثاني، ولا يجوز الانتظار أكثر. فالنوم الآن ثقيل، ولن يسمع أحد، لن يزعج. والليل المرح – جيد أيضاً، فلسوف يودعها بدوره.

كانت العجوز تستعد بهدوء، بدون جهد وخوف. حررت صدرها من اللحاف ببطء، لكي يكون ثمة ما تبدأ به، ودون أن تثير ضجة، هزت نفسها في السرير بحذر، فاكتشفت أن لا شيء زائداً فيها، وأن كل شيء قد خرج.

وقد لحقت أن تحركت فيها، ثم ما لبثت أن تلاشت، دهشة خفيفة من انعدام وزنها، ومن سهولة استسلام جسمها للحركة، لكأنه يطير في الجو. كان لا يزال هنا، برفقتها، ولقد سمعت قلبها، وهو يرسل له، مخادعاً، تياراته. مدت رجليها، واتخذت وضعية أنسب – عما قريب سوف تتساوى رجلاها مع جسدها، ولن تتعذبا بعد الآن من أنهما أول من تعطل. كم مرة قالت لهما أن لا ذنب لهما، وأنها هي من أرهقهما بحركتها الدؤوبة، لكنهما لم تفهما. أما الآن فسوف تفهمان، وليس من خيار آخر أمامهما.

كانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، وقد ظلت تحتفظ فيهما بضوء الليل الشاحب شحوب الموت، والذي سيكون آخر عهدها بالرؤية. ليته يغطي بكثافة أكثر كل ما كان يوجد في العينين سابقاً، وحينذاك سيكون استقباله من علٍ أسهل. شعرت العجوز بالرهبة والبرد حين خطر لها أنها، وقد عاشت حوالي ثمانين عاماً، وكان لديها دائماً احتياطي من الوقت في جعبة المستقبل، معلقة الآن بشعرة. كانت هذه اللحظة خالية من أي فطرة مستقبلية، ليس فيها سوى الماضي، وانتهت حياتها، ففي اللحظة التالية لن يكون لا هذا ولا ذاك. وبعد رحيلها سيبقى أولادها أحياء، أما لدى العجوز نفسها فلن يبقى أحد أو شيء، حتى نفسها. أين ستختفي حياتها يا ترى؟ فهي عاشت، وهي تذكر أنها عاشت، وأن ذلك كان منذ عهد قريب جداً. من نصيب من ستكون حياتها، التي أوصلتها كما العمل، إلى نهاية المطاف، بغض النظر هل كانت جيدة أم رديئة؟ نعم، ليس بالإمكان أن تخيط منها قفازاً – هذا صحيح. سوف يذكرونها بالخير، ويلوحون برأسهم باتجاهها، ولا شيء آخر، كانت موجودة، ثم طواها النسيان. وفيما بعد سينسون حتى الترحم عليها. وهذا أيضاً صحيح. وماذا تريد أكثر من ذلك؟ أو تريد أن تعرف، على الأقل، لِمَ، ولأي غرض، عاشت، داست على الأرض وأثقلت كاهلها بالأعباء؟ لماذا؟ أمن أجل نفسها فقط، أم من أجل منفعة أخرى أيضاً؟ من كان بحاجة إليها، ولأية تسلية ولأي غرض؟ ولقد تركت وراءها حيوات أخرى – هل هذا جيد، أم سيء؟ من يخبرها؟ من ينورها؟ لماذا؟ هل ستخرج من حياتها ولو قطرة مطر نافع، منتظر، ينهمر في الحقل العطش؟

وكما الجواب المبهم، غير الواضح، تردد صرير في الركن المظلم القصي، وتلجلجت العجوز : لقد جاء في طلبها.

وفجأة خيل إليها الآن، وهي على وشك الرحيل، أنه سبق لها أن كانت في هذه الدنيا قبل حياتها البشرية الحالية. إنها لا تذكر ولا تدري كيف ومن كانت، وهل كانت تزحف أم تمشي أم تطير، لكن شيئاً ما كان يقول لها إنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها الأرض. فها هي الطيور تولد في هذه الدنيا مرتين : الأولى في البيضة، ومن ثم تخرج من البيضة. إذن فهذه المعجزة ممكنة، وهي لا تجدف. كان ذلك منذ عهد بعيد، فقد هبت العاصفة فوق الأرض ليلاً تحمل البرق والرعد والمطر المدرار، وفي شتى الجهات كان يتردد هزيم الرعود ويتوهج لمع البروق، وانشقت السموات، وتدفق الماء منها أنهاراً. ومنذ ذلك العهد لم يعرف العالم خوفاً كهذا، ومن يدري فلربما كانت تلك العاصفة الرعدية هي التي أهلكتها، لأنها لا تذكر أكثر من ذلك، لا قبل ولا بعد، العاصفة الرعدية وحدها، ولكن هذه الذكرى مرت أمامها بشكل خاطف، كصدى لذاكرة قديمة، لا تخصها هي.

رسمت إشارة الصليب بحذر : فليغفر لها، إذا كانت قد أخطأت في شيء، فهي لم تكن تريد أن تثير استياء أحد بهذه الذكرى الوغلة، التي لا تعرف من أين جاءت، ولا كيف وصلت إليها.

الآن فقط أغمضت العجوز عينيها – فوراً، دون أن تلقي نظرة الوداع الأخيرة. وأمام عينيها، داخل مصراعيهما المغلقين، سبحت من اليسار إلى اليمين حلقات دخانية متعرجة، لكأن أحدهم شرع على الفور يبخرها قبيل السر الجديد. اشرأبت، وتجمدت وقد توترت، في انتظار اللمسة المدغدغة الأولى، التي ستؤدي إلى بدء تدفق الإحساس بالحزن والكرى عبر جسدها. ها قد عاشت إنساناً، وعرفت ملكوته – آمين. وشعرت كيف بدأ يخبو فيها وعيها، ويدب الخدر إلى يديها، أم أن هذا مجرد وهم، ورغبة؟ وفوق الأرض تدلت الأجراس الطافحة بالرنين الموعود.

مرت دقائق وأعقبتها دقائق – لكن شيئاً لم يتغير. فلا زالت العجوز تذكر نفسها: من تكون، من أين، ولماذا. لسبب ما لم يكن الموت مستعجلاً على أخذها، كان بانتظار شيء ما.

أصغت العجوز إلى نفسها بانتباه أكبر. كان يبدو أن كل شيء فيها لا يزال في مكانه، يتابع تنفيذ عمله. ولما لم تكن تعرف سبب التأجيل، فقد أطلقت أنةً مكبوتة : إنني هنا، هنا. ربما كان الموت يظن أنها ليست جاهزة بعد – فليعرف إذن. ومن أجل الدقة أطلقت أنةً أخرى، شاقة سكون الليل بصوت شاكٍ وداعٍ : لا تخف، انزل، إنني بانتظارك.

شعرت العجوز بالضيق، وتملكها التشاؤم. هل عذبت موتها كثيراً، لدرجة أنه لم يعد قادراً الآن على الوصول إلى هنا؟ كم من السنوات جرته وراءها، لا بل إنها لم تكن تجره، بل يمكن القول إنها كانت تسوقه، فأصبح على آخر رمق. وربما كان صحيحاً أن الموت عاجز عن بلوغ العجوز، بينما العجوز غير قادرة على الدنو منه أكثر. إذن فهي الآن لن تحصل على الموت؟ كلا – كلا، هذا غير ممكن. لا يموت إلا أولئك الذين لا يولدون. ثم إن السبب هنا، على الأرجح، يكمن في شيء آخر على كل حال. لا شك أن الموت يعرف كيف يؤدي عمله، الذي وجد من أجله في هذه الدنيا.

أصبحت العجوز تتنفس، وهي مشوشة الذهن، قلقة، فللتو كانت على ثقة من أنها تطهرت من كل شيء، يعيشه الإنسان، وها إن عليها أن تبدأ كل شيء من البداية.

ثابت العجوز إلى رشدها : يجب أن تطمئن، تهدأ. يبدو أنها، وهي تستعد للموت، لم تحسن التصرف. ليس الموت هو الذي نأى عنها، بل الأصح أنها هي من ضايقت الموت، ولقد ضايقته كونها أرادت أن تتكفل بعمله. ومن يمكن أن يرضى عن ذلك؟ فلقد أمضى الموت ثمانين حولاً بانتظار ساعته الاحتفالية الوحيدة، وأعاد ترتيب الأمور عشر مرات، فلديه حساباته، فهل كان يجوز التدخل فيها؟ ذلكم كان السبب.

وقررت : يجب أن تغفو. فالليل وجد من أجل النوم. وحينما لن تعود العجوز ترى أو تسمع، سيدنو الموت منها بجرأة أكبر، ويبعد الوشائج الأوثق، التي تربط العجوز بالناس والعالم، وحينذاك ربما يوقظها لكي ترحل وهي واعية. لقد انصرم الشطر الأكبر من الليل، لكن الوقت لم يفت بعد، وليس بالصعب أن تنجز الأمر قبل حلول الصباح.

الآن اختبأت العجوز في السرير لكي تروح في سبات بشري عادي، سبق أن استخدمته في حياتها آلاف آلاف المرات. لم تفتح عينيها، لكنها أضعفت من إطباقهما، لكي ترقدا بسهولة وحرية، ولا تفكر بالضوء. فهذا لا يفيدهما في شيء. وراحت، وهي تلامس السرير بظهرها، تهدهد نفسها، وشرعت شفتاها تهمسان بكلمات مبهمة، على شكل أغنية، يهدهدون بها الصغار. كانت في منتهى القرب من النسيان، وخيل إليها أنها تلف بحذر بأقمشة رمادية ناعمة، وأنها تغرق فيها شيئاً فشيئاً، وهي تستسلم بكل متعة لسماكتها الناعمة المريحة، ولحفيفها الفتان، لكن شيئاً ما أعادها على أعقابها، ومن ثم راح يعيدها، دون شفقة، مرة ومرة.

لكن النوم لم يأت، وراحت العجوز تخمن السبب : لقد قسا وتحجر الآن لدرجة أنه أصبح ثابتاً وأطرش، من الصعب الخروج منه الآن، لكن الدخول إليه أكثر صعوبة. لن يعود أدراجه من أجل إنسان واحد، ومن العبث الإلحاح عليه. يجب أن تأتيه بأسلوب آخر. يبدو أن عليها أن ترقد ببساطة، ولا ترغب بشيء سوى الرقود، دون أن تلح على شيء. وحينذاك، وربما بسبب الكسل، قد ترضخ وتستسلم للنوم، الذي لن يعرف من تكون، وتنطلي عليه الحيلة، ليت ذلك يحدث. عليها أن لا تستعجل، وأن تتصرف وكأن لديها من الوقت الكثير، وأن الليل لا يزال في بداياته.

بدأت تحضر نفسها : خففت من تنفسها وجسمها، هدأت صدرها المضطرب، وشبكت يديها فوقه بشكل مريح. وكما أملت، فقد حالفها الحظ، فعلى الفور تقريباً حملتها موجة حلوة ناعمة، وخرجت بها، وهي تهدهدها، نحو السكينة اللذيذة، التي لم يبقَ للوصول إليها إلا القليل، لحظات فقط. وعلى حين غرة شق سجف الصمت صياح أحد الديكة في مكان ما من

القرية، تردد الصياح بوقاحة، عالياً، وكان ذلك مفاجئاً وفي غير وقته، لدرجة أن العجوز أطلقت أنيناً حاداً مكبوتاً، وفتحت عينيها – وللحال أغمضتهما، لكنها أدركت أن الوقت تأخر، وأنها عبثاً تحاول. ضاع كل شيء. لم تنم. حتى لو أن النجاة كانت قريبة، فهي الآن بعيدة. وفي أعقاب الديك الأول، صدح ثان ومن ثم ثالث ورابع ...

لقد أخفقت، ولم يعد ثمة ما تعلق عليه العجوز الأمل. فتحت عينيها، وهي تدرك ما تفعل، فتملكها الخجل. لم يسبق لها أن مرت بمثل هذا العار: فهي ودعت، وقالت الكلمات الأخيرة، وواست نفسها بالذكريات الأخيرة، وغطت عينيها بالظلمة ثم عادت أدراجها. من يتصرف على هذا النحو؟ كلا، إنها لم تخف، ولم يسبق لها أن خافت من ذلك أبداً، ولا ضرورة لأن تحتال على نفسها. بالنسبة إليها لقد ماتت، وهي لا تعرف مِنْ حياة مَن، ومنْ تنفس مَنْ سوف يقتات جسدها الجبان المذنب الذي احتفظ لنفسه بالقدرة على الحركة.

شرع الليل يلملم أذياله، وخفت تلألؤ النجوم، وأصبح أكثر جفافاً وفقراً، ومن خلاله بدا واضحاً كيف انداحت السماء. كانت الديكة قد صاحت ثم هدأت، لكن شيئاً ما في أعقاب صياحها تصدع في الليل وتقصف – كان الليل يرتحل على عجل. وفي هذا الوقت ترتفع النجوم أعلى، وتروح تحدق بتعب وخفوت. كل هذا دخل العجوز بنفسه، برغبة منها، أو بلا رغبة، كما لو أنها قدرٌ مفتوح خاو، وضع في غير مكانه، وانْسيَ. كانت ترقد ضائعة عاجزة، في ذهول مطبق، وكأن كل شيء في الدنيا الآن لا يهمها.

ظلت ترقد على هذا النحو طويلاً، حتى الصباح. وحينما طلع الصباح وتجمع في غرفة العجوز ما يكفي من الضوء، استعادت وعيها، ورمت اللحاف عن نفسها، ثم جلست. وراحت، وهي تنظر بتقزز إلى قدميها، تشد الجوربين عليهما، ومن ثم دستهما في المداس. كل هذا تعلمت العجوز القيام به منذ البارحة. لكن صباح اليوم لم يكن يشبه صباح البارحة. البارحة كانت مسرورة بالنهار القادم وتعلق عليه أمالها، وتفكر بتانتشورا. لكن كل آمالها خابت. حتى الليل رفض إنقاذها، وتركها بدون نوم، علماً أن في

جعبته من هذه النعمة ما كان يكفي الجميع دائماً، والآن ليس لديه منها ما يكفي لعجوز. لقد أضجرت الجميع، ولم يعد أي كان بحاجة إليها – فلم إذن تهتم بنفسها، مادام الآخرون لا يولونها أي اهتمام؟

تشبثت العجوز بظهر السرير، وجربت أن تقف بكامل قامتها. تقوست قدماها تحتها، لكنها لم ترحمهما : ما دمتما لم ترغبا في الموت، فافعلا ما تؤمران به، ولا تتظاهرا بأنكما مسكينتان، فلن يصدقكما أحد على كل حال. وبعد أن تعلقت بيديها، قومت قدميها، وبجهد يائس أرغمتهما على أن تتحركا من مكانهما – فلتمشيا، ما دمتما لم تموتا، فلتمشيا، كما تمشي كل الأقدام الحية، ولا يخطرن لكما ببال أن تتكسرا. فل-تم-شيا. كل عظمة فيهما بدأت تصر وتئن، لكن حتى هذا لم يجعلها تتوقف. صرًا ما طاب لكما الصرير، لكن تحركا. كفاني طاعة لكما، والآن عليكما أنتما أن تطيعاني. وراحت، وهي تنقل يديها عبر الحائط، تجر قدميها عبر أرض الغرفة. كان من شأن من ينظر إلى العجوز، أن يظن أنها تزحف عبر الحائط، إذ كانت شبه مستلقية عليه، وقد نشرت يديها اللتين كانتا تبحثان عن شيء تتشبثان به. اجتازت العتبة زحفاً على أربع – ولم يكن بالإمكان اجتيازها بطريقة أخرى. ولدى المدخل كانت توجد عتبة أخرى، أقل ارتفاعاً، لكن العجوز لم تنتصب، وتابعت على أطرافها الأربعة، كما الكلب، إلى أن خرجت من العزبة. كانت قد أصبحت على آخر رمق، وبالكاد استطاعت، بعد بذل جهد كبير، أن تجلس نفسها على الدرجة العليا.

راح الصباح يرتفع عالياً، صافياً، بطيئاً. وفي السماء، خاصة في الجهة، التي كان بمقدور العجوز رؤيتها، برز، قبل ظهور الشمس، لون أزرق كثيف، فغرق كدر الفجر فيه. كان الوقت مبكراً،لكن الغابة كانت قد نفضت عنها الكرى، وانتصبت خفيفة نضرة. كل شجرة مستقلة عن الأخرى، حتى من الأعلى لم تكن الخضرة تنسكب في كتلة واحدة، بل كانت مرسومة بخطوط حية خفيفة. وعن المجثم، خلف العنبر، راحت تنفصل الدجاجات، وتطير، وهي تصفق بأجنحتها، نحو الأسفل، حيث تنفض نفسها على عجل، وتبدأ مباشرة النقر في التربة، وهي تتحرك بخطى سريعة مدفئة. كان الجو بارداً فعلاً، حيث كانت تهب من النهر الرطوبة،

التي انتقعت أثناء الليل، وفي الحاكورة كان الندى يتلألأ على الأوراق بارداً. لكن الصباح كان يتغير، ويسحب البساط إلى جانبه : للتو كان يبدو ثابتاً، كسولاً، رمادياً، أما الآن فقد أشرق، تراقص، وتحول إلى انتظار الأطفال المتمهل، وفي السماء ظهرت شرائط زاهية على شكل أعمدة ضيقة- وبالفعل، فقد أعقب ذلك مباشرة، وأمام عيني العجوز، شروق الشمس، فاستضاءت الأرض بسعادة وإخلاص.

لم تكن العجوز نفسها تعرف لماذا خرجت من العزبة. لربما كانت تأمل أن يعجز قلبها عن تحمل عبء المسير، فيتوقف في مكان ما من الطريق عن الخفقان فجأة، وبذلك يسوى الأمر. لكن أملها خاب، فقد وصلت سالمة. جلست وحدها، وبفتور ولامبالاة راحت تنظر إلى الحاكورة والغابة – ما كانت تصطدم به عيناها – كانت تنظر دون أن ترى شيئاً، ودون أن تجد شيئاً. كانت تشبه الشمعة، التي وضعوها في الشمس، حيث لا يحتاج إليها أحد. لكن العجوز استسلمت للشمس، كانت في قميص النوم الرقيق، فراحت ترتجف من البرد، حتى ذلك الدفء الزهيد، الذي بالكاد يصلها، كان مناسباً لها. فهي ليست خشبة، بل مهما كانت فهي إنسان، ويبدو أن جسمها لا يزال يشعر بما هو برد وبما هو ليس برداً. ومع ذلك فقد بدا لها هذا اليوم زائداً، غريباً، ومنذ البداية لم ترده، وكانت تخشاه : طالما أنها لم تمت ليلاً فهذا يعني أنه سيكون عليها أن تتحمل شيئاً ما، نهاراً. فلا شيء يحدث عبثاً.

كانت تجلس وتنتظر.

قرقع وعاء الحليب في المدخل – خرجت ناديا. لم تكن تتوقع أبداً أن تجد العجوز ها هنا، فارتدت.

- ماما ! – كانت كنتها تناديها ماما – أنت هنا؟

التفتت العجوز وإذ رأتها هزت رأسها : هنا.

- كيف خرجت إلى هنا؟ لقد بردت. دعيني أعيدك إلى البيت.

هزت العجوز رأسها دلالة على الرفض القاطع : لا.

- لكن كيف ..

اندفعت ناديا إلى العزبة، وفي البداية ألقت نظرة على سرير العجوز – لقد كان خاوياً بالفعل– وبعد ذلك نزعت الكنزة عن المشجب، وحملتها للعجوز.

– كيف خطر ذلك ببالك؟ – لم تستطع ناديا أن تثوب إلى نفسها – لكن الجميع نيام، لا يعرفون. أعليَّ أن أوقظهم؟

– لا داعي – قالت العجوز – اذهبي واحلبي، أما أنا فسأقعد هنا.

وفي طريقها إلى الفناء التفتت ناديا مرتين أو ثلاثا إلى حماتها – لا تزال جالسة.

ها هي ذي الشمس ترتفع فوق الغابة متوجهة إلى الفضاء الرحب، المستعد لها، وهي تميل نحو اليمين قليلاً، كما البارحة وأول البارحة، ولعشرة ولعشرين عاماً خلت. ولم تكن قد أصبحت ساطعة بعد ، ولا تزال واضحة لا تبهر النظر. وبدا الندى في الحاكورة وكأنه قد ازداد . حيث راح يلمع في كل مكان على شكل شرارات ملتهبة جذابة . شرعت القرية بالاستيقاظ ، وسبح الدخان فوق السطوح ، وراحت الدواب تسعى في الطريق ثقيلة شبعة . فتهتز الأرض ، واصطفقت في البيوتات الأبواب المشدودة ، وترددت الأصوات الأولى ، التي تسمع في الصباح جيداً.

وفي هذا الوقت المبكر ، غير المناسب للقيام بالزيارات ، ظهرت ميرونيخا أمام العجوز بغتة ، كأن الأرض انشقت عنها . ولما كانت معتادة على أن تنظر إلى ما تحت قدميها ، لا إلى الأمام ، فقد كادت أن تدفع العجوز عن سلم المدخل ، ولفرط دهشتها أقعت ، وضربت كفاً بكف:

– أهذه أنت يا ختيارة . أم ؟

– أنا . قالت لها العجوز . وبدا وكأنها لم تفرح حتى لرؤية ميرونيخا، فقد جاء صوتها باهتاً ، خافتاً : سُئِلَتْ ، فردت.

– خرجتِ ؟

- خرجتُ .

- لربما ترافقينني يا ختيارة إلى ما وراء التلة ؟ سوف نشعر بمتعة أكبر ، إذا ما تسلقنا المرتفع معاً.

- لا. فأنا بالكاد دببت إلى هنا. تارة على أربع، وأخرى بطريقة ما.

- أما أنا فقد جئت، فكرت أن أعرف من ناديا كيف ترقد ختيارتي هناك اليوم. أما هي فقد فرت من سريرها، انظروا إلى أين، إلى الحرية.

- لم أمت – قالت العجوز.

- وهل طلبت لنفسك؟

- طبت لنفسي.

- إذن لم يحن الوقت.

- وما الحاجة إلى الوقت؟ – ولأول مرة بدا صوت العجوز اليوم معبراً – كان صوتاً مستاء – الأولاد هنا، وهم لن ينتظروني طويلاً – كان الوقت مناسباً جداً، لكن كلا.

- كلنا يا ختيارة نمشي تحت رحمة الرب. ولن يحدث شيء إلا بإرادته.

- أما أنا فلست أمشي، بل أزحف تحت رحمته. وقد خطر لي أن أخرج، وأدع ملكة الموت تراني، لقد أضاعتني، دعيها تلاحظني.

- لا تتكدري.

توقفت العجوز عن متابعة هذا الحديث غير الشيق، فميرونيخا لم تكن برفقتها ليلاً، ولن تفعل، وهل بالإمكان تفسير مشاعر الإنسان ساعة موته، ومشاعره، حين يخدعه الموت، بعد أن يكون قد تقبل الاعتراف. ولذا فقد سألت العجوز :

- ألا يكتب لك ولداك شيئاً؟

وأعربت ميرونيخا عن دهشتها :

– لكنك البارحة فقط سألتني عن هذا.

– البارحة كان البارحة، فلربما كتبا اليوم، من أين أعرف؟

– أجل. لم يناما الليل بطوله، كتبا لي جريدة بحالها. ولست أعرف كيف سأقرؤها. – كانت ميرونيخا تتكلم دون زعل، ودون أمل، وهي تسخر من نفسها فقط – أية داهية أصابتهما كي يبعثا برسالة لي؟

وقالت العجوز :

– كان يحدث في الماضي أن الإنسان يبقى حيث ولد. أما الآن فإنهم لا يستقرون في مكان. لا يكفون عن السفر والسفر، لكن إلى أين، ولماذا؟

– إننا لا نفهم شيئاً أنا وإياك يا ختيارة.

– ربما لا نفهم. لكننا، أنا وأنت، آخر عجوزين عتيقتين باقيتين في هذه الدنيا. لا يوجد أحد آخر. أما العجائز، اللواتي ستأتي بعدنا فهن مختلفات – متعلمات، فهيمات، يعرفن لماذا يحدث ما يحدث في العالم. أما أنا وأنت فقد ضعنا. إنه عصر آخر الآن، ليس عصرنا.

– إنه هكذا يا ختيارة.

– ولماذا ليس هكذا؟ هكذا. تذكري كلامي.

وسكتتا. تنهدت ميرونيخا، ونهضت.

– إنني مرتاحة معك يا ختيارة، لكن علي أن أجري.

– فلنبق جالستين قليلاً.

– حتى الآن لم تأت بقرتي. يقول الفلاحون أن بقرتين غير معروف لمن هما، تعيشان خلف الجبل. ليس في اليد حيلة، يجب أن أجري إلى هناك.

– لن تصلي يا صبية إلى ما وراء الجبل.

- وصلت أم لم أصل، سأذهب، ومن يمكن أن أرسل بدلاً عني؟

- سوف تقعين هناك.

- ربما أقع. وما الفرق أين يرقد المرء؟ هناك وحيدة، وهنا وحيدة. إذا ما لزمت الفراش، لن أجد من يناولني الماء.

- لو أنك تكتبين لهما.

- وماذا أكتب لهما؟ لكأنهما لا يعرفان أنني بلغت الخامسة والسبعين. كلا يا ختيارة، سواء كتبت، أم لم أكتب ... ثم إن التعليم لدينا أنا وأنت واحد. أما هما فيبدو أنهما يعيشان مرتاحين، مادامـا لا يأتيان ولا يكتبان. لو أن حياتهما كانت سيئة، إذن لكتبا.

- إذن لكتبا.

- هكذا بالضبط.

بدلت ميرونيخا القدم، التي تعتمد عليها، فلم تعد قادرة على الوقوف في مكانها.

- إذن ابقي قاعدة يا ختيارة، أما أنا فسأجري. اقعدي ولا تبتكري شيئاً، وحال عودتي سأجيء إليك. سنقعد معاً وندمدم.

- حاذري من الوقوع هناك.

مدت العجوز يدها مودعةً، فارتعشت ميرونيخا فجأة، ونكست رأسها بارتباك، ثم ضغطت بيد العجوز على خدها. انبجست الدموع من عيني العجوز، وهمت بالوقوف، لكن ميرونيخا منعتها، واتجهت نحو البوابة. على الأرجح تعتقد أنها تمشي بسرعة، لا تمشي، بل تجري، لكنها في الواقع كانت تمط كل جسمها حين تنقل قدميها، وكان من الواضح أنها تخطو كل خطوة بشق النفس.

فكرت العجوز، وهي تمسح دموعها، أنها لم تمت ليلاً لأنها لم تودع ميرونيخا، صديقتها الوحيدة على مدى الحياة، ولأنه لم يكن لديها ما لديها الآن – الإحساس بالخاتمة الكاملة الصافية والمشرقة وبروعة هذه الصداقة القديمة والوفية.

كانت العجوز تعرف أنهما لن تريا بعضهما بعد الآن.
كانت مضطرة لأن تعيش يوماً آخر – زائداً، لا لزوم له.

كانت ناديا هي التي قادت العجوز إلى العزبة، والأصح أنها حملتها بين يديها، كانت ساقا العجوز عاجزتين عن حملها. ومن جديد عادت إلى الرقود في الفراش، وهي تنظر أمامها بعينين حزينتين مذنبتين، وتصيخ السمع بحذر لما يحدث من حولها، كان يبدو لها أنه لم يعد لها الحق في أي شيء في الدنيا – لا أن تنظر ولا أن تتكلم، ولا أن تتنفس – كل شيء كان يبدو مسروقاً. فمنذ أن نهضوا في الصباح، وأخبرتهم ناديا أن العجوز خرجت بنفسها من العزبة، أمطروها بوابل من التعليقات إعراباً عن ابتهاجهم ودهشتهم من أنها تتحسن بمثل هذه السرعة الفائقة، التي تقاس بالساعات لا بالأيام، ثم لم يلبثوا أن تفرقوا بالتدريج، وبقيت العجوز وحدها. صحيح أنهم غالباً ما كانوا يتفقدونها – تارة ليوسا، وأخرى إيليا، ثم ناديا، لكنهم كانوا يكتفون بإلقاء نظرة، ثم يذهبون على الفور. وقال إيليا إنه يجب الآن أن ينتظروا أن تبدأ العجوز بالرقص، حتى يصفقوا لها، فأعجبتهم هذه النكتة، حتى إن ليوسا ابتسمت لها، أما بربتوهجان بالمرح اليائس المفاجئ. كان يتوقد حماسة للقيام بشيء ما، للمشاركة في شيء ما، ولما كان لا يوجد ثمة ما يقوم به، فقد كان لا يكف عن الذهاب إلى أمه، وتكرار :

– ترقدين يا أم؟ طيب، ارقدي، ارقدي، ارتاحي. وحين تقررين الرقص، نادنا بلا تردد. وسنتفرج – أجل. إننا نعرف، يا أم، نعرف، أنك تنوين الرقص – فلا تترددي.

فكانت العجوز ترد عليه بنظرة خائفة متوسلة.

كان ميخائيل آخر من جاء إليها، وكانت العجوز وحدها. جلس في المكان نفسه خلف الطاولة، حيث كان يجلس البارحة، قبيل الفضيحة، وبدأ يدخن، وهو يأخذ أنفاساً سريعة شرهة. وعلى غير العادة كان وجهه محتقناً بالسواد المريض الساخن، وقد تورمت عيناه. كان يدخن، ويطلق الزفرات، محاولاً التخلص من العبء، الذي راح يثقل عليه، وهو لا يكف يسترق النظر إلى أمه، بانتظار شيء ما، والأمل يحدوه بشيء ما. وصل الدخان إلى العجوز، فبدأت تسعل بعذاب، وقد أمسكت صدرها بيديها : كانت الأصوات الجافة المجهدة تبدو وكأنها تمزق حلقها. أطفأ ميخائيل السيجارة على عجل، وخرج، دون أن يقولا لبعضهما كلمة واحدة.

وفيما بعد، وحينما خف السعال، جاءت نينكا إلى العجوز، فاستجابت هذه لها فوراً. رفعت يدها، وراحت تُمَسِّد على كتف الصغيرة، فتتدفأ من هذه الملامسة الممتعة لجسم الصغيرة القريب بالدفء الروحي، لكأنها هي من كانت تُمَسَّد. حتى إنها أغمضت عينيها – كما في لحظة المتعة الخاصة.

– وفجأة قالت نينكا، دون مناسبة :

– إن عمتك ليوسا وَعِّيدة، لا شيء آخر.

– ولماذا؟ – ثابت العجوز إلى نفسها.

– أجل. ألم تعدني بشراء السكاكر؟ وعدتني. الجميع سمعوها. لكنها لم تشتر. وهكذا فهي وعِّيدة.

– هكذا تقولين لها، أن تشتري.

– أجل. إنني أخافها. أنت قولي لها.

– ولماذا تخافينها؟ فهي ليست وحشاً، ولن تعض.

- لن تعض، ومع هذا فهي ما إن تنظر حتى أخاف فوراً. دعيها لا تنظر، وعندها لن أخاف.

- كفاك كلاماً فارغاً.

- دعيني أناديها، وأنت تقولين لها – ألحت نينكا.

- لا داعي. وما حاجتك إلى مزيد من السكاكر؟ فأنت البارحة أحرقت فمك كله، بقيت تمصين من الصباح حتى المساء.

جذبت نينكا نفسها بزعل، وانتزعت نفسها من العجوز، ثم عيرتها:

- أنت نفسك تخافين منها. لو لم تكوني تخافينها، إذن لقلت لها. إنك خوّيفة، ولا شيء آخر.

همت العجوز بالابتسام، لكن الابتسامة لم تتحقق، واقتصر الأمر على تحرك الشفتين بدون تعبير.

يبدو أنها، على كل حال، غفت قليلاً، لأنها لم تسمع ليوسا، وهي تدخل. فتحت عينيها وإذا بليوسا واقفة، تنظر إليها، وتبحث فيها عن شيء ما، وما إن تلاقت نظراتهما حتى سألت :

- كيف تشعرين يا ماما؟

- لا بأس – قالت العجوز. لم تكن تعرف بماذا تجيب. فقد خيل إليها أنها تجاوزت تلك الحدود، التي يكون فيها الشعور جيداً، أم سيئاً، ثم إنها في السابق، وهي على قيد الحياة، لم تكن تفقه في هذا كثيراً، كانت تميز أكثر بين الصحة والمرض، بين التعب والراحة، بين القدرة والعجز.

- أفضل من البارحة؟

وفجأة طلبت العجوز :

- تصالحي مع ميخائيل يا ليوسا، تصالحي. لا داعي لأن تتشاتموا فيما بينكم. إنني أنا المذنبة : إذ انقَضَضْتُ عليه، فلم يتحمل، تملكه الغضب، وهو الآن يتعذب.

ودمدمت ليوسا :

يا سلام، تملكه الغضب، أما أنا فلا. شيء ظريف. لقد أوسعنا جميعنا بالكلام البذيء، أما أنا فعلي الآن أن أعتذر منه. أي كلام فارغ، هذا الذي تقولين يا ماما؟ لا تدافعي عنه من فضلك، فلا رغبة لي الآن في مناقشة هذه المسألة. إن لدي بدوري أحاسيسي، التي أحترمها، وأريد أن يحترمها الآخرون أيضاً.

ارتبكت العجوز :

- إنني لا أتحدث عنه بشيء - راحت العجوز توضح - لست أبرئ ساحته - لا. إنه إنسان، وأنت آخر. لكن ما العمل الآن؟ مهما كان فهو أخوك على كل حال. ومهما كان فأنا أمكم - أمك وأمه. بودي أن أراكم متآلفين، وليس هكذا. تصالحي، يا ليوسا، رأفة بي. تصالحوا مع بعضكم، فأرحل عنكم. هذا وحده ما يؤخرني الآن هنا.

- ألم تملي من هذا يا ماما؟ إنك تكادين تكونين إنساناً طبيعياً، معافى، حتى إنك تمشين، ومع هذا فلا تكفين عن ذلك. هل يعقل أنه لا يوجد موضوع آخر للحديث؟

ومن جديد جاءت نينكا - لم تأت في الوقت المناسب.

راحت العجوز تدعوها للانصراف، وهي تبعدها عن نفسها :

- اذهبي وتنزهي، تنزهي الآن. اذهبي، ستأتين لاحقاً، ولسوف أنتظرك.

- إن عمتك ليوسا وعيدة، ولا شيء آخر - أطلقت نينكا بعناد، وهي تلقي على ليوسا نظرة جانبية.

ولم يبق أمام العجوز إلا أن تسألها :

- ولماذا هكذا؟

- أجل. ألم تعدني بشراء السكاكر؟ وعدتني. الجميع سمعها. لكنها لم تشتر، خدعتني.

دهشت ليوسا :

- وما هذا أيضاً؟ لماذا تتحدثين معي على هذا النحو؟

- إنني لا أتحدث معك، بل مع جدتي، فلا تسترقي السمع.

- ومن الذي أعطاك الحق في أن تخاطبيني بكلمة " أنت "؟ فهل أنا صديقتك؟ أم أنك لا تعرفين أن الكبار يخاطبون بكلمة " أنتم "؟ ألم يشرح لك أحد ذلك؟

- اعتذري - همست العجوز لنينكا.

- أجل - قالت نينكا، وبدأت تبكي بكاء خافتاً، وهي تستعد لأن تجهش بالبكاء.

لكن ليوسا سبقتها :

- إياك أن تبكي، فلن يصدق أحد دموعك. يا لك من فتاة قليلة التهذيب. إنني لا أحب غير المهذبين. ولا أحب حينما يتحدثون معي بهذه الطريقة. انظروا إلى أي أحد وصلت الأمور.

قالت العجوز بحذر :

- لن تفعل ذلك بعد الآن.

- مهلاً يا ماما. إنكم على هذا النحو ربيتموها : لن تفعل ذلك بعد الآن، وكفى. لكن لماذا تتصرف على هذا النحو - دعيها تجاوب. عما قريب سوف تذيقكم الأمرين - سوف ترون - والتفتت ليوسا إلى نينكا، وقالت : إذا كنت بحاجة إليها، فلسوف أشتري لك السكاكر بالطبع - لكن هذا لن يكون هدية، بل ابتزازاً. هل تعرفين ما هو الابتزاز؟

هزت نينكا رأسها بمعنى أنها تعرف، ولقد بلغت مرادها : سوف تشتري.

ما إن خرجت ليوسا، حتى طارت نينكا في إثرها. على الأرجح أنها قررت ترصدها عند البوابة، أو الجري وراءها إلى المتجر، لكي تنتهز الفرصة المناسبة، بحضور الناس، فتبرز من بين الحشد، وتخبط الواجهة بإصبعها :

- اشتري لي من هذه يا عمة ليوسا، فأنا أحب هذه.

لن تضيع أبداً، فهي لا تشبه أمها ولا أباها – بل تشبه البطل المقدام.

من جديد أغفت العجوز، وضاعت بنفسها، وعندما أفاقت كان نصف الغرفة مغموراً بنور الشمس. فراحت تراقبه، وهي تهب للخوف والرغبة في أن يقترب من سريرها بأسرع وقت. كان يخيل إليها أنها ستكتشف اليوم، في هذا اليوم، الذي لم يكن لها الحق فيه، ما لا يعرفه الناس وهم على قيد الحياة، فراحت العجوز تنظر بملء عينيها إلى الشمس على الأرض، إلى بقعتها العريضة المتوهجة، والأمل يحدوها في أن ترى فيه صورة، أو تسمع صوتاً، يمكن أن يفسرا شيئاً ما. لكن حتى الآن لم يحدث شيء، واستمرت الشمس تقترب من العجوز رويداً رويداً، زاحفة على السرير من اليمين، حيث كانت تستوي في النافذة. وفي نورها الصامت، الثاقب بالكاد ارتسمت قوة مرحة مكبوتة، مرصوصة. وبغتة خطر للعجوز أن الشمس يمكن أن تذيبها كما تذيب التمثال الثلجي الرخو، المغطى بالأسمال. لسوف تتدفأ بحرارتها، وتلاطفها، بينما تروح هي نفسها، دون أن تنتبه، تصغر، وتصغر، وتصغر، إلى أن تختفي نهائياً. ويأتي الناس فلا يجدون أحداً في السرير، وحينذاك سيعتقدون أنها خرجت من العزبة من جديد. هكذا فكرت العجوز : الناس، فهي لا تفرق بين الأقراب والأغراب.

أخيراً ارتفعت الشمس إلى السرير، فوضعت العجوز يدها تحتها، لتجمع الدفء لكل جسمها. ولقد خيل إليها أن الوهن سوف يدب إلى جسمها مع الدفء، لكنه لم يكن يخيف العجوز : فالوهن كان ناعماً لذيذاً. الشيء

الوحيد، الذي لم تكن تريده العجوز هو أن تغفو، كانت ترغب في استعراض كل شيء في ذاكرتها.

في مكان غير بعيد بدأت بربارة تتحدث مع أحدهم. وفجأة خطر ببال العجوز شيء، كانت قد نسيته تماماً.فراحت تعصر الصوت فيها، ونادت بربارة، لكن أحداً لم يرد عليها : كان الصوت ضعيفاً جداً، ولم يبتعد كثيراً. فصرخت العجوز من جديد، فجاء الصوت أقوى هذه المرة. سمعته بربارة فجاءت.

- ماذا تريدين يا ماتوشكا؟

- اقعدي – وأشارت العجوز بعينيها إلى السرير، بجوارها. فجلست بربارة.

- ماذا يا ماتوشكا.

- انتظري – راحت العجوز تجمع شتات الكلمات – بعد موتي ...

- لا تقولي هذا يا ماتوشكا.

- بعد موتي – كررت العجوز، وأضافت : – لابد من النوح علي.

- لابد من ماذا؟

- النوح. هم لن يفعلوا. فهم الآن لا يجيدون شيئاً، لا هدهدة الطفل للنوم ولا وداع الإنسان إلى القبر. عليك وحدك أعلق الأمل. سوف أعلمك كيف يجب. إنك تستطيعين البكاء بدون تعليم، لكن يجب أن يكون البكاء نواحاً.

يبدو أن بربارة فهمت، فقد اكتسى وجهها بالخوف. – والآن اسمعي. على هذا النحو ودعت أمي، وأنت ودعيني، ولا تخجلي. فهم لن يقوموا بذلك. – تأوهت العجوز، وغطت عينيها، وهي ترتب الكلمات القديمة، شبه المنسية، التي لا تستخدم الآن، ومن ثم شرعت بصوت رقيق ممطوط :– إيه يا بجعتي، يا ماتوشكا الحنونة ...

– ماتوشكا إ – إ. – عوت بربارة، وهي تهز رأسها، لكأنها تـــرفض المشاركة في هذا التدبير.

وأوقفتها أمها :

– كفاك عويلاً، اسمعي النصائح فقط، وتعلمي. لا داعي الآن للعويل، فأنا ما زلت هنا. احتفظي بالدموع إلى ما بعد، ليوم غـــد، وإلا فقـــد يـــأتي أحدهم، ويقاطعنا. فلنعمل بكل هدوء.

انتظرت العجوز إلى أن هدأت بربارة قليلاً، وشرعت من جديد :

– إيه يا بجعتي، يا ماتوشكا الحنونة.

– إيه يا بجعتي، يا ماتوشكا الحنونة – كررت بربارة خلفهـــا وهـــي تنتحب.

– إلى أين تسلحت، إلى أين تنوين السفر؟

– إلى أين تسلحت، إلى أين تنوين السفر؟

جلست العجوز في السرير، ولتهدئة بربارة عانقتها من كتفيها، وأصبح صوتها أكثر إصرارا وأقوى.

إلى أية وجهة نائية؟

عبر الطريق المعبدة

عبر الحرش الأخضر

إلى كنيسة أم يسوع

إلى قرع الأجراس

إلى طهارة الروح

ومن كنيسة أم يسوع

إلى أمنا الأرض الرطبة،

إلى الأهل والأحباب.

استمر النهار واستمر مشمساً، دافئاً، حراً، وكان القيظ في الجو لاذعاً، خاصاً، من النوع الذي يصادف مع مطلع الخريف الصافي. السماء لا تزال زرقاء، زرقاء فاتحة من الأعلى، فقط عند حافتها، وراء النهر، حيث تغيب الشمس مساء، تغطت بغشاء دخاني، بريئة في مظهرها، ومن فوقها، وإلى اليسار، تعلقت سحابة شفافة وحيدة، وهي تسبح في السماء، وكانت من الضآلة بحيث أنها لم تكن تثير القلق، لكأنها أطلقت عن غير قصد من أجل التمتع برؤياها. أما كل ما بقي من الفضاء فوق الرأس فقد ظل نظيفاً، عميقاً، ويعبر عن الهدوء اللامحدود، الذي كانت الأرض، المغمورة بالشمس، تضطجع فيه بسهولة وإذعان.

منذ فترة طويلة وميخائيل يتعذب على مدخل العنبر، وقد أسند وجهه إلى راحة يده، وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة. جلس إيليا بجواره واستفسر منه :

– ألم تشرب الخمار اليوم؟

هز ميخائيل رأسه.

– أما أنا فقد شربت القليل. هكذا من أجل المزاج. هل سمعت أن أمنا وقفت على قدميها؟

– سمعت.

– سوف ترقص عما قريب – أجل. جرب أن تفهمها. – ضحك واقترح – ربما نشرب قليلاً. هنا في الجوار، ولا داعي للذهاب بعيداً.

– كلا – رفض ميخائيل – يكفي. شربنا البارحة، وكفى.

– لقد أفرطت في الشرب البارحة، ورحت تنقض علينا جميعاً. وتناقَرْتَ مع الأم.

– لم أتناقر معها.

– لكنها غضبت منك كثيراً – أجل. وخاصة بسبب تانتشورا. كانت على استعداد لأن توسعك ضرباً. هذا صحيح. – وضحك من جديد، ثم سأل فجأة : – اسمع، متى أبرقت لتانتشورا كي لا تأتي؟ كل هذه الأيام كنت وإياك، لم أفارقك لحظة. فمتى لحقت؟

نَقَفَ ميخائيل عقبَ السيجارة، الذي انقضت الدجاجات عليه، ثم نظر في عيني أخيه، وقال :

– لكنني لم أرسل لها أية برقية.

– كيف لم ترسل؟

– هكذا.

– لكنك قلت إنك أبرقت؟ كل هرج ومرج البارحة كان بسبب هذا. أولا تذكر ذلك؟

– وكيف لا أذكر؟ أذكر. ولو لم أقل، هل تعرف ماذا كان سيحدث للأم؟ الأفضل أن أخدعها، لكي لا تنتظر.

– لكن ... لكن أين تانتشورا إذن؟

– ومن أين لي أن أعرف؟

– يا سلام. إنها خدعة ويا لها من خدعة.

– لكن لا تفضحني أمامهن، دعهن يعتقدن أنني أبرقت – قال ميخائيل على عجل، إذ رأى ليوسا عند البوابة، وهي في طريقها إليهما. أطرق برأسه : الآن سوف تبدأ. سوف تذكرني بما حدث البارحة وأول البارحة. بكل ما حدث، وما لم يحدث. لكن لا جدوى الآن من تعييره، فهو سيعير نفسه بنفسه فيما بعد، وسوف يكون ذلك أنجع بكثير، والإصغاء إلى تقريعها يجلب له الغثيان – أفٍ منه، إنه يود، حتى بدون هذا التقريع، أن يذهب إلى مكان ما.

- إيليا – قالت ليوسا، قبل أن تتوقف، كان مظهرها حازماً ومضطرباً، لكأن شيئاً ما حدث – هل تعرف أن الباخرة اليوم؟ عما قريب. ولن تأتي التالية إلا بعد ثلاثة أيام.

نهض إيليا حائراً :

- وماذا يجب أن نفعل الآن؟
- أنت وشأنك، أما أنا فعلي أن أسافر. لم يعد بمقدوري البقاء هنا أكثر.
- لابد من السفر – هز إيليا رأسه، ثم نظر إلى ميخائيل – إن أمنا قد شفيت على ما يبدو.
- لو تنتظرون قليلاً – قال ميخائيل بتردد.
- لكن أحداً لم يرد عليه.

دخلوا العزبة، وفي غرفة العجوز تجمدوا فجأة. لم تنتبه لدخولهم. كانت بربارة منحنية فوق أمها، تكاد ترتمي على صدرها، وهي تنشج، بينما راحت العجوز، وهي مغمضة العينين، تترنم بلحن مكدر مخيف. وكان وجهها شاحباً، يكاد يكون احتفالياً. أصاخوا السمع فميزوا الكلمات – كانت كلمات حنونة، يائسة، وهي في الوقت نفسه تبدو مقلوبة، عاليها سافلها، ذات مغزى مضادّ وحيد؛

كم سرتُ على الأرضيات البلوطية

وكم جلستُ على المقاعد الزاهية،

وكم تفرجت على الشبابيك الزجاجية

إيه يا بجعتي يا ماتوشكا الحنونة

سألت ليوسا بصوت عال ساخر :

- ما هذا الذي يجري عندكم؟ ما هذه الحفلة؟

لاذت بربارة والعجوز بالصمت فوراً. ثم قفزت بربارة، وأشارت إلى أمها :

- ها هي ماتوشكا ...

وقهقه إيليا :

- إننا نرى أنها ليست باتوشكا.

- سوف أموت – تمتمت العجوز شاكية، محاولة أن توضح شيئاً ما.

- لقد سئمت من هذه الأحاديث عن الموت يا ماما. كلمة شرف. لا تكفين تكررين الشيء نفسه. هل تعتقدين أن هذا يسعدنا؟ لكل شيء حد. ليس بوسعك أن تتحدثي عن أي شيء آخر. ما زالت الحياة طويلة أمامك، أما أنت فلا تكفين تختلقين شيئاً ما. هذا لا يجوز.

وتابع إيليا :

- يجب أن تعيشي حتى المئة عام يا أم، من كل بد – أجل.

ظلت العجوز ساكتة، وقد ثبتت نظرها على مكان ما في الجدار.

- إنك تفهمين بنفسك يا ماما أنك قد أوشكت أن تشفي تماماً. إذن عيشي، وافرحي بحياتك. كوني مثل الجميع، ولا تدفني نفسك قبل الموت. فأنت إنسان حي، طبيعي – فكوني إياه. – توقفت ليوسا قليلاً، وتابعت بالصوت الحنون نفسه : – أما نحن فعلينا أن نسافر اليوم. هذا أفضل يا ماما.

- ماذا جرى لكم؟ – صرخت بربارة.

لم تصدق العجوز، فهزت رأسها بذهول.

- يجب يا ماما – كررت ليوسا بلطف، لكن بإصرار، ثم ابتسمت – هناك باخرة اليوم، أما التالية فلن تأتي قبل ثلاثة أيام. ونحن لا نستطيع الانتظار طيلة هذه الفترة.

- لا، لا. – أنَّت العجوز

واضطربت بربارة :

- لا يجوز مغادرة ماتوشكا اليوم، لا يجوز. لكأنكما لستما ولـديها. فكرا بالأمر. لا يجوز.

- انتظرا ولو يوماً واحداً – أيدها ميخائيل.

ودون أن ترد عليهما، قالت ليوسا مخاطبة أمها :

- نحن يا ماما لسنا أحراراً لنفعل ما يحلو لنا. نحن نعمل. كان بودي لو مكثت هنا ولو أسبوعا، لكنني في هذه الحالة قد أفقد وظيفتي. فنحن لسنا في إجازة. أفهمينا من فضلك، ولا تزعلي منا. يجب أن نسافر.

بدأت العجوز تبكي، وراحت تكرر، وهي تدير وجهها نحو ليوسا تارة، ونحو إيليا أخرى.

- سوف أموت، سوف أموت. سوف ترون. هذا اليوم. انتظرا قليلاً، انتظرا. لست أريد أي شيء آخر. ليوسا، وأنت يا إيليا، انتظرا. أقول لكما إنني سوف أموت، وسأموت.

- لقد عدت يا ماما إلى الشيء نفسه. نحن نحدثك عن الحياة، فتحدثيننا عن الموت. لن تموتي، ولا تتحدثي عن ذلك من فضلك. لـسوف تعيـشين طويلاً. لقد سررت برؤيتك، لكن علي الـسفر الآن. ولـسوف نـأتي فـي الصيف من جديد. من كل بد سوف نأتي، إننا نعدك بذلك، وحينـذاك لـن نكون على عجل كما هو الحال الآن، بل سنمكث طويلاً.

وتدخل إيليا :

- ولماذا صيفاً. سوف نلتقي لا صيفاً، بل قبل ذلك. فما إن تقف الأم على قدميها بشكل جيد، حتى يكون بمقدورها أن تزورنـا. تعـالي يـا أم. فنذهب إلى السيرك، إنني أعيش غير بعيد عن السيرك، والمهرجون هناك. سوف تستلقين على قفاك من الضحك.

وتساءل ميخائيل :

- أن تسافروا اليوم، أو تسافروا غداً، ما الفرق؟

واحتدت ليوسا :

- لست أنوي مناقشة هذه المسألة معك. على الأرجح أنني أعرف أفضل إن كان هناك فرق، أم لا، أم أنك مازلت تعتبر أن علينا أن نأخذ ماما معنا، وأن علينا لذلك أن ننتظرها؟

- كلا، لا أعتبر.

- وعلى هذا شكراً.

بدأ يستعدان للسفر. كان الاستعداد عجولاً، محرجاً. لم تعد العجوز تبكي، وبدا كأنها تسمرت، وأصبح وجهها خنوعاً، خالياً من الحياة. كانوا يقولون لها شيئاً ما، فلم تكن تجاوب. فقط عيناها كانت تتابعان البلبلة بإهمال، وشرود.

جاءت ناديا على عجل، وهمت بإعداد المائدة قبيل الوداع، لكنهم منعوها، فلم يكن لدى أي منهم رغبة في الأكل. وهمس إيليا لميخائيل :

- ما رأيك في أن نشرب قبيل السفر؟ كاساً واحدة – أجل.

- كلا – رفض ميخائيل – لا أريد.

ولم تنس بربارة مع ذلك، فقالت لليوسا بصوت عال :

- والفستان؟

- ماذا؟

- الفستان، الذي خطته هنا، قلت إنك ستعطينني إياه.

أخرجت ليوسا الفستان المرتب من الحقيبة، ورمته بقرف بين يدي بربارة.

في آخر لحظة أعلنت بربارة فجأة :

- وأنا سأسافر أيضاً. طالما الجميع، فسأسافر بدوري. السفر جماعة أكثر متعة.

- بربارة – أنت العجوز بصوت لا يكاد يسمع.

- أخشى يا ماتوشكا أن يضرم الأولاد النار في العزبة بغيابي. لا يجوز تركهم لوحدهم أبداً، فبوسعهم أن يقترفوا أي شيء بكل سهولة.

- سافري – لوحت العجوز بيدها – سافروا جميعكم.

بدأوا يودعونها. قبلت ليوسا أمها في خدها. أما إيليا فصافحها، وأجهشت بربارة بالبكاء.

- تعافي يا ماما. وتخلي عن التفكير بالموت.

- إن أمنا ماهرة.

- سوف أجيء يا ماتوشكا عما قريب. ربما الأسبوع القادم.

خرج ميخائيل في وداعهم. سمعت العجوز وقع الخطوات خلف النافذة، وكيف قال أحدهم شيئاً، فضحك إيليا، وبعد ذلك هدأ كل شيء، وأغمضت العجوز عينيها.

أيقظتها نينكا هزاً :

- خذي يا جدتي – ومدت لها نينكا بسكرة. لكن العجوز أبعدت يدها.

- إنهم غير جيدين – قالت نينكا عن المسافرين، وقد رثت لجدتها.

تحركت شفتا العجوز، ربما في ابتسامة وربما في ضحكة ساخرة.

بعدها جاء ميخائيل، وجلس على السرير قربها.

- لا بأس يا أم – قال بعد صمت طويل، ثم زفر – لا بأس. سوف نجتاز هذه المحنة، سوف نعيش كما كنا نعيش. لا تزعلي مني. إنني بالطبع أحمق. أوي كم أنا أحمق – أنّ ونهض – ارقدي يا أم، ارقدي، ولا تفكري بشيء. لا تزعلي مني كثيراً. إنني أحمق.

كانت العجوز تصغي دون أن تجيب، ولم تعد تعرف هل كان بوسعها أن تجيب أم لا. كانت تريد النوم، فعيناها كانتا تنغلقان. وقبل المساء، قبل حلول الظلام، فتحتهما مراة عدة ، لكن ليس لفترة طويلة، فقط كي تتذكر أين هي.

وفي الليل ماتت العجوز .

الوداع الأخير

تأتي هذه الرواية في قمة إبداعات راسبوتين الذي عُرف بتركيزه على المشاعر الإنسانية . تنطلق من لحظة عصيّة على النسيان ، لحظة الوداع الذي لا لقاء بعده .

بدقة ورهافة يصور سر العلاقة التي تجمع الروح والجسد وكذلك تلك التي تربط بين رفاق الروح

من كل الأماكن عادوا سريعاً والخوف يتملكهم أن تقسَرَ حبيبتهم على الرحيل قبل أن يصلوا . وهي بدورها راحت تناشد نصفيها الروح والجسد أن يقاوما قليلاً : اصبرا ، قاوما ، أرجوكما ، أنا أعرف أن الأحبة قادمون وسنعزف معاً لحن الوداع الأخير .

فهل يتحقق الرجاء ؟ وأي لحن سيعزف ؟ في قمة المتغيرات ونهايتها تأتي المفاجأة لتندمغ على شاشة الروح الصافية .

الناشر

دار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠
هـ : ٢١٣٤٦٩٢ / فا : ٢١٢٦٣٢٦